



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



ارسلنا
عليكم يا صابغ
الرماد

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٥	من هدى القرآن المجلد ١٨
١٥	اشاره
١٦	اشاره
١٨	سوره الطارق
١٨	اشاره
٢٠	فضل السوره
٢١	الإطار العام
٢٢	[سوره الطارق (٨٦): الآيات ١ الى ١٧]
٢٢	اشاره
٢٢	اللغه
٢٤	إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ
٢٤	بينات من الآيات:
٤٠	سوره الأعلى
٤٠	اشاره
٤٢	فضل السوره
٤٣	الإطار العام
٤٦	[سوره الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٩]
٤٦	اشاره
٤٦	اللغه
٤٧	ستح اسم ربك الأعلى
٤٧	بينات من الآيات:
٧٠	سوره الغاشيه
٧٠	اشاره

٧٢	فضل السوره
٧٣	الإطار العام
٧٤	[سوره الغاشيه (٨٨): الآيات ١ الى ٢٦]
٧٤	اشاره
٧٤	اللغه
٧٤	هل أتاك حديث الغاشيه؟
٧٤	بينات من الآيات:
٩٠	سوره الفجر
٩٠	اشاره
٩٢	فضل السوره
٩٣	الإطار العام
٩٤	[سوره الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ٣٠]
٩٤	اشاره
٩٤	اللغه
٩٩	إن ربك لبالمرصاد
٩٩	بينات من الآيات:
١٢٢	سوره البلد
١٢٢	اشاره
١٢٤	فضل السوره
١٢٥	الإطار العام
١٢٨	[سوره البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٢٠]
١٢٨	اشاره
١٢٨	اللغه
١٣٠	و ما أدراك ما العقبه
١٣٠	بينات من الآيات:
١٤٠	سوره الشمس

- ١٤٠ اشارة
- ١٤٢ فضل السوره
- ١٤٣ الإطار العام
- ١٤٤ [سوره الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٥]
- ١٤٤ اشارة
- ١٤٤ اللغه
- ١٤٧ فألهمها فجورها و تقواها
- ١٤٧ بينات من الآيات:
- ١٥٨ سوره الليل
- ١٥٨ اشارة
- ١٦٠ فضل السوره
- ١٦١ الإطار العام
- ١٦٢ [سوره الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٢١]
- ١٦٢ اشارة
- ١٦٣ إن سعيكم لشتى
- ١٦٣ بينات من الآيات:
- ١٧٥ سوره الضحى
- ١٧٥ اشارة
- ١٧٨ فضل السوره
- ١٧٩ الإطار العام
- ١٨٢ [سوره الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١]
- ١٨٢ اشارة
- ١٨٣ و لسوف يعطيك ربك فترضى
- ١٨٣ بينات من الآيات:
- ١٩٨ سوره الشرح
- ١٩٨ اشارة

٢٠٠	الإطار العام
٢٠٢	[سوره الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨]
٢٠٢	اشاره
٢٠٢	اللغه
٢٠٣	ألم نشرح لك صدرك
٢٠٣	بينات من الآيات:
٢١٤	سوره التين
٢١٤	اشاره
٢١٤	فضل السوره
٢١٧	الإطار العام
٢١٨	[سوره التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]
٢١٨	اشاره
٢١٨	اللغه
٢١٩	أليس الله بأحكم الحاكمين
٢١٩	بينات من الآيات:
٢٢٥	سوره العلق
٢٢٥	اشاره
٢٢٨	فضل السوره
٢٢٩	الإطار العام
٢٣٠	[سوره العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٩]
٢٣٠	اشاره
٢٣١	إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ أَلَمْ يَرَأَ أَنزَلْنَاهُ رِجَالًا وَلَاقِظًا لِّمِطَاطِقٍ أَلَمْ يَرَأَ أَنزَلْنَاهُ رِجَالًا وَلَاقِظًا لِّمِطَاطِقٍ
٢٣١	بينات من الآيات:
٢٤٤	سوره القدر
٢٤٤	اشاره
٢٤٨	فضل السوره

- الإطار العام ٢٥٠
- [سوره القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥] ٢٥٢
- اشاره ٢٥٢
- و ما أدراك ما ليله القدر ٢٥٣
- بينات من الآيات: ٢٥٣
- ليله القدر متى هي؟ ٢٦٥
- سوره البيئه ٢٦٨
- اشاره ٢٦٨
- فضل السوره ٢٧٠
- الإطار العام ٢٧٢
- [سوره البيئه (٩٨): الآيات ١ الى ٨] ٢٧٤
- اشاره ٢٧٤
- أولئك هم خير البريه ٢٧٥
- بينات من الآيات: ٢٧٥
- سوره الزلزله ٢٨٤
- اشاره ٢٨٤
- فضل السوره ٢٨٦
- الإطار العام ٢٨٨
- [سوره الزلزله (٩٩): الآيات ١ الى ٨] ٢٩٠
- اشاره ٢٩٠
- إذا زلزلت الأرض زلزالها ٢٩١
- بينات من الآيات: ٢٩١
- سوره العاديات ٢٩٨
- اشاره ٢٩٨
- فضل السوره ٣٠٠
- الإطار العام ٣٠١

٣٠٢ [سوره العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

٣٠٢ اشاره

٣٠٣ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ

٣٠٣ بينات من الآيات:

٣١١ سوره القارعه

٣١١ اشاره

٣١٤ فضل السوره

٣١٥ الإطار العام

٣١٦ [سوره القارعه (١٠١): الآيات ١ الى ١١]

٣١٦ اشاره

٣١٧ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ

٣١٧ بينات من الآيات:

٣٢٢ سوره التكاثر

٣٢٢ اشاره

٣٢٤ فضل السوره

٣٢٥ الإطار العام

٣٢٦ [سوره التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

٣٢٦ اشاره

٣٢٧ أَيُّهَا كُفَّٰرُ الْتَّكٰثِرِیْنَ

٣٢٧ بينات من الآيات:

٣٤٤ سوره العصر

٣٤٤ اشاره

٣٤٦ فضل السوره

٣٤٧ الإطار العام

٣٤٨ [سوره العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

٣٤٨ اشاره

٣٤٩ وَ الْعَظْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ

٣٤٩ بينات من الآيات:

٣٥٤ سورة الهمزة

٣٥٤ اشاره

٣٥٤ فضل السوره

٣٥٧ الإطار العام

٣٥٨ [سوره الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

٣٥٨ اشاره

٣٥٩ وَ يَلِّ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُّمَزَةٍ

٣٥٩ بينات من الآيات:

٣٦٦ سورة الفيل

٣٦٦ اشاره

٣٦٨ فضل السوره

٣٦٩ الإطار العام

٣٧٠ [سوره الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

٣٧٠ اشاره

٣٧١ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

٣٧١ اشاره

٣٧١ بينات من الآيات:

٣٧٤ قصة أصحاب الفيل:

٣٧٨ سورة قريش

٣٧٨ اشاره

٣٨٠ فضل السوره:

٣٨١ الإطار العام

٣٨٢ [سوره قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤]

٣٨٢ اشاره

٣٨٣ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

٣٨٣ بينات من الآيات:

٣٩٠ سورة الماعون

٣٩٠ اشاره

٣٩٢ فضل السوره

٣٩٣ الإطار العام

٣٩٤ [سوره الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]

٣٩٤ اشاره

٣٩٥ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ

٣٩٥ بينات من الآيات:

٤٠٠ سورة الكوثر

٤٠٠ اشاره

٤٠٢ فضل السوره

٤٠٣ الإطار العام

٤٠٤ [سوره الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]

٤٠٤ اشاره

٤٠٥ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ

٤٠٥ بينات من الآيات:

٤١٢ سورة الكافرون

٤١٢ اشاره

٤١٤ فضل السوره

٤١٥ الإطار العام

٤١٦ [سوره الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦]

٤١٦ اشاره

٤١٧ لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ

٤١٧ بينات من الآيات:

٤٢٤	سوره النصر
٤٢٤	اشاره
٤٢٤	فضل السوره
٤٢٧	الإطار العام
٤٢٨	[سوره النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]
٤٢٨	اشاره
٤٢٩	فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ
٤٢٩	بينات من الآيات:
٤٣٤	سوره المسد
٤٣٤	اشاره
٤٣٤	الإطار العام
٤٣٨	[سوره المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]
٤٣٨	اشاره
٤٣٩	تَبَّتْ يُتَّىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ
٤٣٩	بينات من الآيات:
٤٤٤	سوره الإخلاص
٤٤٤	اشاره
٤٤٨	فضل السوره
٤٥٠	الإطار العام
٤٥٢	[سوره الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤]
٤٥٢	اشاره
٤٥٢	قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ
٤٥٢	بينات من الآيات:
٤٤٤	سوره الفلق
٤٤٤	اشاره
٤٤٨	فضل السوره

الإطار العام ٤٦٩

[سوره الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥] ٤٧٠

اشاره ٤٧٠

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْبِ ٤٧١

بينات من الآيات: ٤٧١

سوره الناس ٤٧٦

اشاره ٤٧٦

الإطار العام ٤٧٨

[سوره الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦] ٤٨٠

اشاره ٤٨٠

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ٤٨١

بينات من الآيات: ٤٨١

خاتمه الكتاب ٤٩٠

اشاره ٤٩٠

و كلمه أخيره: ٥٠٢

تعريف مركز ٥٠٤

سرشناسه: مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۴م ۱۳۷۷۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشاره

سوره الطارق

اشاره

ص: ۳

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال: «من كانت قراءته فى فرائضه بالسماء و الطارق كانت له عند الله يوم القيامة جاها و منزله، و كان من رفقاء النبيين و أصحابهم فى الجنة»

ص: ٥

لكى يتسع قلب الإنسان للحقائق الكبرى فيعيها و يتكيف معها يرغبه الوحي فى النظر و التفكير فى آفاق السماء و ما فيها من النجوم الثاقبه و الشهب الطارقه، و فى أغوار النفس و ما انطوت عليه من عالم كبير، و فى نشأته الأولى حيث خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب و الترائب، و مصيره الأخير حيث يواجه اعماله بلا حجاب و لا قوه و لا ناصر.

و لكى لا- يتهرب البشر من الحقائق العظيمه، كواقع الرجوع و الحساب بتكذيب الرساله أو تأويل انبائها بما يتناسب و اللامسؤوليه، يذكره الوحي بأنّ القرآن قول فصل، و ليس بالهزل.. و ينذر المكذبين و الكافرين بأنّ الله يكيد لهم كيدا، و لكنّ يمهلهم، و أنت أيها الإنسان اصبر و امهلهم رويدا.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ
(٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ
(١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

اللغة

١[و الطارق]:هو النجم الذى يطرق بضيائه آفاق السماء، يقال: طرفنى فلان إذا أتانى ليلا،و أصل الطرق الدق،و منه المطرقه لأنها يدق بها،و الطريق لأن المارّه تدقّه،و الطارق:

الآتى ليلا يحتاج إلى الدق.

٦[دافق]:الدفق صبّ الماء الكثير باعتماد قوى،و مثله الدفع،و جاء فى مفردات الراغب:ماء دافق:سائل بسرعه.

هكذا ماء الرجل يتدفق و يتصبّب فى رحم المرأة بقوّه و بسرعه.

٧[الترائب]:هى ضلوع الصدر.

٩[تبلى السرائر]:أى تظهر، يقال بلى الثوب أى خلق، و بلوته اختبرته كأنى أخلقته من كثره اختبارى له،و يوم القيامه تختبر السرائر حتى يظهر خيرها من شرها.

١١[الرجع]:المطر لأنه يجىء و يرجع و يتكرر.

١٢[الصدع]:هو الشق فصدع الأرض انشقاقها بالنبات و ضروب الزروع و الأشجار.

ص:٨

بينات من الآيات:

(١) أ رأيت النجم الذى يطرق بنوره الثاقب فى عرض السماء! أ رأيتة كيف يدفع الله به شرَّ إبليس و جنوده عن السماء و أهلها و الأرض و سكَّانها! إنه مثل واحد لحفظ الله، فقسما به و بالسماء التى يحفظها: إنَّ الله هو الحفيظ، و لولاه لما استطاع الإنسان أن يعيش لحظه و لا غيره من الأحياء.

وَ السَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ قَالُوا: الطَّرِقَ يَعْنَى الدَّقَّ، وَ إِنَّمَا سَمِيَ السَّبِيلَ طَرِيقًا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَدُقُّ عَلَيْهِ بَرَجْلَهُ، وَ زَائِرُ اللَّيْلِ سَمِيَ طَارِقًا لِأَنَّهُ بِحَاجِهِ إِلَى دَقِّ الْأَبْوَابِ لِتَفْتِيحِهَا، وَ لَعَلَّ كُلَّ قَادِمٍ تَسْمِيهِ الْعَرَبُ طَارِقًا لِأَنَّهُ هُوَ الْآخِرُ يَدُقُّ الْأَبْوَابَ بِاعْتِبَارِهِ غَرِيبًا عَنِ الْمَنْطِقَةِ.

و القسم بالسماء و ما يطرق فيها من النجوم الثاقبه يستثير عقل الإنسان، و يستقطب اهتمامه، و ينفض عن قلبه غبار الغفله و السبات.. و بالذات حين

يكون القسم بالسماء البعيدة عن متناول أيدينا و عن مرامى فكرنا، وبالطارق الذى يخشاه الإنسان، فليس كل طارق يطرق بخير.

و قد قال الشاعر:

يا راقد الليل مسرورا بأوله إنَّ الحوادث قد يطرقن أسحارا

لا تفرحنَّ بليل طاب أوله فربَّ آخر ليل أجاج النارا

و حين يرتفع الإنسان إلى أفق التفكير و التدبر فى آيات الله فى السماء و الأرض يقترب من معرفه الحقائق الكبرى، بينما الذى يعيش فى زنانه مشاكله اليوميه، و هو اجس نفسه و وساوس قلبه، فإنه يحرم التفكير فى الآفاق، و يحرم بالتالى بولغ الحقائق.

و لعلَّ هذا من أهداف القسم فى القرآن: الارتفاع بالإنسان إلى آفاق الحقائق بعيدا عما يحيط بفكره من قضايا خاصه لا تنفك تستقطب اهتماماته.

و القرآن منهج تفكير قبل أن يكون دائره للمعارف، و لذلك فهو لا- يهدف مجرد تعليم الإنسان، بل جعله قادرا على التعلّم بذاته، فهو يفتح مغاليق الفكر بمفاتيح الذكر، و يبصّر الإنسان الحقائق برفع الغشاوات عن قلبه، و يخرق الحجب التى تستر بصيرته عن رؤيه الحقائق باستثاره العقل و نفص غبار الغفله عن الفؤاد.

و سوره الطارق تتجلّى بين السور القصار بهذه الميزه. إنّها كما النجم الثاقب بنوره الوضىء تطرق أبواب القلب حتى تفتحه أمام شلال النور المنبعث من الوحي.

[٢] ما هو الطارق؟ دع فكرك يجوب فى آفاق الخليفه لعلّه يكتشف ما هو الطارق.

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ

ص: ١٠

هذه الكلمه تستثير عقل الإنسان، كما تبين له أهميه القضيه. و قال بعض المفسرين: كلما ذكرت هذه الجملة فى القرآن عرف موضوعها، مثل قوله سبحانه:

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلُهُ الْقَدْرِ لَيْلُهُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، بينما إذا استخدمت جملة وَ مَا يُدْرِيكَ فَإِنَّ الموضوع يبقى مجهولا فى النص.

[٣]: ما هو الطارق إذا؟ إنه النجم العالى الذى ينقب ضوءه الباهر جدار الظلام.

[النجم الثاقب] قالوا: الثاقب المضىء، و منه شهاب ثاقب، و العرب تقول: اثقب نارك أى أضئها، و الثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان.

و اختلفوا فى تأويل هذه الكلمه.. و الذى يبدو لى أن الطارق هى الأقدار التى تتواصل فى الليل و النهار بخيرها و شرّها، و لذلك نستعيد بالله من طارق السوء حسب

النص المأثور عن النبى -صلى الله عليه و آله-: «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل و النهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن» (١).

و

فى الدعاء: «بك أستجير يا ذا العفو و الرضوان من الظلم و العدوان، و من غير الزمان، و تواتر الأحزان، و طوارق الحدثنان، و من انقضاء المدّة قبل التأهب و العدّه» (٢).

و حسب هذا الرأى فإنّ النجم الثاقب هو بيان لهذا الطارق الذى يشبه النجم الثاقب، كما قال سبحانه: [□]إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ [□]شِهَابٌ ثَاقِبٌ (٣).

ص: ١١

١-١ (١) القرطبى/ج ٢٠ ص ٣.

٢-٢ (٢) مفاتيح الجنان/دعاء يوم الأحد.

٣-٣ (٣) الصّافات ١٠/

و يكون القسم -إذا- بتلك الشهب التي يحفظ الله بها السماء من الشياطين الذين يسترقون السمع، و يكون السياق متناسبا مع الحديث عن حفظه سبحانه لأهل الأرض.

و قيل: إنَّ كلَّ نجم يسمّى طارقا باعتباره يطلع بالليل، و عليه فإنَّ القسم بكلِّ نجوم السماء أو النجوم اللّامعه، و قال البعض:

بل النجم هنا هو زحل، و قد روى ذلك عن الإمام الصادق -عليه السلام- (١)، و قال بعضهم: بل هو الثريا، و قال الآخر: بل هو الزهره.

و قد تتسع العبارات لكلِّ تلك التطبيقات، ذلك لأنَّ آيه تتلوها في سوره الملك يظهر منها أنّ مصاييح السماء هي رجوم الشياطين أو مراكز لرجمهم، قال ربنا سبحانه: **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (٢).**

فمن المحتمل أن تكون النجوم هي ذات الشهب الطارقه أو أنّها مصادر للشهب.

يبقى أن نقول: إنّ المراد من النجم يمكن أن يكون جنس النجم فيشمل سائر الأنجم و ليس واحدا منها.

[٤] حينما ينظر الإنسان إلى متانه بناء السماء، و كيف جعلها الله سقفا محفوظا، و زرع في أرجائها مراجم للقوى الشيطانيه التي تسعى لإفساد النظام فيها، يطمئن إلى تلك اليد العظيمة التي تمسك السموات و الأرض أن تزولا، و يعرف أنّه في كنف ربّ عظيم، يحفظه من طوارق السوء.

إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ

ص: ١٢

١-١) راجع نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٤٩.

٢-٢) الملك/٥.

عشرات الألوف من الحفظه يحرسونك من الأخطار المحدقه بك، فلا يصيبك إلا ما تستحق أو ما تقتضيه حكمه الرب.

أنظر إلى نظام حمايه الجسد تتركب من أجهزه عديده:

ألف:فجهاز التكيف مع المحيط المتشكّل من العين و الأذن و الذوق و سائر الأحاسيس، و أبرز ما فيه شبكه الأعصاب العجيبه.

باء:و جهاز الدفاع أمام الأخطار و أبرزها الرجل و اليد.

جيم:و جهاز الحمايه من الجراثيم، و فى طبيعتها امتناع الجسد من استقبال مالا يناسبه من الطعام و الشراب، كما إذا كانا عفنين أو مرّين.

دال:و جهاز المناعه الذاتيه ضد الجراثيم، التى لولاها لغزت الفيروسات و الميكروبات أرجاء الجسد بسهولة. أ رأيت الذى يفقد هذه المناعه و يبتلى بمرض الإيدز، كيف يموت بأبسط ميكروب لأنّ جسده لا يقاومه.

هاء:و العواطف و الشهوات التى تدفع الإنسان دفعا قويا نحو المحافظه على الجسد.

واو:و العقل الذى يقود الجسد فى خضم صراعه المرير ضد الطبيعه و ضد سائر الأخطار.

و عشرات الأجهزه المحيطه بالجسم التى لو أردنا شرحها لمألت أسفارا كبيره.

و مثل نظام حمايه الجسد عشرات الأنظمه الأخرى المبتوثة فى الطبيعه تحمى الإنسان من التلاشى، مما نعرف بعضها و نجهل الكثير، كلّها شاهده على أنّ الله

سبحانه هو الحفيظ الذى أحاط الإنسان بحمايته، قال سبحانه: لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١) وفى هذه الآيه

جاء الحديث المأثور عن الإمام الباقر-عليه السلام-قال: يقول: بأمر الله من أن يقع فى ركعتي «بئر»، أو يقع عليه حائط، أو يصيبه شىء، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه، يدفعونه إلى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل، و ملكان بالنهار يتعاقبانه (٢) وبالذات المؤمنين و كل بهم ملائكة يحفظونهم،

فقد روى عن النبي-صلى الله عليه وآله-أنه قال: «و كل بالمؤمن مائه و ستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعه العسل الذباب، و لو و كل العبد إلى نفسه طرفه عين لا تختطفته الشياطين» (٣).

و يظهر من هذا الحديث: أن الملائكة يذبون الشياطين عن المؤمن لكي لا يوثروا عليه ماديا و معنويا، و يقوم الحفظه بحفظ أعمال العباد و ما تبدى منهم، من تبه و كلمه و فعله، قال الله سبحانه: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (٤).

و هكذا لا يصيب الإنسان مصيبه أو أذى إلا بإذن الله، إذ لولا ذلك لمنعت عنه الحفظه، و قد قال ربنا سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .

[٥] و لكي يتأكد الإنسان من الحفظه فليفكر فى نشأته: كيف كان نطفه (فى صلب أبيه ثم رحم أمه) مهانه ضعيفه. من الذى حفظها فى مسيرتها الصعبه؟ أو تدرى كم هى الأنظمه الدقيقه التى تحيط بالنطفه و هى تتقلب من طور إلى طور فى رحم الأم؟ و هل كان من الممكن لك و أنت نطفه أن تحفظ نفسك من

ص: ١٤

١-١ (١) الرعد ١١.

٢-٢ (٢) نور الثقلين/ج ٢ ص ٤٨٧.

٣-٣ (٣) تفسير البصائر/ج ٥٤ ص ٣٥٤.

٤-٤ (٤) الإنفطار ١٠-١٢.

الأخطار؟ فليُنظَرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ إِنَّ هذا النظر يفتح أمام الإنسان آفاقاً من المعرفة، لأنه يهتدى بذلك إلى حقيقته نفسه و مدى ارتكاسها في العبودية و الحاجة فيخرج من ظلمه الغرور و الكبر و التعالي إلى نور الواقعيه و التواضع، كما أنه (بالنظر إلى بدء نشأته) يعرف مستقبله. أو ليس الإنسان يعود كما بدأ؟ [٦] من الصعب علينا تصوّر العدم حيث أنشأنا الباري لا من شيء كان و لا مثال احتذاه، و لكن أفلا- نقدر على تصوّر المسافه بين النطفه و بين الإنسان المتكامل؟ إذا لنعرف أنّ المسافه بين النشأه الأولى حينما خلقنا الله من تراب و حتى جعلنا في صورته نطفه أبعد و أعظم. أمّا المسافه بين العدم و الوجود فإنّها لا تقاس بأية مسافه اخرى، لأنّ تصوّر العدم من قبلنا يشبه المستحيل.

دعنا إذا ننظر إلى حيث كنّا قطرات من ماء دافق، و نتساءل: كيف كنّا، و الآن كيف صرنا؟ أ فليس الذي حوّلنا من تلك الحاله إلى حيث نحن بقادر على أن يعيدنا بعد الموت؟ بلى. أَنَّهُ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَنْبَعُ مِنَ الصَّلْبِ إِلَى الرَّحْمِ لِيَسْتَقَرَّ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ حَيْثُ يَنْشَأُ خَلْقًا آخَرَ .

و لعل كلمه «من» هنا تشير إلى أنّ هذه القطره المتواضعه ليست كلّها منشأ خلق البشر بل شيء منها، بلى. فإنّ خليه واحده بين ملايين الخلايا هي منشأ خلقه هذا العالم الكبير الذي يختصر في بناء الإنسان فإنّها حين تستقر في الرحم تبدأ بامتصاص الغذاء لتنشطر إلى خلايا ثم تتكوّن كلّ خليه في زاويه ليصنع الله منها

جزء من وجود الإنسان بدقه و لطف حتى تكتمل نشأته.

و يجدر بنا أن نستمع هنا إلى

تذكره إيمانيه على لسان الإمام الصادق-عليه السلام-في حديثه المفصّل إلى تلميذه المفصّل بن عمر حيث يقول:

نبتدئ يا مفضّل بذكر خلق الإنسان فاعتبره، فأول ذلك ما يدبّر به الجنين في الرحم، وهو محبوب في ظلمات ثلاث: ظلمه البطن، و ظلمه الرحم، و ظلمه المشيمه، حيث لا حيله عنده في طلب غذاء، و لا دفع أذى، و لا استجلاب منفعه، و لا دفع مضرة، فإنّه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلك غذاؤه حتى إذا كمل خلقه، و استحکم بدنه، و قوى أديمه على مباشره الهواء، و بصره على ملاقاه الضياء، هاج الطلق بأمّه فأزعجه أشد إزعاج و أعنفه حتى يولد، و إذا ولد صرف ذلك الدم الذى كان يغذوه من دم أمّه إلى ثدييها، فانقلب الطعم و اللون إلى ضرب آخر من الغذاء، و هو أشدّ موافقه للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمّظ و حرّك شفّتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدى أمّه كالإدواتين المعلقتين لحاجته إليه، فلا يزال يغتذى باللبن ما دام رطب البدن، رقيق الأمعاء، ليّن الأعضاء، حتى إذا تحرك و احتاج إلى غذاء فيه صلابه ليشد و يقوى بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان و الأضراس ليضع به الطعام فيلين عليه، و يسهل له إساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك، فإذا أدرك و كان ذكراً طلع الشعر فى وجهه، فكان ذلك علامه الذكر و عزّ الرجل الذى يخرج به من حدّ الصبا و شبه النساء، و إن كانت أنثى يبقى وجهها نقيّاً من الشعر، لتبقى لها البهجه و النضاره التى تحرّك الرجال لما فيه دوام النسل و بقاؤه.

اعتبر يا مفضل فيما يدبّر به الإنسان فى هذه الأحوال المختلفه، هل ترى يمكن أن يكون بالإهمال؟ أ رأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم و هو فى الرحم ألم يكن سيدوى

و يجفّ كما يجفّ النبات إذا فقد الماء؟ و لو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيقى فى الرحم كالموؤود فى الأرض؟ و لو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً، أو يفتدى بغذاء لا يلائمه و لا يصلح عليه بدنه؟ و لو لم تطلع عليه الأسنان فى وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام و إساغته، و أو يقيمه على الرضاع فلا يشدّ بدنه و لا يصلح لعمل؟ ثم كان تشتغل أمّه بنفسه عن تربيته غيره من الأولاد، و لو لم يخرج الشعر فى وجهه فى وقته ألم يكن سيقى فى هياه الصبيان و النساء فلا ترى له جلاله و لا وقاراً؟! (١).

[٧] و هذه النطفه المتدفقه من صلب الذكر تلتقى على ميعاد بأخرى من ترائب الأنثى لتلقحها.

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ قالوا: الترائب نواحي الصدر، و واحدتها تريبه، و هو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب. أمّا الصلب فهو عظم الظهر و مخّه.

و السؤال: ماذا يعنى أن يكون الإنسان هو بين الصلب و الترائب؟ يجيب عن ذلك بعضهم بالقول:

إن صلب الإنسان هو عموده الفقرى، و ترائبه هى عظام صدره، و يكاد معناه يقتصر على الجدار الصدرى الأسفل، و يضيف: فى الأسبوع السادس و السابع من حياه الجنين فى الرحم ينشأ ما يسمّى (جسم وOLF و قناته) على كلّ جانب من جانبى العمود الفقرى، و من جزء من هذا تنشأ الكلى و الجهاز البولى، و من جزء آخر تنشأ الخصيه فى الرجل و المبيض فى المرأة، فكلّ من الخصيه و المبيض فى بدء تكوينهما يجاور الكلى، و يقع بين الصلب و الترائب اى ما بين منتصف العمود الفقرى تقريبا

ص: ١٧

و مقابل أسفل الضلوع، و يضيف: و كل من الخصيه و المبيض بعد كمال نموّه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف، فتهدب الخصيه حتى تأخذ مكانها في الصفن (و وعاء الخصيه) و يهدب المبيض، حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم (١).

[٨] الحقائق الكبرى تنزل من قلب البشر لما فيها من ثقل و فخامه، و لذلك يحتاج الإنسان إلى العروج إليها عبر سلّم الحقائق الجزئيه التي هي مفرداتها و تجلياتها، كما أنّ أشعه الشمس هي ظلال لعينها. إنّما يسمو الفؤاد إلى مستوى الحقائق الكبرى إذا اتخذ سلّمًا إليها، أما لو تركّز فيها النظر و تسمّرت عليها القدم فإنّها ستكون عقبه دون الصعود و حجابا دون الرؤيه، و هذه هي مشكله البشر الرئيسيّه أنّه يتوقّف عند الحقائق الجزئيه. أ فلا نرى آثار قدره الرب في كلّ خلّيه و ذره، مع كلّ لحظه من لحظات الحياه؟ بلى. و لكن لماذا القلب لا يزال مرتابا في الاخره، و لا يزال محجوبا عن وعيها؟ و حتى المؤمن بها بصوره مبدئيه تراه يتعامل معها بشك، لأنّه لا يسمو بعقله و وعيه عبر الحقائق التي تتجلّى فيها قدره الرب سبحانه، و هكذا لا يستطيع طرد و سوسه الشيطان من قلبه. كيف يعيد الله الإنسان بعد أن أضحي ترابا؟ تعالوا نفترض: أنّ الخلّيه الحيّه التي خلق الإنسان بها تبقى كذلك دون أن تفتنى، و إنّما تتلاشى الخلايا الاضافيه التي اجتمعت حولها في الرحم بعد اللقاح، و إنّ الله يحفظ تلك الخلّيه في وعاء القبر أو في أيّ وعاء آخر، كما حفظها في صلب الرجل من قبل، ثم إنّ سبحانه يهيه الأرض لنموّها من جديد كما نمت في رحم الام. أو نجد في ذلك غرابه؟ كلاً. و نحن نعرف أنّ الخلّيه الحيّه يمكن أن تعيش في ظروف مختلفه و بصور شتى، و بعض الخلايا تعيش في ظروف صعبه جدّا، فلما ذا نستغرب مثلا أن تكون تلك الخلّيه الرئيسيّه من أمثالها؟ هذه الفكره التي قلنا أنّها نظريه نجدها تكفينا لحلّ اللغز التالي: كيف

ص: ١٨

يعيد الله الإنسان بعد الموت؟ وأقول: (تكفيناً) لأنَّ قيمه النظرية حلّ اللغز، و لعل نظريات أخرى تكون موجوده، و لكن وجود نظريه واحده تغنى عن غيرها لنفى حاله التشكيك فى الحقيقه.

على أنّ هذه ليست مجرد نظريه، و إنّما وردت عليها

روايه مأثوره عن الامام الصادق عليه السلام:- أنّه سئل عن الميت يبلى جسده؟ قال: «نعم. حتى لا يبقى لحم و لا عظم إلا طينته التى خلق منها، فإنّها لا تبلى، تبقى مستديره فى القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرّه» (١).

و هكذا قال ربنا بعد أن ذكرنا بالنشأه الاولى أنّه قادر على رجعه.

إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ [٩] و لكن عوده الإنسان ليست فى دوره طبيعیه كما يعود النبات فى فصل الربيع! كلاً.. إنّها عوده مقصوده كما أنّ خلقه فى الدنيا جاء بحكمه بالغه. فما هو الهدف من عودته؟ إظهار حقيقته.

يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ الدنيا دار ابتلاء و اختبار، و من طبيعه الدنيا أنّها خليطه فيها الخير و الشر، و لا يميّز خيرا عن شرا بسهولة، بينما الاخره دار جزاء، و كلّ شىء فيها ظاهر، و يعطى الله الإنسان من قوه الاحساس ما يستوعب الكثير مما لم يقدر عليه فى الدنيا، بصره يومئذ حديد، و يذوق نار جهنم على أنّه لا يستطيع أن يذوق جزء من مليون جزء منها فى الدنيا، و يتنعم بنعم الجنه التى لا يمكنه أن يتنعم بجزء يسير منها فى الدنيا.

ص: ١٩

في الأحاديث المأثوره عن السرائر: أنها أعمال العباد، فقد روى عن معاذ بن جبل أنه قال: سألت رسول الله: ما هذه السرائر التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاه و الصيام و الزكاه و الوضوء و الغسل من الجنابه و كل مفروض، لأن الأعمال كلها سرائر خفيه، فإن شاء الرجل قال: صليت، و لم يصل، و إن شاء قال: توضأت و لم يتوضأ، فذلك قوله: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» (١).

(١٠) في ذلك اليوم الرهيب يقف الإنسان عارياً من أي ستر، بعيداً عن أي عذر، لا يمكنه التبرير و النفاق و لا الكذب و الدجل. و أنى له ذلك و قد اجتمعت عليه الشهود مميًا حوله و مميًا فيه، و قلبه مفضوح على كفه نياته، و عقائده كلها مكشوفه؟! فأين المهرب؟ قد يزعم البعض أنه يقدر على منع بعض الشر عن نفسه، كلاً. فهو أضعف من ذلك. إنه منح في الدنيا القوه لكي تجرب إرادته، و يمتحن إيمانه، أمياً ذلك اليوم فهو مستسلم ذليل. و قد يزعم البعض أنه يستعين بحزبه و عشيرته و والديه و أسرته، كلاً. إنهم يومئذ مشغولون بأنفسهم. و هب أنهم أرادوا نصره فهل يقدرون؟ هيهات.

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ و اليوم قبل ذلك اليوم دعنا نجأر إلى ربنا لعله يغفر لنا الذنوب التي اجترحناها قبل الفضيحة الكبرى أمام الملا العظيم و قبل العذاب الشديد.

(١١) و عذاب الآخرة ليس العذاب الوحيد لمن انحرف عن مسيره الحق، ففي

ص: ٢٠

الدنيا عذاب أخفّ منه، و لكنّه فى مقاييسنا عذاب شديد. إنّهُ الهزيمة النكراء التى تلحق الكفّار و المنافقين.. ذلك لأنهم شدّوا عن سنن الله فى السماء و الأرض، و كفروا بالحق الذى أنزل على النبى صلّى الله عليه و اله.

فقسما بالسماء و بالأرض: إنّ الوحى حق، و النذير حق، و ليس بالهزل.

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ قَالُوا: الرَّجْعُ يَعْنِي الْمَطْرَ، وَ اسْتَشْهَدُوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أبيض كالرّجّع رسوب إذا ما ثاخ فى محتفل يختلى

و قال بعضهم: بل الرجّع الشمس و القمر و النجوم يرجعون فى السماء، تطلع فى ناحيه و تغيب فى الاخرى.

و قيل: بل الملائكة يرجعون بأعمال العباد.

و يبدو لى أنّ الأنسب إلى السياق هو رجوع الأفلاك إلى مراكزها بتناسب و نظم، دون أىّ تغيير فى مسارها، ممّا يدلّ على رجوع الإنسان إلى أمر الله فى يوم شاء أم أبى.

(١٢) و قسما بالأرض التى تتصدّع.

وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ قَالُوا: تَصَدَّعَ بِالنبات، كما قال ربنا سبحانه: ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا .

و يبدو لى أنّ الأرض قد جعلها الله ذلولاً بحيث تستقبل المطر، و تخرج النبات، و تمكّن الفلاح من حرثها، و البناء من حفرها، و طالب الكنز من استئثارها.. و كلّ

ذلك يدلّ على حكمه الله البالغه من خلقها.

(١٤-١٣) كما الطبيعه تجليات لسنن الله، و مظاهر أسمائه الحسنی، كذلك الوحي تجلّ لآياته، و بيان لسننه، و مظهر لاسمائه.

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ يَفْصَلُ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَا وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، كَمَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْفَصْلِ.

و

قد روى عن الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- عن النبي -صلى الله عليه و اله- أنه قال: «سمعت رسول الله يقول: كتاب فيه خبر ما قبلكم، و حكم ما بعدكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، و من ابتغى الهدى في غيره أضله الله» (١).

و قد جاءت هذه الكلمه في هذا السياق لكي لا يلجأ الإنسان من هول ما يسمعه إلى التكذيب، و يقول في نفسه: لعلّ هذا الوعيد نوع من التخويف المبالغ فيه.

كلاً.. فليس في القرآن كلمه كاذبه أو مبالغه، و لا حرف و لا إيفاء حرف.

إنّ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

و هكذا يسدّ السياق كلّ منافذ الفرار النفسى من مواجهه الحقيقه الكبرى التى تنتظر الجميع (حقيقه الجزاء) فلا إخفاء و لا تبرير و لا محاورات الاستنصار بالآخرين أو التهزّب من الحقيقه بتكذيبها.

(١٥) و لا يقتصر الكفّار على تكذيب رسالات الله للتهرب من الحقائق التى

ص: ٢٢

تذكر بها، وإنما يحاربونها بشتى ألوان الحرب حتى يصنعوا حجاباً نفسياً واجتماعياً بينهم وبينها فلا يتأثروا بها أبداً.

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا و الكيد هو: التلطف لبلوغ الهدف بأساليب مختلفه، و يستخدم فى الشرّ و الخير، و إن كانت الكلمه توحى بالشر. و الكلمه المرادفه لها فى أدبنا اليوم: الخطه، و يبدو أنّ مجمل مساعى الكفّار و من هم فى خطّ النفاق و الفسق تتجه نحو تغيير مسار الحق، و إخفائه بالباطل الذى يبتدعون، و الصد عنه بالمكر و الكيد. إنّ الخط الاستراتيجى للكفر.

و من خصائص الكيد التوسل ببعض الخطط الخفيه التى لا تبلغ الهدف إلّا عبر مراحل عديده، و قد يضع الكفّار خطّه خمسيه أو عشريه أو حتى بعيدة المدى لعلّها تبلغ هدفها بلا عقبات، لأنّها فى زعمهم خطه محكمه سرّيه و متواصله الحلقات.

بيد أنّ خططهم لا تهدف الرسول كشخص، و لا المؤمنين كطائفه، بل تهدف الرساله التى يدعون إليها، و غريمهم فى ذلك لن يكون المؤمنون أو الرسول و حسب بل ربّ العزّه جبار السموات و الأرض سبحانه و تعالى.

(١٦) و إذا كان الكفّار يسعون لبلوغ هدفهم عبر خطط متناهيه فى الدقه بزعمهم فإنّ كيد الله متين. كيف يكيد الله لهم؟ إنّهُ سبحانه يهوى أسباب تدميرهم على حين غفله منهم. أ رأيت كيف يدبّر الشرطه مثلاً - خطه للإيقاع بالمجرمين (مما قد تصوّره الافلام البوليسيه)، و يخطط المجرمون لجريمتهم بإتقان و يخطط الشرطه، و المجرمون لا يعرفون شيئاً عن خطط الشرطه، بينما رجال الشرطه يعرفون ما يجرى هناك؟!

و فى ساعه الصفر حينما تبلغ خطط الكفار مرحله التنفيذ، و يكادون يسطون بالنبي و المؤمنين، تكون أسباب تدميرهم قد تهيأت أيضاً، و تتجلى ساعتئذ قدره الله.

إنّها تأخذهم أخذاً وبيلاً.

وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٧) بيد أنّ هذه الخطه و تلك و كل خطه تأخذ عامل الزمان فى الحسبان، و لذلك فإنّ من يكيد كيدا لا يمكنه أن يلغى الزمان، و ينبغى أن يعرف المؤمنون ذلك، و لا يستعجلوا فى تنفيذ خطط الرساله، و لا يقلقوا من تأخير النصر، لأنّ هناك مهله معينه لا بد أن تنهى قبل أخذ الكفار.

فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ مهله بعد مهله، و فتره بعد فتره، فلعل تغييرا يطرأ على تنفيذ الخطه، و لكنّها بالتالى لن تكون مهله طويله.

أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا مهله قليله و لطيفه و بلا صخب أو ضوضاء، و لكن لماذا يمهل الله الكفار؟ أوّلا: لأنّهم أيضا بشر مخلوقون، و إنّ الله سبحانه يريد امتحانهم كما يمتحن بهم، و لعلّهم يرجعون.

ثانيا: لأنّ للصراع بين الحق و الباطل فوائد شتى فى بلوره رؤيه المؤمنين، و تزكيه قلوبهم، و تمحيص نفوسهم، و تطهير صفوفهم، من المنافقين.

سوره الأعلى

اشاره

ص: ۲۵

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال:

«من قرأ سبح اسم ربك الأعلى فى فرائضه أو نوافله قيل له يوم القيامة:

ادخل الجنة من أى أبواب الجنة شئت. » و

روى عنه-عليه السلام-أنه قال: «الواجب على كل مؤمن إذا كان لنا شيعه أن يقرأ فى ليله الجمعة بالجمعه و سبح اسم ربك

الأعلى» نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٥٣

ص: ٢٧

كما خلق الله الكائنات فسوّاها و أتمّ صنعها، كما قدّر لها شؤونها، و أزمها بسنن، و هداها إليها، كذلك قدّر للإنسان ما يصلحه، و جعل له سبل السلام التي تهديه إلى غاياته الكريمة، و بعث إليه رسالته التي تهديه إليها.

و لا تحدّد غايه الإنسان بما فى الدنيا من عافيه و أمن و تقدّم و سعادته، بل و أيضا بما فى الآخرة التي هى خير و أبقى.

بماذا يهدى الله الإنسان إلى الفلاح؟ بالقرآن الذى يقرؤه الرسول فلا ينسى منه حرفا ليذكّر به الناس، و لكن من الذى يتذكّر؟ إنّما الذى يخشى، بينما الذى يسدّ منافذ قلبه من دون التذكّر فهو الأشقى الذى يصلى النار الكبرى فلا يموت فيها و لا يحيى.

و إذا استطاع الإنسان الإقلاع من جاذبيه الدنيا و التحليق فى أفق الآخرة التي هى خير و أبقى فإنّه يخطو الخطوات الاولى على طريق الفلاح، أمّا الثانيه فالخشيه ثم

التذكّر، وبعدهما تأتي التزكيه كخطوه ثالثه تحمله إلى الصلاه و الزلفى إلى ربّ العزه.

هكذا تتواصل آيات سوره الأعلى لتذكّرنا ببلاغه نافذه بذات الحقائق الكبرى التى لا بد أن نعيها حتى نبلغ الفلاح. و إنّها لمعجزه القرآن أنّ كلّ سوره منه تذكّر بذات الحقيقه، و لكن بطريقه متميزه جديده..بلى. إنّ الحقائق الكبرى تتجلّى فى مظاهر شتى لأنّها غير ما نشهده من الحقائق الجزئيه، و هى خلاصه صحف الله التى بعثها إلى أنبيائه العظام كإبراهيم و موسى عليهما السلام.

ص: ٢٩

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُفَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مِمَّا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِى (٩) سَنَذَكُرْ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَنَجْنِبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْدَى إِلَى النَّارِ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْتَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى (١٩)

اللغه

٥[غناء]:الغناء ما يقذف به السيل على جانب الوادى من الحشيش و النبات،و أصله الاخلاط من أجناس شتى.

[أحوى]:شديد السواد.

ص:٣١

بينات من الآيات:

[١] لاسم الله عظمه مشتقّه من عظمته، لانه يدلّ عليه و يذكّرنا به، و يشهد على جلاله و جماله و مجده و كبريائه، و لأنّ ربنا المتعال خلق في البدء اسمه الأعظم، و جعله على أربعة اختص بواحد فجعله مكنونا عنده لا يطلع عليه أحد من خلقه، و جعل الثلاثه في كلمات: الله، و تعالى، و تبارك، ليهدينا الاول إلى ذاته، و الثاني إلى صفاته، و الثالث إلى أفعاله، ثم خلق الله الأشياء باسمه، و ما نراه في الخلقه من آثار عظمته ليست سوى تجليات لاسمائه.

و هكذا أمرنا بأن ندعوه بأسمائه فقال سبحانه: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**.

و ما نقرؤه

في الادعية المأثوره تأويل لهذا الأمر الالهي حيث تتوسّل إلى الله سبحانه بأسمائه الحسنی، و نقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السموات و الأرضون و انكشفت له الظلمات، و صلح عليه أمر الأولين و الآخرين، من

ص: ٣٢

فجاءه نعمتك، و من تحويل عافيتك، و من زوال نعمتك» (١).

«اللهم إنّي أسألك باسمك العظيم الأعظم، الـعزّ الجلل الأكرم، الذى إذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمه انفتحت، و إذا دعيت به على مضائق أبواب الأرض للفرج انفرجت و إذا دعيت به على العسر ليسر تيسّرت، و إذا دعيت به على الأموات للنشور انتشرت، و إذا دعيت به على كشف البأساء و الضراء انكشفت» (٢).

و فى أدعيتنا المأثوره عن النبى و أهل بيته الطاهرين-عليه و عليهم صلوات الله- تشكل أسماء الله الحسنى ركنا أساسيًا فيها، مثل دعاء الجوشن الكبير الذى يشتمل على ألف اسم و صفه من أسماء الله و صفاته، و دعاء البهاء، و دعاء كميل، و ما أشبه (٣).

أ رأيت ما هذه الأسماء؟ حقًا: إنّ عقولنا لا تحيط علما بها، كيف و هى لم و لا تستطيع الاحاطه علما بكلّ خلقه، و خلقه مظهر من مظاهر أسمائه؟ و لكنّ الله أتنا من العلم ما نشير به إلى أسمائه و ندعوه بها.. ثم عرّفنا بها بما أوحى إلى نبّيه من كتاب و أجرى على لسان أوليائه من علم كان بمثابة تفسير للكتاب، و هكذا كانت الأسماء مظاهر عظمته، و آيات شهادته و هيمنته، لا نقدّسها إلّا بهذه الصفة، و لا نسبّحها إلّا بهذا الاعتبار، فلأنّها الوسيله إليه تقدّس، و لأنّها السبيل إلى معرفته تسبّح.

و من قدّس الاسم دون المسمّى أو مع المسمّى فقد أشرك بربه سبحانه، إنّما تقدّسنا للإسم بصفته اسما للمعنى و وسيله إليه لا أكثر.

ص: ٣٣

١-١) مفاتيح الجنان/دعاء الرسول ليله النصف من شعبان.

٢-٢) المصدر/دعاء السمات.

٣-٣) راجع مفاتيح الجنان للمحدّث الشيخ عباس القمى.

هكذا نجد في بعض آيات الذكر تسيحاً لله و في بعضها لاسمه، فإذا سبحنا الله فإنما بوسيله أسمائه، لأنه لا سبيل لنا إلى معرفه ذاته، و إذا سبحنا اسم الله فإنما لأنه اسم لله، و سيلنا لمعرفة الله، و لأننا لا نقدر على معرفته إلا باسمه سبحانه.

قال الله تعالى: سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)، يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)، و قال: وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٣)، كما قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (٤)، تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٥)، و هكذا جاءت صفتا الجلال و الإكرام للرب بينما نجد في آيه أخرى جاءت صفة لوجهه سبحانه، فقال: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٦).

فهل في ذلك تناقض؟ كلا.. لأن وجه الله لا يراد إلا لله، فهو مجرد وسيله، كما أن الجلال و الإكرام الإلهيين يتجلىان بوجهه لنا.

و هكذا أمرنا الله في فاتحه سوره الأعلى بتسيح اسم الله الذي هو تسيحه سبحانه:

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَ لَذَلِكَ

روى عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه و اله-: كان النبي

ص: ٣٤

١-١ (١) الصف ١.

٢-٢ (٢) الجمعة ١.

٣-٣ (٣) الأحزاب ٤٢.

٤-٤ (٤) العلق ١.

٥-٥ (٥) الرحمن ٧٨.

٦-٦ (٦) الرحمن ٢٦-٢٧.

-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا قَرَأَ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. (١).

و

روى عن الامام الباقر عليه السلام:- «إِذَا قَرَأْتَ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» فقل: سبحان ربي الأعلى، وإن كنت في الصلاة فقل فيما بينك وبين نفسك (٢).

و

روى عن ابن عامر الجهني أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» وَلَمَّا نَزَل:

« سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال: «اجْعَلُوهَا فِي سَجُودِكُمْ» (٣).

و هذا النصوص تدل على أن تفسير الآية تسييح الله لا مجرد تقديس اسمه، لذلك حذف الاسم عند تسييحه الركوع و السجود، أو عند ما يسبح الله بعد قراءه هذه الآية.

و قال بعضهم: تنزيه اسم الله تعالى و تسييح اسمه يتم بأن يجرد القول عن ذكر ما لا يناسب ذكره مع ذكر اسمه تعالى، فلا ينبغي أن يذكر الأنداد مع اسمه، كما كان يفعل المشركون الذين لا يذكرون الله إلا مع الشركاء من دونه أما إذا ذكر وحده اشتمأت قلوبهم، كما قال سبحانه: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤) و لكن يبدو أن هذا التفسير لا يتناسب مع السياق و لا مع سائر البصائر القرآنيه

ص: ٣٥

١-١) نور الثقلين/ج ٥-ص ٥٥٣.

٢-٢) المصدر/ص ٥٥٤.

٣-٣) المصدر/ص ٥٥٤.

٤-٤) الزمر/٤٥.

حول اسم الله، فإذا كان اسم الله يعنى كلمه الله و ليس المسمّى و هو الله سبحانه فما معنى بسم الله الرحمن الرحيم؟ هل الاستعانه تتم بالله أم بكلمه الله؟ سبحانه الله و تعالى أن تتم الاستعانه بغيره أنى كان.

و جاءت صفه «الأعلى» للشهاده على ضروره تسييح الله إذ أنه ربنا و أنه الأعلى و هل يسبح أحد سوى الرب الأعلى؟ [٢] ما الذى يدعونا إلى تسييح الله و تقديسه؟ حينما يرفع الإنسان عن عينيه غشاوه الغفله، و عن إرادته حجب الجحود، و ينظر إلى ما حوله فى أبعاد الكائنات، و يستمع إلى همساتها، و يندمج مع إيقاعات تسييحها، و يلتقط إشارات حركتها..

هنالك ينتقل إلى آفاق معرفه ربّه فلا يتمالك إلا أن يسبح بحمد ربه. إنه يرى سماء حفيظه تحيط به، و أرضا وديعه تحمله و تتدلل له، و كائنات نباتيه و حياتيه تنشط بين أرجاء الأرض و آفاق السماء، كلّ منها خلق بصوره مختلفه عن نظيراتها، و لكنّها جميعا تتناغم و كأنّها فرقه أنشوده، من أبعد نجمه إلى أصغر ذرّه، من أضخم شجره إلى أصغر نبتة، من الحوت حتى أصغر سمكه، من الفيل حتى أنعم حشره، من العقاب حتى البعوضه.. كلّها و كلّها قد خلقت بدقه متناهيه. هل سمعت نبا الذره التى لا ترى، و كيف بنى الله فى عالمها الكبير الصغير مملكه عظيمه؟ لو قستها بالمجره التى لا نستطيع أن نتخيل عظمتها لرأيناها قد خلقتا جميعا بقدر عظيم من الدقه و التنسيق.. و لكنّ المجره هى فى الواقع -مجموعه عظيمه من الذرّات، و هى ذات الحقيقه تتجلى مره فى شكل ذرّه و مره فى صوره مجرّه.. و ما بين الذره و المجره ملايين الملايين من المخلوقات المتنوّعه، قد خلقها الله خلقا سويا فى ذاتها، و قدر لكلّ واحد واحد منها هدفا و مسيره، و هداها إلى هدفها و مسيرتها، و كذلك قال ربنا العزيز:

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ و الخلق قد يكون بمعنى الإنشاء أو الصنع بعد الإنشاء، و تسويته بمعنى تكميله حتى لا يحتاج إلى شيء لتحقيق ما خلق له إلا و قد أعطاه، و لا تجد ثغره في خلق الله تعالى و لا فطورا، و لا نقصا كبيرا أو صغيرا.

[٣] و قدّر لكلّ خلق من الكائنات جمادا أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا هدفا ألزمه به، و جعله يسعى إليه، و حدّد لكلّ هدف وسيله، و لكلّ غايه سيلا، و هدى كلّ شيء إلى ما قدّر له.. أمّا الجمادات فقد هداها بما أوجد فيها من قوّه و إمكانيه، و بما أوجد فيما حولها من ضغوط، مثلا: لعل التفاحه لا تحس لماذا خلقت؟ و لا تهتدى بذاتها إلى هدفها المتمثل في إغناء جسد الإنسان بما يحتاجه من فيتامين و روحه بما تتطلّع إليه من جمال و روعه، و لكنّ الله جعل في التفاحه هذه الخصائص، و جعل في الإنسان حاجه إليها، فجعل سعى الإنسان إليها بمثابة سعيها إليه، على أنّنا لا نملك معرفه بما في واقع التفاحه أو أيّ جماد أو نبات أو حيوان من تحسس.

و لكي تزداد معرفتنا بالله و تسيحنا له ننقل فيما يلي مقاطع من كتاب (العلم يدعو للإيمان) الذي ينقل إلينا الكاتب الامريكى (كريسى موريسون) رئيس أكاديميه العلوم بنيويورك فيه بعض آيات الله في الطبيعه:

(إنّ الطيور لها غريزه العوده إلى الموطن، فعصفور الهزاز الذي عشّش ببابك يهاجر جنوبا في الخريف، و لكنّه يعود إلى عشّه القديم في الربيع التالي، و في شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا (في أمريكا) إلى الجنوب، و قد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق البحار، و لكنّها لا تضل طريقها.

و النحله تجد خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الاعشاب و الأشجار، كلّ

ذلك دليل يرى و لا- بد أن للحشرات الدقيقه عيوننا ميكروسكوبيه (مكبره) لا ندرى مبلغها من الأحكام، و أن للصقور بصرا تلسكوبيا (مقرّبا).

و يضيف: إنّ العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الاحجام فى المشط الذى يستخدم فى التربيّه، و تعدّ الحجرات الصغيرات للعمّال، و الأ-كبر منها لليعاسيب (ذكور النحل)، و تعدّ غرفه خاصه للملكات الحوامل. و النحله الملكه تضع بيضا غير مخصب فى الخلايا المخصصه للذكور، و بيضا مخصبا فى الحجرات المعده للعاملات الإناث و الملكات المنتظرات و العاملات اللائى هنّ إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلا مجيء الجليل الجديد تهيان أيضا لاعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل و اللقح و مقدّمات هضمه، ثم ينقطعن عن عمليه المضغ و مقدّمات الهضم عند مرحله معينه من تطوّر الذكور و الإناث، و لا يغذين سوى العسل و اللقح، و الإناث اللائى يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات (1).

من الذى قدّر للنحل أمره و هداه إليه، و من الذى علّم الطيور رزقها و مسراها، و هدى كلّ حىّ إلى ما يصلحه و ما قدّر له. أ ليس الله؟ فسبحان ربى الأعلى.

دعنا نستمع إلى قصه لعنكبوت مائى: يقول الكاتب المذكور:

(إنّ إحدى العناكب المائيه تصنع لنفسها عشا على شكل منطاد (بالون) من خيوط بيت العنكبوت، و تعلّقه بشيء ما تحت الماء، ثم تمسك ببراعه فقاعه هواء فى شعر تحت جسمها، و تحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش، ثم تكزّر هذه العمليه حتى يتنفخ العش، و عندئذ تلد صغارها، و تربّيها آمنه عليها من هبوب الهواء.

فها هنا نجد طريقه النسيج بما يشمله من هندسه و تركيب و ملاحه جويه).

ص: ٣٨

(١ - ١) فى ظلال القرآن/ ج ٦ ص ٣٨٨٥.

و هكذا يقدر الله لهذا الحيوان أو ذاك النبات ما يصلحه ثم يهديه إليه، فسبحان ربنا الأعلى، ولكن ذلك لا يختص بالحيوان المتكامل أو النبات التام بل حتى الخلايا هداها الله لما قدرت له بطريقه غريبه، يقول المؤلف:

(كلّ خليه تنتج في أيّ مخلوق حى يجب أن تكيف نفسها لتكون في موقعها المناسب و الذى قدرت له مثلا أن تكون جزء من اللحم أو أن تضجى بنفسها كجزء من الجلد الذى لا يلبث حتى يبلى، و عليها أن تصنع ميناء الأسنان، و أن تنتج السائل الشفاف فى العين، أو أن تدخل فى تكون الأنف أو الاذن، ثم على كلّ خليه أن تكيف نفسها من حيث الشكل و كلّ خاصيه أخرى لازمه لتأديه مهمتها، و من العسير أن نتصوّر أنّ خليه ما هى ذات يد اليمنى أو يسرى، و لكن إحدى الخلايا تصبح جزء من الاذن اليمنى، بينما الاخرى تصبح جزء من الاذن اليسرى، و إنّ مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنّها مدفوعه لان تفعل الشىء الصواب فى الوقت الصواب و فى المكان الصواب) (١).

و هكذا الخليه الواحده تصلح أن تكون مدرسه توحديه شريطه أن تصبح تلميذا فيها، فهل أنت مستعد؟ [٤] و لكن هذه القدره الهائله التى تتجلّى فى الكائنات ليست قدره ذاتيه فيها، بل هى من عند ربها، و هكذا تعيش كلّها دوره حياتيه معينه لا تلبث أن تساق نحو الفناء حسب تقدير ربها، و إنّ فى ذلك لايه على أنّ ما بها من قدره و قوه و حول و طول فهى من عند الله، و إنّ ما فيها من نقص و عجز و حدّ و قيد لشاهد على تعالى بارئها منها، و أنّه قدّوس سبحانه بلا نقص و لا عجز و لا حدّ و لا قيد.

و يضرب القرآن لنا مثلا ظاهرا لهذه دوره حياتيه السريعه، و يقول:

ص: ٣٩

وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَلَقَدْ كَانَتْ الْأَرْضُ حَبْلَىٰ بِالْمَوَادِّ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ بِالْمَاءِ وَ أَشْعَهُ الشَّمْسُ نَبَاتًا، فَإِذَا بِأَدِيمِهَا يَخْضِرُ بِالْعَصْفِ وَ الرِّيحَانِ، وَ لَكِنْ كَمْ يَدُومُ ذَلِكَ؟ لَيْسَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً.

(٥) و بعد أيام تتحوّل الأرض إلى بساط أصفر، و تتراكم أوراق الشجر و بقايا الحصاد إلى غذاء للإحياء بعد المواسم. و إذا بقت المرعى هكذا و تراكمت عليها طبقات من التراب أصبحت فحما حجريًا تنتفع منه الأجيال القادمة. لا شيء من خلق الله يذهب باطلا. إنّه يصبح مادّة لخلق جديد أو ما ينفع الخلق الجديد.

فَجَعَلَهُ عُثَاءً أَخْوَىٰ قَالُوا: أَصْلُ كَلِمَةِ الْعُثَاءِ زَبْدُ السَّيْلِ وَ مَا يَتَجَمَعُ فِي أَطْرَافِ الْمِيَاهِ مِنْ بَقَايَا النَّبَاتِ وَ الْقِمَاشِ، وَ يُقَالُ لِلْبَقْلِ وَ الْحَشِيشِ إِذَا تَحَطَّمَ وَ يَبَسَ. أَمَّا الْأَحْوَىٰ فَإِنَّهُ الْأَسْوَدُ، وَ إِذَا تَرَاكَمَ النَّبَاتُ وَ اشْتَدَّ اخْضِرَارُهُ تَرَاءَىٰ كَأَنَّهُ سَوَادٌ، وَ مِنْ هُنَا سَمِّيَتْ أَرْضُ الْعِرَاقِ بِأَرْضِ السَّوَادِ.

ما هذه القدره التي تقلب الأرض كيف تشاء، فحينما تستخرج نباتها، و آخر تدعها بلقعا تتجمع حولها الغثاء الاحوى؟ و كما دوره النباتيه السريعه كذلك دوره الحياه عند الإنسان إنّها تدور بسرعه فإذا باخضرار الحياه تتحول إلى سواد الموت، و هكذا الاخره هي خير من الاولى لمن بصر و عقل.

(٦) لا- تفصل رسالات الله عن السياق العام لمسيره الكائنات. إنّه الله الذي تشهد الخلائق بقدسه و عظمته يبعث إلينا رسولا و يحمله كتابا و هدى، فأيتها

السماء اخشعى، و يا أرض قزى، و يا أيها الإنسان استعد لتلقى رساله الله إليك و التسليم للرسول الكريم.

سُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى أَوْلَم يَأْتِكَ نَبَأُ حِرَاءٍ حَيْثُ هَبَطَ الرُّوحُ جِبْرِيْلَ عَلَى مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ.. و تواصلت آيات الله: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ..، هكذا أقرأ الله نبيه قراءه واضحه مبينه، فلم تكن وساوس فى صدره، و لا أفكار بقلبه، و لم تكن حقائق مجرّده يعرف بعضها و يجهل الكثير، كلاً.. إنّها كلمات واضحه تلقّاه الرسول، و نطق بها بوضوح، و هذا هو معنى إقراء الله له جمله بجمله و كلمه بكلمه و حرفاً بحرف.

و حين يكون المقرئ هو الله و المتلقى من اختاره بعلم لحمل رسالته المهيمنه على كلّ الرسالات فإنّ الرسول لا ينسى بإذن الله، ليس لأنه يخرج من حدّ البشر الذى يجوز له النسيان، بل لأنّ ربّه أبى أن ينسى، فالضمانه هنا من عند الله، و من كان الله ضامنا له كيف ينسى؟! إنّها حقيقه العصمه كما يفهمها أهل البصائر، أن يقى الله عبداً من عوامل الانحراف و مزالتى الضعف و مراكر الهوى و الشهوات.

(٧) و لكى لا يزعم البسطاء من الناس أنّ الرسول يصبح بالرساله إلهاً أو نصف إله لم يدع كتاب الله هذه التذكره.. فى أغلب ما حدّثنا عن رسله الكرام إنّهُ إمّا يبيّن نقاط ضعفهم التى يجبرها الله بعصمته أو حالتهم البشريه أو أنّ لله المشيئه فى أمرهم حتى عند وعده إياهم، فلا يقدر أحد أن يحتم عليهم أمراً، بلى.

إنّ الله صادق الوعد و لن يخلف وعده أبداً، و لكن فرق واسع بين أن يكون كذلك و أن يحتم عليه أحد من خارج إطار فضله و رحمته و مشيئته شيئاً.

هكذا نستوحى من الايه الكريمه هذه التذكره.

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ كَمَا قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي قِصَّةِ شَعِيبَ: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شَعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (١).

فهل يشاء الله أن يعود المؤمنون إلى ملة الكفر؟ و كما قال ربنا سبحانه في أصحاب الجنة: وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ (٢).

و يتساءل القارئ: إذا ما هي علاقة علم الله بالسِّرِّ و العلن بهذا الاستثناء؟ حيث يقول ربنا:

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ وَالْجَوَاب: إِنَّا نجد مثل هذه العلاقة في آية الأعراف في قصة شعيب إذ أنه قال: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، ذلك أن من بيده المشيئة و القدره على الاستثناء هو العليم الذي لا ينسى، و هو الذي يحفظ النبي من النسيان، حسب حكمته البالغه.

و لعل هذه الكلمه تتصل بقوله «سنقرؤك» فهو يقرئ ما يشاء لأنه عالم الجهر و ما يخفى.

ص: ٤٢

١- ١) الأعراف ٨٨-٨٩.

٢- ٢) هود ١٠٨.

وقد فصل المفسرون القول في هذه الكلمه، و ذهب بعضهم مذاهب بعيده حيث أنه قال: إن المراد بما شاء الله نسيانه هو ما نسخ من الكتاب نصياً. ولكن الايه لا تدلّ عليه، و لم يثبت تاريخياً أنّ في القرآن آيه منسوخه (بهذا المعنى من النسخ)، بل و سياق آيات القرآن و هذه الايه بالذات ينفي ذلك تماماً. كيف؟ أولاً: إنّ الله سبحانه يصف كتابه بأنّه كتاب عظيم، و أنّه هدى للعالمين، و أنّه نور مبين، و أنّه آخر رساله إلهيه إلى خلقه، فكيف يسمح ربنا لمثل هذا الكتاب أن يتعرّض للفساد و التزوير و التحريف و النسيان؟ ثانياً: إنّ النبي آمن بهذا الكتاب و آمن به المؤمنون و آمنوا جميعاً بهذه الصفات التي نجدها فيه فكيف تركوه عرضه للنسيان و التحريف، علماً بأنّهم أصبحوا بنّاء حضاره رائده، فلم يتعرض المسلمون - كمجموع - لحرب إباده حتى يمكن الافتراض أنّ ظروف العمل السري أنستهم بعض ما في كتابهم.

ثالثاً: شاعت القراءه و الكتابه في عهد الإسلام الاول، و قد اهتم المسلمون بكلّ تفاصيل تاريخهم، و حتى ببعض ما يهمله عادة الكتّاب و المؤرخون، و قد رغب القرآن في ذلك، و أقسم بالقلم و بما يسطرون، فكيف ضاعت عليهم كلمات ربهم مع ذلك الاهتمام الذي أولوه لها؟ رابعاً: هنا القرآن يقول للرسول -صلى الله عليه و اله- «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى» فأية حكمه كانت وراء الأقرء و عدم النسيان؟ أليست بقاء رساله الله التي هي خاتمه رسالاته للعالمين؟ فكيف يمكننا أن نفترض تعرّض هذه الرساله للتحريف؟ إننى أعتقد -انطلاقاً من هذه الشواهد و غيرها- أنّ القرآن الذي بلغنا هو

الذى أنزل من عند الله و بهذا الترتيب، و أنّ الذى جمعه هو شخص الرسول-صلى الله عليه و اله-عبر الذى كان يأمرهم بأن يضعوا الايه فى موقعها من السوره حتى و لو نزلت آيه فى أول البعثه فى مكه و الاخرى فى المدينه و فى آخر أيام حياته.

لائنى لا- أتصور كيف يمكن للرسول أن يترك كتاب ربه العظيم بلا ترتيب و قد أمر بإبلاغه للعالمين؟! (٨) كما قدّر الله لكلّ شىء تقديرا و هداه إلى تقديره كذلك قدّر للإنسان تقديرا، و جعل لحياته سننا و مناهج ثم هداه إليهما و لكن بصوره مختلفه عن سائر الأشياء و الأحياء.. فلقد زوّده بالعقل و استثار عقله بالوحى، و حمّله الاراده و المسؤوليه، حتى يكتشف ببصيره عقله و هدى الوحى أى السبل تؤدى به إلى أهدافه، فإن سار على سبل السلام تيسّرت أهدافه، و إذا تنكّب عنها وقع فى حرج عظيم. رأيت الذى يترك الطريق المعبد إلى المتاهات الوعره، إنّه لا يبلغ أهدافه، و لو بلغ شيئا منها فإنّما بجهد مضاعف.

وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۗ لِمَ يَخْلُقُ اللَّهُ الْإِنْسَانَ لِيَعَذَّبَهُ، أو ليلهو و يلعب بخلقه سبحانه، و لكنّه خلقه ليرحمه، و ليتفضّل عليه بمنّه و كرامته، كما لم يخلق حيّا ليعذّبه أو يلهو به، و أمّا الذى يقع على البشر من عذاب و من مشاكل فيما كسبت أيديهم. هكذا فسّروا اليسرى بالشريعاه السمحاء التى وّفق الله النبىّ و أمّته إليها لكى يعيشوا بأمان و سكينه.

إنّها الشريعاه التى تبعث رؤى و بصائر الإنسان من وجدانه، و تتناسب مع فطرته و حاجاته، و تنسجم مع الطبيعه من حوله.

إنّ دين الله يختار بين مناهج المعرفة ذلك المنهج القائم على أساس استناره الفطره و مخاطبه الوجدان دون لفّ و دوران، و يرغب الإنسان للنظر بنفسه في الأشياء، و ملامسه الحقائق بالسير في الأرض و التفكير في آثار الغابرين و مراقبه ظواهر الطبيعه.

و يتبع هذا المنهج في سائر ما يحتاج إليه الإنسان من معارف، في عقائده و أحكامه، في معاملته مع الآخرين، لأنّ الاطمئنان و الثقه و العرف و شهاده العدول و رأى الخبراء هي موازين التعامل بين الناس، و هي إذا قيست إلى غيرها من المناهج المعقده في سائر الأديان سهله و ميسره.

كما أنّ أحكام الدين في المواقيت و المكيال و الميزان تتصل بالحاله الطبيعيه للإنسان. أ رأيت كيف أوجب الصلاه قبل طلوع الشمس و بعد الغروب و عند دلو كها، و أوجب الصيام مع الهلال الذي يشهده الجميع؟ و لم يهمل أيّ حاجه من حوائج البشر، فلا حرّم الزواج، و لا نهى عن زينه الحياه الدنيا، و لا ضيغ العواطف، و لا أهمل تطلعات الروح.. و أيّ شريعته أيسر من التي تتناسب و حاجات البشر؟ و لعلّ هذا هو سر انتشار الإسلام عبر القرون بصوره مطرده، و لا يزال الدين الاسلامي هو الاول في نسبه زياده عدد المنتمين إليه كل عام.

و قد وفق الله رسوله -صلى الله عليه و اله- لتقبل الوحي، و يسره له، و يسر معارف القرآن لمن أراد بتوفيق منه، و لو لا أنّ الله يسر ذلك لما استطاع العقل معرفه كلمه واحده من كلمات الرب.

(٩) لأنّ الله يسر شريعته للناس، و يسر الحياه لهم بها، أمر بالدعوه إليها عبر

المنهاج الميسر المتمثل في التذكرة. أليست التذكرة تستهدف إثارة العقل و إيقاظ الضمير ليصير الإنسان الحقيقه بنفسه و من دون حجاب أو وسيط؟ [فذكر] و لكن هل التذكرة تنفع الناس جميعا شأوا الانتفاع بها أم أبوا؟ كلاً.. إنها لن تنفع من لا يخشى، لأنها إثارة العقل من داخل الإنسان، و شرط نفعها استعداد الإنسان للتأثر بها، أما القلب الجامد الجاحد المتصلب فإنه أشد من الصم الصياخيد، و هكذا قال ربنا:

إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى [□] يَعْنِي أَنَّ تَذَكَّرْتَكَ نَافِعَهُ مَعَ وَجُودِ الشَّرُوطِ الْمَوْضُوعِيَةِ لَهَا، أَمَّا بِدُونِهَا فَهِيَ لَا تَنفَعُ، لِأَنَّهَا لَا تَنفَعُ فِيهَا وَ إِنَّمَا لِلصَّدِّ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَ هَذَا لِأَنَّ الْكَفَّ عَنِ التَّذَكُّرِ إِنْ لَمْ تَنفَعْ إِذْ لَا يَفْهَمُ نَفْعَهَا أَوْ عَدَمَ نَفْعِهَا إِلَّا بَعْدَهَا، وَ هَذَا مِثْلُ أَنْ نَقُولَ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ إِنْ رَأَيْتَهَا، هَذَا وَاضِحٌ إِنْ فَكَّرْتَ.

و قد اختلف المفسرون في معنى الـايه، قال الجرجاني: التذكير واجب و إن لم ينفع، و المعنى: فذكر إن نفعت الذكرى و إن لم تنفع فحذف، كما قال: «سُرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ..»، و قال ابن عباس: تنفع أوليائي و لا تنفع أعدائي، و قال البعض:

«إِنْ هُنَا بِمَعْنَى إِذْ كَقَوْلِهِ: وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

و الأقرب: أن كلمة «إن» هنا الشرطيه في الظاهر، و لكن المراد منها هنا ليس ظاهرها، كما أن أداه الاستفهام تطلق و يراد بها التقرير أو الإنكار أو ما أشبهه، و لأن الذكرى تسبق معرفه نفعها و عدم نفعها فإن الشرط إنما هو لبيان فائده التذكرة لا أصلها، و يستفاد ذلك من السياق الآتي.

(١٠) التذكرة للجميع. إنها موعظه للمؤمن، ووجهه بالغه على الكافر، والدليل أن المؤمن يتذكر بها، بينما الأشقي يتجنبها.

سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى الخشيته ميراث المعرفة، فمن لم يفكر في المستقبل و لم يعيش وعيه لا يستعد له، فلا يبحث عما ينفعه فيه، ولا يتحذر ما يضره فيه.

و هكذا جعلت الخشيته التي هي فعل الإنسان نفسه شرطا لنفع الذكرى. لنعرف أن علينا ألا ننتظر الهدى من دون سعي منا إليه، بل لو تقدمت إلى الله شبرا تلقاك رب الرحمة بفضله مترا وأكثر.

(١١) أما الكافر الذي بلغ من الشقوه درجه سدّت أبواب المعرفة أمامه فإنه يتجنب التذكرة.

و يتجنبها الأشقى فهو يهرب منها كما لو أنها تضره، و يضع أمامه حواجز لكي لا تصل إليه، و يلقق حول صاحبها التهم عساه يقنع نفسه بأنه على حق، و هو الأشقى لأنه لا يرجى له علاج، فقد يكون الأقل منه شقوه ينتفع بالذكرى في بعض ساعات حياته.

(١٢) و مثل هذا الإنسان لا يصلح إلا للنار، لأنه أعدم كل عناصر الخير في ذاته.

الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ليست كهذه النار التي نراها في الدنيا. إنها أشد و أبقى، و قد بين

الحديث

ص: ٤٧

المأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام- مدى الفرق بينهما بالقول: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم، وقد أطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت، ولو لا ذلك لما استطاع آدمي أن يطيقها» (١).

(١٣) والسؤال: كيف يتحمل جسم الإنسان هذه النار العظيمة فلا يحترق و يصبح رمادا أو غازا كما أصبحت الأشياء التي احترقت بنار القبلة الذرية، والتي لا- ريب أنها أقل بكثير من نيران جهنم؟ بلى. ربنا يعطى الجسم المزيد من الإمكانيات تمهيدا لتألم صاحبه. أو لم يقل ربنا سبحانه: كَلَّمَا نَضَّ بَحْتٌ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَا هُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ؟ و هكذا يبقى الأشقى فى النار بين الموت و الحياه، فكل أسباب الموت موجوده، و كل عوامل الحياه مفقوده، و لكنّه لا يموت بقدره الله.

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ وَمِثَال ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أَنَّ بَعْضَهُمْ يَتَلَىٰ بِعَذَابِ الدُّنْيَا مِنْ فَقْرٍ وَ مَرَضٍ وَ سَجْنٍ وَ قَلْقٍ وَ..و..و لكنّه لا يموت فيستريح، فيقول مع الشاعر:

ألا ما لنفس لا يموت فينقضى عنها و لا تحيا حياه لها طعم؟

(١٤) تلك كانت عاقبه الذى يتجنب التذكرة، أما الذى تذكر فإنه يتدرج فى معارج السمو حتى يبلغ الذروه، كيف؟ إنه بعد التذكر يزكى نفسه من رواسب الشرك بالله، فلا يقصدس أحدا سواه، بل لا يخاف أحدا حقّ الخوف و لا يرجوه حقّ الرجاء ما سوى ربه الأعلى، و يسعى لتطهير قلبه من حب الدنيا، و التكاثر منها، و التنافس على حطامها، و يتحرّر من الغلّ تجاه إخوانه و من الحسد

ص: ٤٨

و الحقد و العصبية، و هكذا يبلغ الفلاح الذى يعنى وصول الإنسان الى هدفه الأسمى.

□
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى إِنَّهُ يَبْحَثُ عَنِ الطَّهَارَةِ، طَهَارَةُ قَلْبِهِ مِنْ رِوَابِ الشَّرْكِ وَ أَخْلَاقِهِ الرَّذِيلَةِ، وَ تَطْهِيرِ مَالِهِ مِنَ الْحَرَامِ، وَ حَقُوقِ الْفُقَرَاءِ (بِمَا يَسْمَى زَكَاهُ بَوَاجِهُ عَامٍ)، وَ تَطْهِيرِ جَسَدِهِ مِنَ النِّجَاسَاتِ.

و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنه قال (فى تفسير الايه): «أخرج زكاه الفطر» (1).

و بهذا التفسير لكلمه التزكى نجمع بين الآراء المختلفه فى تفسيرها من زكاه القلب من الشرك إلى زكاه المال من حق الآخرين.

(15) و بعد أن يتزكى القلب يتلقى نور ربه، فيذكره بانسراح، و يصلّى له بخضوع.

□
وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى وَ هُنَا أَيْضًا ذَكَرَ الْاسْمَ وَ أُرِيدَ الْمَسْمَى، أَوْ لَيْسَتْ الصَّلَاةُ مِنْهُ وَ لَيْسَتْ لِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ.

و القلب من دون تزكيه لا يتلقى نور الذكر، فإن كل عقده نفسيه أو ضلاله شركيه أو انحراف خلقى يشكل حجابا بين العبد و ربه، فأنى لمن يشرك بالله أن يعرفه، و أنى لمن غمر قلبه بحب الدنيا و زينتها أن يتفرغ لرؤيه جمال الخالق و نعيمه

ص: ٤٩

فى الاخره؟! أو لم يقولوا: حبّ الشىء يعمى و يصم؟ و الصلاه هنا كلّ حاله خشوع لله و لرسوله و لمن أمر الرسول. إنّها التسليم التام لله، و لذلك جاء فى بعض النصوص تأويلها بصلاه العيد، و فى بعضها تأويلها بالصلاه على النبى -صلى الله عليه و آله- بلى. إنّهما معا مظهران لحاله واحده، فمن سلّم لله سلّم لرسوله، و من صلى صلاه العيد فإنّما يصلّيها خلف إمام نصبه الله، و أمر باتباعه الرسول. أليس كذلك؟ هكذا

سئل الإمام الصادق -عليه السلام- عن قول الله عز و جل: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى قَالَ: «من أخرج الفطره»، قيل له: وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ؟ قال: «خرج إلى الجبّانه فصلّى» (١).

و

جاء فى حديث مأثور عن الإمام الرضا -عليه السلام- أنّه قال (فى تفسير الايه): «كلّما ذكر اسم ربه صلى على محمّد و آله» (٢).

(١٦) ما الذى يمنع الإنسان من تواصل ذكر اسم الله و الصلاه له و الدعاء إليه؟ أليس الله أقرب شىء إليه؟ أو ليس أرحم الراحمين؟ أو لم يدعه إلى نفسه و رغبه فى نعيمه؟ بلى. و لكنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئه، و الدنيا قد أحضرت له بكلّ زينتها و شهواتها و غرورها و أمانيتها، بينما الاخره قد غيّبت عنه و اذارك علمه فيها فنسيها و أقبل على ضررتها.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَهذه طبيعه بنى آدم جميعا إلّا من عصمه الله، و أقلع نفسه من جاذبيه الدنيا،

ص: ٥٠

١- ١) نور الثقلين / ج ٥- ص ٥٥٦ (و الجبّانه: الصحراء لأنّ صلاه العيد تصلّى فيها).

٢- ٢) المصدر.

و حَلَّقَ فِي سَمَاءِ الْمَعْرِفَةِ.. وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا الْقُرْآنَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِنَعْرِفَ أَيْنَ مَكْمَنِ الْخَطَرِ فِي أَمْرِنَا، وَكَيْفَ يُمْكِنُنَا تَجَنُّبُهُ؟

جاء في حديث جامع مأثور عن الإمام السَّجَّاد-عليه السلام-أنَّه قال بعد أن سئل: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ؟ «ما من عمل بعد معرفه الله عزَّ و جلَّ و معرفه رسول الله-صلى الله عليه و اله- أفضل من بغض الدنيا، فإنَّ لذلك شعبا كثيره و للمعاصي شعب، فأوَّل ما عصى الله به الكبر معصيه إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين، ثم الحرص و هي معصيه آدم و حوّا- عليهما السلام-حين قال الله عزَّ و جلَّ لهما: فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَخَذَا مَا لَا حَاجَةَ بِهِمَا إِلَيْهِ، فَدَخَلَ ذَلِكَ عَلَى ذَرِيَّتِهِمَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَ ذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَطْلُبُ ابْنُ آدَمَ مَا لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيْهِ. ثُمَّ الْحَسَدُ وَ هِيَ مَعْصِيَةُ ابْنِ آدَمَ حَيْثُ حَسَدَ أَخَاهُ فَقَتَلَهُ، فَتَشَعَّبَ مِنْ ذَلِكَ حَبُّ النِّسَاءِ وَ حَبُّ الدُّنْيَا وَ حَبُّ الرِّيَاسَةِ وَ حَبُّ الرِّاحَةِ وَ حَبُّ الْكَلَامِ وَ حَبُّ الْعُلُوِّ وَ الثَّرْوَةِ، فَصَرَنَ سَبْعَ خِصَالٍ فَاجْتَمَعْنَ كُلَّهُنَّ فِي حَبِّ الدُّنْيَا، فَقَالَتِ الْأَنْبِيَاءُ وَ الْعُلَمَاءُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ذَلِكَ: حَبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَ الدُّنْيَا دُنْيَانِئَانِ: دُنْيَا بِلَاغٍ، وَ دُنْيَا مَلْعُونَةٍ وَ أَمَلٌ لَا يَدْرِكُ وَ رَجَاءٌ لَا يَنَالُ» (١).

(١٧) بلى. إِنَّمَا نَتَسَلَّى عَنِ الدُّنْيَا وَ زَبْرَجَهَا بِذِكْرِ الْآخِرَةِ وَ نَعِيمِهَا، فَإِذَا دَعَتَكَ إِلَى الْجِنْسِ الْحَرَامِ شَهْوَاهُ وَ شَبَقَ فَتَذَكَّرِ الْحَوْرَ الْعَيْنِ فَإِنَّهُنَّ خَيْرٌ وَ أَبْقَى، وَ إِذَا اسْتَطَبْتَ مَا لَا حَرَامًا أَوْ طَعَامًا ضَارًّا فَتَذَكَّرِ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ وَ لِحُومَهَا فَإِنَّهَا خَيْرٌ لَكَ وَ أَبْقَى.

وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى إِنَّهَا الْأَكْمَلُ، وَ قَدْرُهُ الْإِنْسَانُ يَوْمئِذٍ كَامِلُهُ. إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي

ص: ٥١

الأكل إلا ريثما يمتلأ بطنك، وإذا أسرفت فسوف تصاب بالتخمه والغثيان، ولكن أهل الجنة يجلسون على كل مائده أربعائه عام لا يملون ولا يسأمون.

وإن شبق الجنس محدود عند البشر، فإذا قضوا منه الوطر عافوه، بينما لكل واحد من أهل الجنة عشرات بل مئات النساء وأكثر و يعطى القوه لإيتائهن بلا تعب ولا كلل.

وإن المرض والهزم والكسل والضجر والموت يهدد أهل الدنيا، بينما الآخره باقيه مع الأبد.

روى عن أبى جعفر الباقر-عليه السلام- أنه قال: «إن أهل الجنة يحيون فلا يموتون أبدا، ويستيقظون فلا ينامون أبدا، ويستغنون فلا يفتقرون أبدا، ويفرحون فلا يحزنون أبدا، ويضحكون فلا يبكون أبدا، ويكرمون فلا يهانون أبدا، ويفكهون ولا يقطبون أبدا، ويحبرون ويسرّون أبدا، ويأكلون فلا يجوعون أبدا، ويروون فلا يظمؤون أبدا، ويكسون فلا يعرون أبدا، ويركبون ويتزاورون أبدا ويسلم عليهم الولدان المخلدون أبدا، بأيديهم أباريق الفضة وآنيه الذهب أبدا، متكئين على سرر أبدا، على الأرائك ينظرون أبدا، تأتيهم التحية والتسليم من الله أبدا، نسأل الله الجنة برحمته إنه على كل شيء قدير (١).

(١٨) وهذه الحقائق وبالذات حقيقه الدنيا، وأنها ليست بدار بقاء، وأن الآخره خير منها وأبقى، إنها لا تخص رساله النبى بل هى فى صحف الأنبياء جميعا، ولا سيما صحف إبراهيم-عليه السلام-الذى يحترمه العرب كما اليهود والنصارى، وموسى-عليه السلام-الذى يزعم اليهود أنهم أنصاره ثم ترى العرب واليهود يعبدون الدنيا، ويزعمون أن ذلك من دين الله.

ص: ٥٢

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى فَلَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ بَدْعًا بَيْنَ إِخْوَانِهِ.

(١٩) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ قَدْ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله- بَعْضُ مَا فِي هَذِهِ الصُّحُفِ.

جاء في كتاب الخصال: عن أبي ذر -رحمه الله- قال: دخلت على رسول الله -صلى الله عليه و آله- و هو في المسجد جالس وحده فاغتنمت خلوته..، قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة كتاب و أربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفه، و على إدريس ثلاثين صحيفه، و على إبراهيم عشرين صحيفه، و أنزل التوراه و الإنجيل و الزبور و الفرقان، قلت: يا رسول الله و ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالا كلها، و كان فيها: أيها الملك المبتلى المغرور إننى لم أبعثك تجمع الدنيا بعضها على بعض، و لكننى بعثتك لتردّ عنى دعوه المظلوم فإننى لا أردّها و إن كانت من كافر، و على العاقل ما لم يكن مغلوبا أن يكون له ساعات: ساعه يناجى فيها ربه، و ساعه يحاسب فيها نفسه، و ساعه يتفكر فيها صنع عزّ و جلّ إليه، و ساعه يخلو فيها لحظّ نفسه من الحلال، فإنّ هذه الساعه عون لتلك الساعات، و استحمام للقلوب و توديع لها، و على العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه، حافظا للسانه، فإنّه من حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه، و على العاقل أن يكون طالبا لثلاث: مرّمه لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو تلذذ في غير محرّم قلت: يا رسول الله فما كانت صحف موسى؟ قال: كانت عبرا كلها، عجا لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ و لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ و لمن يرى الدنيا و تقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها، و لمن يؤمن بالقدر كيف ينصب؟ و لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل؟» (١).

ص: ٥٣

سوره الغاشيه

اشاره

ص: ۵۵

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال: «من أدمن قراءه «هل أتاك حديث الغاشيه» في فريضه أو نافله غشاه الله برحمته في الدنيا و الاخره، و آتاه الأمن يوم القيامه من عذاب النار» نور الثقلين/ ج ٥- ص ٥٦٢

ص: ٥٧

الدنيا و الآخره مثل كفتى ميزان ما رجحت إحداهما إلا على حساب الثانيه، خصوصا إذا فسرنا الدنيا بأنها الحياه الفارغه عن القيم الإلهيه، فمن اختارها، و ترك الفرائض، و تهرب من المسؤوليات، و كفر بالرساله، فإن له وجهها خاشعا فى الآخره، و عملا ناصبا، و كدحا متواصلا، شرابهم فى النار من عين آنيه، و طعامهم من ضريع.

و من اختار الآخره فإن وجهه هناك ناعم، و قلبه راض، و عيشته فى الجنه ذات سلام و أمن و عين جاريه، و سرر مرفوعه، و أكواب موضوعه، و نمارق مصفوفه، و زرابى مبعوثه.

يبدو أن هذا هو محور سوره الغاشيه التى تختتم بذكر الحساب الإلهى الذى ينتظر الناس بعد إيابهم.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَةٍ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَ زُرَابِيٌّ مَثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (٢٣) فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)

اللغه

١[الغاشيه]:هو يوم القيامة لأنها تغشى الناس بأهوالها.

٥[آتيه]:بالغه النهايه فى شدّه الحر.

١٥[و نمارق]:أى وسائد.

١٦[و زرابى]:هى البسط الفاخره.

بينات من الآيات:

(١) لولا-الوحى، و لولا- آياته التى تطرق أبواب القلب طرقا عنيفا، أنى كان لقلب الإنسان الذى أشغلته هموم حياته و أحلامها أن يعى القيامه و أ هو إليها؟ إن صفات ذلك اليوم تملأ القلب كله و تزيد..و لكننا مشغولون عنها بالحاضر الذى تترأى قضاياه كبيره، و هى بالقياس إلى ذلك اليوم تافهه جدا.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ للاستفهام وقع كبير فى النفس، و السؤال هنا عن حديث هام يفرض نفسه و يأتيك سعيًا لضخامته، بينما الأحاديث التافهه تبحث عنها و قد لا تجد لها أثرا..

بلى. إنه الحديث عن الغاشيه، حقيقه تغشى كل شىء البر و البحر و الجبال و الأحياء.. تحيط بها القيامه، و السموات و ما فيها تنوء بها، فأنى لهذا الإنسان.

ماذا يغشانا من القيامه؟

أدخانها كما قال ربنا: يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ ، أم نارها: وَ تَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ.. ، أم زلزالها: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا.. ، أم صيحتها، أم قارعتها، أم صاقتها، أم كل أهوالها..؟ بلى. إنها الغاشية التي لا تدع أحدا يهرب منها، وإنها الغاشية التي لا تترك جزء من الإنسان فارغا.

(٢) و أبرز ما يغشاه ذلك اليوم الوجه الذى هو مظهر الإنسان.

وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ يعلو وجوههم قتر و هوان، و خشوع الخيبة و الذل، لأنهم لم يخشعوا فى الدنيا خشوع الكرامه و العزه، و لذلك

نقرأ فى الدعاء: «اللهم إني أسألك خشوع الإيمان قبل خشوع الذلّ فى النار» (١) (٣) و لأنها تكاسلت فى الدنيا، و أهملت واجباتها، و تهرّبت من المسؤوليات، فإنك تراها فى ذلك اليوم فى كدح و تعب.

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ قالوا: هذا فى الدنيا، إذ لا عمل فى الآخرة، و فتّيروا العمل بالدأب فى السير و النصب بالتعب، و لكن من قال لا عمل فى الآخرة و لا - نصب؟ بلى. و تحركهم فى صحراء المحشر وسط ظلام دامس تسوقهم ملائكة العذاب، و يشهد عليهم ملائكة الحساب.. إنه عمل ناصب.

إنما عملهم ثمه بلا فائده ترجى لهم، و نصبهم بلا ربح و مكسب، و لو أنّهم

ص: ٦٢

١- ١) مفاتيح الجنان/ من أدعيه السحر فى شهر رمضان.

أجهدوا أنفسهم في الدنيا قليلاً لأعقبتهم راحه طويله في العقبى، كما

قال الإمام أمير المؤمنين-عليه السلام- في صفة المتقين: «صبروا أياماً قصيره أعقبتهم راحه طويله.» و في طائفه من النصوص المأثوره تفسير هذه الايه بأولئك الذين يعملون في الدنيا و ينصبون و لكن في طريق خاطئ فلا يكسبون من عملهم نقيراً، لأنهم يوالون الطواغيت، و ينصبون لأنمه الهدى، و تابعيهم (١)، و

روى عن الإمام أمير المؤمنين -عليه السلام- أنّ هؤلاء هم أهل حروراء، يعنى الخوارج الذين ذكرهم رسول الله -صلى الله عليه و اله- فقال: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، و صيامكم مع صيامهم، و أعمالكم مع أعمالهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّه» (٢) و هذا تأويل حسن للآيه، بيد أنّ تفسيرها-فيما يبدو من السياق- أعم و أشمل.

روى عن ابن عباس أنّهم يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشدّ ما يكون من النصب، بمعالجه السلاسل و الأغلال و الخوض في النار، كما تخوض الإبل في الوحل، و ارتقائهم في صعود من نار، و هبوطهم في حذور منها (٣).

و في بعض الروايات أنّهم يجدون في طرف جهنم باباً إلى الجنه فما يألون جهدا للوصول إليه حتى إذا اقتربوا منه أغلق دونهم.

ص: ٦٣

١- ١) راجع نور الثقلين / ج ٥ ص ٥٦٣-٥٦٤.

٢- ٢) القرطبي / ج ٢٠-٢٨.

٣- ٣) القرطبي / ج ٢٠-٢٧ و في المصدر: ارتقائها هبوطها و أظنّها خطأ.

و أنى كان عملهم و نصبهم فإنهم لو عملوا عشر معشار ذلك فى الدنيا لكفاهم عملا و نصبا، و رزقهم الله جنة و نعيما.

(٤) ما عاقبه هذا الفريق الخاسر؟ النار الحامية يذوقون حرها مباشرة و من دون وقايله. أ ليسوا قد فجرُوا فى الدنيا و لم يتقوا نار جهنم فيها؟ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً صَلَّى بالنار: لزمها و احترق بها، و الحامية: حارّه (شديده الحر).

و لعل كل هذه الصفات ذكرت لكى لا- تحتمل النار التأويل، فيقول البعض أنّ النار لا- تحرق! أو ليست بحاره! أو بينها و بين الإنسان حجاب! كلاً.. لا مفرّ منها و من لهبها أبدا.

(٥) شده الحر و تواصل الا-حترق بالنار يجعل أهلها فى عطش شديد فيطلبون الماء فلا يعطونه ألف عام و بعده يعرضون على عين آنيه.

تُسَيِّقِي مِنْ عَيْنِ آتِيهِ قَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْحَرَارَةِ أَنَا هَا وَ مَتْنَهَا هَا، و قيل: أنّ جهنم أوقدت عليها منذ أن خلقت. هكذا يدفعون إليها وردا شرابا و ساءت شرابا و ساءت مرتفقا.

(٦) و إذا طلبوا طعاما قدّم لهم شىء أمرّ من الصبر يسمّى بالضريع.

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ طَعَامٍ يَتَضَرَّعُ آكَلَهُ مِنْ شِدَّةِ خَشَوْنَتِهِ وَ مَرَارَتِهِ وَ نَتْنِهِ. إِنَّهُ حَسْبَمَا

روى عن رسول الله-صلى الله عليه و اله-: «شىء يكون فى النار يشبه الشوك، أشد مراره

من الصبر، وأنتن من الجيفه، وأحرّ من النار سمّاه الله ضريعاً» (١) فهل هو نبتة نارِيه كالزقوم، أم هو عرق أهل النار و ما يخرج من فروج الزواني كالغسلين، أم هو شيء آخر، وإذا كانت نبتة فكيف لا تحترق بالنار، وإذا كان عرقا كيف لا يتبخّر؟ إنّ العالم الآخر يختلف عن عالمنا، وإنّما تتشابه الألفاظ لكي ندرك ما يمكن أن ندرك من ذلك العالم، وإلا فإنّ كلّ شيء هناك مختلف عمّا لدينا، فالنار غير نارنا، و جلود أهلها غير جلودهم هنا، والعقارب والحيات و شجره الزقوم ليست كأمثالها في الدنيا التي تحترق في لمح بصير لو تعرّضت لنيران جهنم، كلاً.. إنّها جميعاً خلقت لذلك العالم و بمقاييسه، كما أنّ الزمن هناك غير الزمن هنا.. وإذا فسّرنا كلمه من كلمات القرآن التي توضّح الآخره فليس إلّا تفسيراً قريباً من واقعها، وليس تفسيراً دقيقاً.

و هكذا الضريع، و هو في الدنيا- كما قالوا-: نبت ذو شوك لا تصق بالأرض، تسمّيه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابه و لا بهيمه و لا ترعاه، و هو سم قاتل، و هو أخبث الطعام و أشنعه، و أنشدوا لبعضهم:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى و عاد ضريعاً بان منه النحائص (٢)

(٧) و هذا الطعام نوع من العذاب لأنّه ليس فيه أيّ منفعة من الطعام، فهو لا يعوّض خلاياهم المفقوده، و لا يطفى لهيب الجوع.

ص: ٦٥

١- ١) القرطبي/ ج ٢٠- ص ٣٠.

٢- ٢) ذلك صفه إبل هزيل سىء المرعى- راجع المصدر/ ص ٣٠.

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ و لو أَنَّهُمْ اجْتَنَبُوا السَّحْتِ فِي الدُّنْيَا لَاتَّقُوا الضَّرِيْعَ فِي الْآخِرَةِ.

(٨) و في الجهه الأخرى تجد أهل الجنة كأفضل ما يكونون..

وَجُودَةٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ مَنْعَمَةٌ قَدْ أَشْرَقَتْ و جوههم بآثار النعمه حتى تجلّت نضارتها لكلّ عين. أو ليست النعمه إذا بلغت كمالها ظهرت في الوجه؟ (٩) و يظهر من جوههم رضاهم القلبي بما عملوا في الدنيا، لأنهم وجدوا عاقبه أمرهم الحسنى.

لِسَعِيْهَا رَاضِيَةٌ (١٠) أو تدرى أين هم ساكنون؟ هناك في الأعلى حيث يتفتنون ظلال الأشجار.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ إِنْ الْجَنَّةِ فِي الْمَقَامِ الْعَالِيِ، بينما النار في الدرجات السفلى.

(١١) و إذا اطمأنت النفس بالرضا، و الجسد بالفواكه، و الظلال الوارفة، و المقام السامى فإنّ الإنسان بحاجة إلى الأمن الذى يجده هؤلاء فى أتم صورته، فلا اعتداء و لا بغى و لا ظلم و لا غش و لا احتيال، بل و لا كلمه نايه تنال مقدساتهم (مثل كلمات الشرك التى آذتهم فى الدنيا) أو تنال أشخاصهم (مثل الفحش و السب و الغيبه و التهمه و ما أشبهه) و لا حتى كلمات عبثيه (كالتى يتناولها البطّالون

فيتلفون أوقاتهم بلا فائده) كلاً.. إنهم فى سلام شامل.

□ □ لا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيُنِهِ أَي لا تسمع فيها كلمه لغو.

كذلك كانوا فى الدنيا، إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما، كانوا لا يتعرّضون لأحد بكلمه بذيثه، و يتحمّلون أذى الناس كاظمين عافين محسنين، فجزاهم الله بحياه زاخره بالسلام و الرضا.

بلى. المؤمنون يصنعون لأنفسهم و ضمن بيئتهم الخاصه و فى حدود إمكانات الدنيا صوره مصغّره للجنه، يتنعمون فيها قبل أن ينتقلوا إلى جنه الخلد الأبدية.

(١٢) أما شرابهم فإنه من عين تتدفق بين جنّاتهم الخضراء.

□ فيها عَيْنٌ جَارِيَةٌ ما أروع منظر العين المتدفقه التى تجرى على الأرض أو فوقها بلا أخدود- كما قالوا- فيها ألوان الشراب من عسل مصفى، إلى لبن سائغ، إلى شراب طهور، و ماء مزاجه من تسنيم.. أذلك خير أم العين الانيه! إن وعى هذه النعم فى الدنيا يسمو بالمؤمن إلى عدم الاستسلام لإغراء شراب الدنيا الحرام، و الترفع عن ملذّاتها المحدوده، انتظارا لما هو أشهى و أطيب مذاقا و أعظم.

(١٣) أعظم لذات البشر مجالس المؤانسه مع خلّان الصفا بتبادل المحبّه و الود و الكلمات الساميه و المعارف الجديده، و يبدو أنّ السياق يحدثنا عن جانب من هذه المجالس، فبالإضافه إلى الشراب الذى يدار بينهم يصوّر لنا السرر المرفوعه التى

يتقابلون فيها.

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٤) لقد أغناهم تعب الدنيا و الكدح فيها عن التعب هناك، فاشتغلوا بمجالس الأُنس عن النصب الذى يشتغل به أهل النار، فتراهم يتنازعون أكؤس الشراب الطهور الموضوعه أمامهم بلا عناء و لا نصب.

وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ مَلِيئَةٌ بِالشَّرَابِ الطَّهْوَرِ.

(١٥) و هم يتكئون على وسائد لطيفه.

وَ تَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ قَالُوا: النَّمْرُقُ أَى الوَسَادَه، و أنشدوا:

كَهول و شبان حسان و جوههم على سرر مصفوفه و نمارق

(١٦) و فى كلّ جهه تجد البسط التى لا حمل لها كالسجاد، أتى شئتها وجدتها و أخذتها لبساطك.

وَ زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ قَالُوا: إِنَّهَا الطَّنَافِسُ التى لها حمل رقيق.

(١٧) ليس بين الإنسان و بين فهم الحقائق إلاّ حجاب الغفله، فإذا ما كشف عنه هذا الحجاب إذا به يجدها ظاهره أمامه.. و القرآن يساعده على ذلك. ألا ترى

ص: ٦٨

كيف يرعبه في النظر إلى تلك الحقائق المألوفه حوله و التي يغفل عاده عن غيبها و دلالاتها البعيده،فيقول:

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ فإِذَا نَظَرُوا تَمَاجُجَ بَحَارِ الْمَعْرِفَةِ أَمَامَ أَنْظَارِهِمْ. حَقًّا: إِنَّ هَذِهِ الْإِبِلَ الَّتِي انْدَمَجَتْ بِحَيَاتِهِمْ حَتَّى جَعَلَتْ حَيَاتِهِمْ وَإِيَّاهَا نَسِيجًا وَاحِدًا، وَابْتَدَعُوا لَهَا أَلْفَ اسْمٍ يَصِفُونَ فِيهِ كُلَّ مَرَاكِلِ وَجُودِهَا وَ أَغْلَبَ صِفَاتِهَا وَحَالَاتِهَا، وَرَبْمَا لَمْ يَبْتَدَعُوا لِلْإِنْسَانِ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْأَسْمَاءِ..هَذِهِ الْإِبِلَ الَّتِي يَمْتَطُونَ ظَهْرَهَا، وَيَشْرَبُونَ لَبْنَهَا، وَيَأْكُلُونَ لَحْمَهَا، وَيَتَدَاوُونَ بِبَوْلِهَا، وَيَصْنَعُونَ مِنْ أَشْعَارِهَا وَأُوبَارِهَا بِيُوتًا خَفِيفَةً وَثِيَابًا وَزِينَةً. أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا لِيَعْرِفُوا كَيْفَ خُلِقَتْ لِتَكْمَلَ حَيَاتِهِمْ خُصُوصًا فِي تِلْكَ الصَّحَارَى الْقَاحِلَةِ؟ إِنَّهَا مِنْ أَصْعَبِ الْحَيَوَانَاتِ مَرَاسًا وَقَدْرَهُ عَلَى تَحْمَلِ الْمَشَاقِ. إِنَّهَا تَحْمِلُ أَثْقَالَ عَظِيمَةً، وَتَخُوضُ غَمَارَ الْبَرَارَى الْقَفْرِ، وَتَصْبِرُ أَيَّامًا عَدِيدَةً رُبَّمَا بَلَغَتْ أَسْبُوعًا أَوْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ بِلَا زَادٍ وَ لَا شَرَابٍ، وَتَتَحَدَّى الْأَعَاصِيرَ الرَّمْلِيَّةَ بِمَا خُلِقَ فِيهَا مِنْ قَدْرِهِ وَ مِنْ أَهْدَابٍ لِمَقَاوِمَتِهَا! إِنَّ أَرْجُلَهَا الْمَفْلُطْحَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَطْفُو عَلَى الرَّمَالِ الرَّخْوَةِ حَتَّى سَمِّيَتْ بِسَفِينَةِ الصَّحْرَاءِ.

ثم تراها تقتات الأشواك الحادّة، و تختزنها لحين اجترارها في الوقت المناسب، كما تختزن الماء لفترات طويلة. من الذي خلقها بهذه الطريقة العجيبة؟ و مع ضخامه جثتها، و عظم قدرتها، تراها خاضعة للإنسان الضعيف أليفه وديعه، حتى حكيت قصه الفاره التي سحبت حبل بعير، فتبعها ظنًا منه أنّها

و إذا قارنت الإبل بما يشابهها من الحيوانات كالفيل و وحيد القرن لرأيت الإبل أعظم منفعة و أقل مؤنه فإنّ الفيل مثلا لا يؤكل لحمه، و لا يشرب لبنه.

و ننقل هنا بعضا ممّا قاله الدكتور أحمد زكى فى كتابه: (فى سبيل موسوعه علميه) حين تحدّث عن الجمل:

(و من تصاميم الخلق مواءمه بين حيوان و بيئته أن حمل الجمل على ظهره سناما، هو من عضل و شحم، و هو يزداد لحما و شحما على الغذاء عند ما يكثر و يطيب، حتى إذا خرج الجمل إلى سفر و عزّه الغذاء و كاد ينذرّه الجوع بالفناء وجد الجسم فيما حمل من شحم فى سنامه غذاء يطول به العيش أياما.

و من زاد الصحراء الماء، و لعلّه أوّل زاد، و فى جسم الجمل من الاحتياط ما يحفظ به عليه الماء، من ذلك أنّه لا يعرف أو لا يكاد، و من ذلك أنّ أنفه متصل بفمه، و الفم يحبس ما يخرج مع هواء التنفّس من ماء.. و قد يبلغ ما يشربه به الجمل ستين لترا من الماء! أ فليس بمعدته خزائن ثلاث؟ و يضيف: و ما كان لغير الجمل من الحيوانات أن يقطع الصحارى، و تهيأ الجمل لذلك بخفّه، فهو لا يغرز فى الرمل، و تغرز الحوافر فى حمر و خيل.

و تهيأ الجمل بقوائمه الطويله القويّه، فيه صلبه صلده تحمل جسدا ضخما فوقه سنام. و أعان ارتفاع قوائم الجمل على تخطّى ما يعترضه فى الصحراء من أرض قليله الإستواء.

و عينا الجمل عليهما رموش ثقيله، و هى لمنع الرمال أن تدخل إلى عينيه عند ما

يغمضها، وأذنا الجمل كثيره الشعر، ولعلّ هذا المنع دخول الرمل فيهما، وأنف الجمل إنّما هو شقان ضيقان، يسهل إغلاقهما عند الحاجة، والجمل يغلقهما حبسا للرمل أن يدخلهما.. كلّ شيء في خلق الجمل يهدف إلى الرمل يتوقّاه، من الخف إلى الرأس).

فسبحان الله الذي خلق الإبل، وتبا لمن نظر إليها ولم يعتبر.

(١٨) حين نقرأ آيات الذكر يخيل إلينا أنّها ترسم لوحه فنيه، فإذا ذكرت الإبل تذكر بعدها السماء ثم الجبال فالأرض حتى تكتمل الصورة، بلى. هكذا كتاب ربنا يصف الحقائق الواقعيه كما هي و يجعلنا نعتبر بها.

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ عِنْدَ مَا يَنْبَلِجُ الْفَجْرُ مِنَ الْأَفْقِ، وَيَنْتَشِرُ الضِّيَاءُ فَوْقَ الرُّوَابِي، وَتَسْرِعُ أَسْرَابُ الطَّيُورِ بِالتَّحْلِيْقِ بَحْثًا عَنِ رِزْقِهَا، وَتَسْتَيْقِظُ الطَّبِيعَةُ لِتَسْبِحَ رَبَّهَا، هُنَالِكَ انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ جَعَلَهَا اللَّهُ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَرِزْقَهُ وَادْعُهُ، وَرُوعَهُ وَجَمَالَهَا.

و عند المغيب حينما تتماوج الألوان الزاهيه فوق قطعه سحاب تسمّرت في الأفق شطر المغرب، إنّها تذهب حقًا بالألباب، و ينتبه الإنسان يومئذ إلى هذا البناء العظيم فوقه كيف بناه الله و رفعه بلا عمد نراه.

و في الليل عند ما يسير زورق فضّى في بحر من الظلام، و تنتشر على امتداد البصر النجوم الثواقب، لا تكلّ العين من جمالها و روعتها.. هنالك يقول الإنسان:

سبحان الله.

أمّا إذا جلس المرء وراء جهاز تلسكوب لينظر من خلاله إلى الأجرام السابحه في

الفضاء الرحيب، واستمع إلى عالم فلكي يشرح له المسافات الضوئية بينها و إلى دقه نظامها فلا يملك إلا أن يسجد لله القدوس و يكفر بالأنداد من دونه.

(١٩) و تنساب العين من السماء إلى الجبال ليجد الكتل الصخرية الهائلة قد نصبت في مراكزها لتقى الأرض شرّ الهزّات و العواصف، و لتكون خزائن المياه، و المعادن، و يتساءل: ما هذه الدقه المتناهية في وضع هذه الصخور في مواضعها لو تقدّمت عنها أو تأخّرت سبّبت مشاكل عظيمة! و لو فكّرت كيف تكوّنت الجبال لازدّدت عجباً.

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (٢٠) و نظره إلى الأرض و طريقه انبساطها و تذليلها و كيف مهّدها الله للإنسان بفعل الأمطار الغزيره التي غسلت أطراف الجبال و سوّت الأرض لتكون صالحه للسكنى و الزراعة.

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ و هذه الكلمات تذكّرنا بضروره البحث عن الكيفيه، و ميزات و خصائص كل الموجودات حولنا، و أيضا البحث عن العوامل المؤثره فيها: كيف و بأيّ عوامل ملموسه كانت السماء و كانت الجبال و كانت الأرض بهذه الكيفيه، و هكذا يحرضنا كتاب ربنا على البحث و التنقيب سواء على صعيد العلماء و الخبراء أم على مستوى كلّ فرد فرد منا علينا جميعا أن نتفكر و نعقل و لا نكون غافلين عمّا يجري حولنا.. إنّ ذلك هو السبيل إلى معرفه الخالق أكثر فأكثر، و معرفه الخالق هي أصل كل خير و فلاح.

(٢١) الأدله ماثوئه فى أرجاء الخلقه، و عقل الإنسان يكفيه حجه، و يأتى النبى -صلى الله عليه و اله- و من يتبع نهجه ليقوم بدور المذكّر. إنّه ليس مكلفا عنهم و لا مكرها لهم، و لا يتحمّل مسئوليّه أفكارهم، و إنّما هم المسئولون.

فذكر إنّما أنت مذكّر فما على الرسول إلاّ البلاغ المبين، حتى معرفه الله لا تتم إلاّ بعقل الإنسان الذى يستشير النبى بتذكرته.

(٢٢) و ليس الرسول عليهم بجبار، إنّما يذكر بالقرآن من يخاف و عيد.

لست عليهم بمصيطر السيطره هى التسلّط و معناها الجبر و الإكراه.

(٢٣) بلى. الكفّار الذى يقامون رساله، إنّهم يتعرّضون لسخط الله و عذاب عباده المؤمنين، لأنّهم يسيئون التصرف فى الحريه الممنوحه لهم.

□ □
إلاّ من تولى و كفّر و قد اختلف المفسّرون فى معنى الايه، و لكن يبدو أنّ سائر آيات القرآن تفسّر هذه الايه حيث أنّ من تولى عن الحق و كفر به، و مخالف الرسول و ناصبه العدا، يجاهد حتى يعود إلى رشده، و هذا ما نقرؤه بتفصيل فى آيات الجهاد و فى سوره الممتحنه بالذات.

و

□
قد روى عن الإمام على -عليه السلام- أنّه جىء إليه برجل ارتد فاستتابه ثلاثه أيام فلم يعاود الإسلام فضرب عنقه، و قرأ: «إلاّ من تولى و كفّر» (١)

ص: ٧٣

(٢٤) أولئك الكفار المنابذون العدا للرسالة يجاهدكم المسلمون فيعذبهم الله في الدنيا بأيديهم ثم يعذبهم في الآخرة العذاب الأكبر.

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٥) و في نهاية السوره يذكرنا ربنا بالمصير إليه، و كيف لا يستطيع أن يهرب أحد من مسؤوليه أعماله.

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ أَي عودتهم.

(٢٦) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ يحاسبهم جميعا كما رزقهم في الدنيا على كثرتهم، فطوبى لمن حاسب نفسه هنا قبل أن يحاسب هناك، و تاب إلى الله من ذنوبه قبل أن يجازى بها.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الرضا-عليه السلام-: «إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه فيكون هو الذى يلى حسابه، فيعرض عليه عمله، فينظر فى صحيفته فأول ما يرى سيئاته فيتغير لذلك لونه، و ترتعد فرائصه، و تفرع نفسه، ثم يرى حسناته فتقر عينه، و تسر نفسه، و تفرح روحه، ثم ينظر إلى ما أعطاه الله من الثواب فيشتد فرحه، ثم يقول الله لملائكته: هلموا بالصحف التى فيها الأعمال التى لم يعملوها، قال: فيقرءونها فيقولون: و عزتكم إنك لتعلم أننا لم نعمل منها شيئا، فيقول: صدقتم لكنكم نويتموها فكتبناها لكم، ثم يثابون عليها» (١) أ فليس هذا هو المصير الأفضل، فلما ذا الغفله؟

ص: ٧٤

١-١) نور الثقلين/ ج ٥- ص ٥٧٠.

سوره الفجر

اشاره

ص: ٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال:

«أقرؤوا سوره الفجر فى فرائضكم و نوافلكم فإنّها سوره للحسين بن على -عليهما السلام-من قرأها كان مع الحسين-عليه السلام- يوم القيامة فى درجته إنّ الله عزيز حكيم» نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٧١

ص:٧٧

لكي تتلقى كلمات الوحي عليك أن تسمو إلى مستوى التدبير فيها، والتحسس لنبضاتها، ومتابعه مؤثراتها، والتفاعل مع إيقاعاتها.. وبكلمه: لا بد أن تعيشها بكل ما أوتيت من صفاء الفؤاد، وقوه الفكر، ورفاهه الحس.

كذلك سوره الفجر لا يعيها إلا من يندمج معها، ويسلم قياده لكلماتها التي تفيض علما و حكمه و حياه و نورا بها تعرج به إلى أفق آخر، تجعله يرى ما حوله بصورة جديده حتى يتسامى عن جواذب الماده و إصرها و أغلالها و تطمئن نفسه إلى الله و ترضى به، فإذا به و هو في الدنيا يعود بروحه إلى ربه، و يسمع هتاف ربه:

« إِرْجِعِي إِلَيَّ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ».

و يبدو أن هذه هي محور السوره، و لكن كيف يتحقق ذلك؟ في السوره-فيما يبدو-الإجاباه عن ذلك و التي تتلخص في نقاط هي بدورها محاور تمهيديه للسوره.

أولاً: التحسس براقبه الله و أنه بالمرصاد حتى يزداد القلب وعيا و تقوى،

و السؤال: كيف؟ بالنظر فى اختلاف الليل و النهار و حسن تدبيرهما من الفجر حتى الليل إذا يسر، و أيضا بالاعتبار بمصير أولئك الجبارين الذين نسوا الله، و لم يراقبوه، فكان ربهم لهم بالمرصاد، فصبّ عليهم سوط عذاب.

ثانيا: تزكّيه القلب من حبّ الدنيا، و اعتبار الغنى قيمه إلهيه، لأنّ عاقبه حبّ الدنيا و خيمه إذ أنّه يمسح شخصيه الإنسان فيجعله لا يكرم اليتيم، و لا يحضّ على طعام المسكين، و يأكل التراث جميعا، و يكاد يعبد المال لفرط حبه له.

ثالثا: بتذكّر أهوال الساعه حيث تندكّ الأرض ببعضها دكا دكا، و يتجلّى الله بعظمته و عدالته و شدّه بطشه بالجبارين و المجرمين، و يتذكّر الإنسان أنّه قد ضيع فرصته الوحيده فى الدنيا، و لم يقدم شيئا لحياته، و لكن لن تنفعه الذكرى.

هنالك يهتف الربّ بالنفوس المطمئنّه أن ارجعى إلى ربك راضيه مرضيه.

ما أعظمه من نداء، و ما أحسنها من عاقبه. و فّقنا الله لها جميعا.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَ الْفَجْرِ (١) وَ لَيْلٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفِسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبُّكَ لَبَالِغٌ لِمُزَادٍ (١٤) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا- بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْبَلِيغِينَ (١٧) وَ لَا- تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَ تُحِبُّونَ الْكَلِمَةَ الْكَلْبَةَ (٢٠) إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَيْفًا صَيْفًا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) إِذْ جِئِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

اللغة

٥(حجر)الحجر العقل،و أصله المنع،يقال:حجر القاضى على فلان ماله أى منعه من التصرف فيه،فالعقل يمنع من المقبحات و يزجر عن فعلها.

٩(جابوا)قطعوا،و جاء فى مفردات الراغب:الجوب قطع الجوبه و هى كالعائط من الأرض ثم يستعمل فى قطع كل أرض.

١٠(ذى الأوتاد)قيل:أى ذى الجنود الذين كانوا يشيدون أمره،و سُمّاهم أوتادا لأنهم قواد عسكره الذين بهم قوام أمره،وقيل:بل سُمى فرعون بذلك لأنه كان يشدّ الرجل بأربعة أوتاد على الأرض إذا أراد تعذيبه و يتركه حتى يموت.

١٤) (بالمرصاد) هو المحل الذي يجلس الإنسان فيه ليرصد و يراقب أحوال غيره من حيث لا يرونه، وهذا كناية عن أنه سبحانه مطلع على الناس لا يخفى عليه شيء منهم.

١٦) (فقدر) ضيق.

١٩) (لَمَّا) اللّم الجمع، و لممت ما على الخوان المّمه لَمَّا إذا أكلته أجمع، كأنّه يأكل ما أَلّم به و لا يميّز شيئًا من شيء.

٢٠) (جَمًّا) الجم الكثير العظيم، و جمّه الماء معظمه.

ص: ٨٢

بينات من الآيات:

(١) الأدب الأصيل البديع يكتف حول القارئ الضلال والإيقاعات والإيحاءات و المعاريض حتى تجد نفسك فى سواء الحقيقة من حيث تدرى أو لا تدرى، و فى ذروه الآداب البديعه نجد آيات الذكر كأنها بساط سليمان تحملنا إلى آفاق الحقيقة، و تجعلنا نشاهدها و نلامسها و نعيشها و نمتزج بها، و يعجز القلم عن متابعه لطائف هذا الأدب الأسمى لأن فى اختيار الكلمات و طريقه تركيبها و جرس ألفاظها و تماوج معانيها و آفاق بصائرها تيار من المؤثرات التى لم يبلغ الإنسان مستوى إحصائها و معرفتها.. هل يمكن لريشه رسيام أن تنقل على القرطاس كل مشاعره من مراقبه الغروب فى الأفق، و هل هو يستوعب كل جمال الأفق لحظه غياب الشمس؟ كذلك المفسيرون لا يستطيعون وصف كل أحاسيسهم عن لحظات معاشتهم لآيات الذكر. إنها حقاً فوق قدره القلم.. من هنا يعجزون عن ملاحقه معارفهم التى يستوعبونها من القرآن فكيف يشرح كل معارف القرآن و هذا أيضا سر

اختلافهم الواسع في العديد من الكلمات والآيات القرآنية، و فاتحه سورة الفجر منها حيث اختلفت آراؤهم إلى أكثر من ثلاثين قولاً في بعض كلماتها (١).

إذا كيف نفسّر هذه الآيات، وكيف نستفيد من تفاسير الآخرين لها؟ إنّما باتباع منهج التدبر المباشر، فأنت بدورك تقرأ القرآن و عليك أن تنفتح أمام تيار المعرفة و موجات الإبداع و بصائر الوحي في آياته. افتح منافذ قلبك و شغاف فؤادك و أخرج بنفسك إلى مستوى القرآن.. أو لم تسمع أنّ الله سبحانه قد تجلّى في كتابه لعباده و لكنهم لا يبصرون؟ بلى. كلمات المفسّرين إشارات مفيدة على الطريق، و لكنّها ليست بديلاً عن سعيك بنفسك في ذلك الطريق.

و إذا طويت درب المعرفة بنفسك فإنّ العلم الذي تكتسبه ينور قلبك، و يصبح جزء من نفسك، فيرتفع مستواك، و إنّك لا تنساه بإذن الله.

و نعود إلى كلمات القسم الأولى في السورة، و نتساءل- مع من تساءل من المفسرين-: ما الفجر، و ما الليالي العشر، و ما هو الشفع، و ما الوتر؟ لأنّ الكلمات قسم، و القسم يهدف استئثاره القلب و طرق أبوابه المغلقة، فإنّ إجمالها قد يكون مطلوباً، لأنّه يزيد حاله التهويل و التفخيم.

و لكن بين التفاسير العديده يبدو اثنان منها أقرب: الأوّل: عموم المعنى حتى يشمل أغلب المصدايق التي ذكرت في التفاسير، فالفجر هو الفجر سواء كان فجر يوم العيد العاشر من ذى الحجّه أو فجر أول يوم من أيّام محرم حيث الساعات

ص: ٨٥

١- ١) نقل العلامة الطباطبائي أن في تفسير الشفع و الوتر (٣٦) قولاً/راجع الميزان ج ٢٠ ص ٢٧٩.

الأولى من السنه الهجريه أو فجر رساله أو فجر الثوره الحسينيه فى أرض كربلاء أو أى فجر آخر ينبج به نهار يوم جديد أو حياه جديده أو مسيره جديده.. وهكذا الليالى العشر تتسع لعشر ليال من كل شهر، وكذلك الشفع و الوتر فإنهما يتسعان لكل ما شفع أو وتر.

الثانى: تفسير الكلمات بأيام الحج من ذى الحجه الحرام، فالفجر يكون فجر الأوّل من أيامه أو فجر العيد، بينما الليالى العشر هى العشره الأولى من هذا الشهر الذى يشهد أعظم مسيره دينيه فى السنه، و أمّا الشفع و الوتر فهما يوم عرفه (باعتباره التاسع و التسعه وتر) و يوم العيد (باعتباره العاشر و العشره شفع)، أمّا الليل الذى يسرى فهو ليله الإفاضه من عرفات إلى المشعر فمنى.

وَ الْفَجْرِ قَسْمًا بِلِحْظِهِ انْبِلَاجِ النُّورِ مِنَ الْأَفْقِ حَيْثُ يَنْتَظِرُهُ الْجَمِيعُ بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا قَسْطًا كَافِيًا مِنَ السَّبَاتِ وَالرَّاحَةِ.

قسما بلحظه انطلاقه المسيره الرساليه التى فجرت رحم الظلام الجاهلى فوق روابى مكه فى غار حراء مع جلججه الوحي اقرأ اقرأ يا محمد اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.

قسما بلحظه انبعث الدم من أوداج السبط الشهيد بكربلاء ليعث ثوره الحق ضد ظلام الجاهليه المقنّعه، و تنطلق المسيره من جديد.

قسما بكلّ لحظات الانبلاج و الانطلاق فى مسيره البشر بعد تراكم ظلمات الظلم و الجهل و القمع و التضليل.

و قسما بفجر العدالةه الشامله مع ظهور شمس المجدّد الأعظم لرساله الإسلام

الإمام المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الذي وعد الله أن يظهر به دينه الحق على الدين كله و لو كره المشركون).

قسما بكلّ تلك اللحظات الحاسمة: إنّ الحق منتصر، وإنّ الله للظالمين بالمرصاد.

(٢) بعد عشره ليال من الجهد المكثف، والعمل الدؤوب، بعد تحمّل وثناء السفر و السعى إلى مكة من كلّ فج عميق، بعد الإحرام و الكفّ عن الشهوات، بعد التطواف و السعى و الوقوف بعرفه ثم بالمزدلفه، بعد كلّ الإجهاد يأتي فجر العيد المبارك ليمسح بأصابع من نور الرحمة و البركات على رؤوس الحجيج و يمنحهم جائزتهم الكبرى.

و بالرغم من أنّ الليالي العشر سبقت الفجر، إلا أنّ الفجر هو الهدف منها و لذلك سبقها بالبيان، لنعلم أنّ عاقبه العسر يسر، و أنّ ليالي الجهاد و الصبر و الاستقامه على ظلم الطغاه ستنتهي بفجر النصر المبين بإذن الله، كما تنتهي ليالي الحج بفجر العيد.

و لِيَالٍ عَشْرٍ قَالُوا: إِنَّ «ليال» جاءت بلا ألف و لام للدلاله على التعظيم، بلى. و ليله الجهد و التعب طويله كما ليله الترقّب و الانتظار، و ليالي المؤمنين مزيجه أبدا بالجهد المكثف و الانتظار معا فما أطولها.

و قال بعضهم: إنّ هذه الليالي إشاره إلى العشره الأخيره من شهر رمضان لما فيها من عظمه.

(٣) قسما بالشفع و الوتر، بيوم العيد و من قبله يوم عرفه، و بما هو من العبادات

شفع كركعات الصلاة الثائيه و الرباعيه، و بما هي منفرده كالوتيره و صلاه المغرب.

قسما بكل زوجين، و بكل شىء منفرد، فليذهب خيالك أنى شاء فإنه لن يجد سوى زوج أو فرد فقسما بكل ذلك: إن ربك بالمرصاد.

وَ الشَّفْعِ وَ الوَتْرِ (٤) هل وفتت للحج أو تذكرت الإفاضه حيث ينهمر سيل الحجيج من عرفات عبر شعاب الوديان و فوق أكتاف الروابي نحو مزدلفه مهللين مكبرين، و قد تجردوا عن سماتهم المميزه، حاسرى الرؤوس، معتمري ثياب الإحرام البسيطه، و أمامهم هدف واحد يبتغونه و هو مرضاه ربهم؟ إنها حقاً مسيره التوحيد، مسيره الوحده، مسيره التقوى، مسيره الرحمه.. فى تلك الساعه لو كنت قادرا على تجريد نفسك من مؤثرات المسيره و النظر إليها من الخارج لرأيت عجباً، رأيت و كأن الأرض و السماء تسيران، و أن الليل بذاتها تسير معكم.

وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ قسما بتلك الليله المشهوده: إن مسيره الحق منتصره لأن الله من الطغاه بالمرصاد.

قالوا: إن المراد من «يسر» أنه يسرى فيه، كما يقال ليل نائم و نهار صائم، و أنشدوا لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى و نمت و ما ليل المطى بنائم

و لم يقولوا لماذا نسب-بعض الأحيان-الحدث إلى الزمن؟ و أظنّ أنّ ذلك يتمّ عند ما يستوعب الحدث الزمان كلّهُ، فالليل النائم هي التي لا ترى فيها ساهرا، و كذلك النهار الصائم لا تجد الناس فيه إلا صائمين، كما قال الله تعالى:

«أيام نحسات» لأنه لم يكن في تلك الأيام غير النحوسة.

و هكذا إذا استوعب الحدث المكان سمّي به، كما قال الله: وَ سئلِ الْقَرْيَةَ، أى كلّ أهلها.

كذلك الليل هنا كانت تسرى، لأنّ السرى استوعبتها.

(٥) ألا يكفي كلّ ذلك قسما لمن يملك مسكه من عقل.

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ قالوا: معناه لذي لب و عقل، و انشدوا:

و كيف يرجي أن تتوب و إنما يرجي من الفتيان من كان ذا حجر

و قالوا: أصل الكلمه من المنع إذ العقل يمنع الإنسان التردّي في الضلال، و حتى كلمه العقل مأخوذه من ذات المعنى أى المنع و الكف فهي من العقال.

و يبدو لي أنّ الحجر أقل قدر من العقل، و أنّ المعنى-على هذا-: هل في هذا القسم كفايه لمن يملك عقلا أنّي كان قليلا؟ و الله العالم.

(٦) إذا كنت ممّن يكتفى بالقسم و يكتشف الحقائق بعقله بعد أن يذكّر بها فقد جاءك ما يكفي من القسم.

إلا أنّ البعض لا يعي الحقائق إلا بالمزيد من الشواهد، و بالذات العبر التاريخيه

التي تهزّ الضمير هزاً، وحتى ذوى العقول إذا استمعوا إلى تلك العبر ازدادوا يقيناً، وهكذا ساق القرآن طائفه من تلك العبر و أجملها لأنه كما قد فصلها في مواضع أخرى و قال:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِنِّهٖا حَقَّاقٌ مَّشْهُودَةٌ تَرَىٰ بِالْعَيْنِ الْمَجْرَدَ، وَ كَلَّمَا كَانَتِ الْحَقِيقَةُ وَاضِحَةً اسْتِخْدَمَ مِثْلَ هَذَا التَّعْبِيرِ «أَلَمْ تَرَ».

(٧) من هم عاد؟ إنهم عاد الأولى من قبيلة إرم أو الذين سكنوا قريه إرم فبنوا القصور العاليه.

إِرَمٌ ذَاتِ الْعِمَادِ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِرَمٌ جَدُّ عَادٍ، وَقَالَ آخَرٌ: إِلَيْهِ يَجْتَمِعُ نَسَبُ قَبِيلِهِ ثَمُودٌ أَيْضًا، وَقَالَ ثَالِثٌ: إِنَّ مَعْنَى إِرَمٍ الْقَدِيمَةَ، وَأَصْلُهَا مِنَ الرِّمِيمِ حَيْثُ أَنَّ هُنَاكَ عَادِينَ الْأُولَى وَ هِيَ الْقَدِيمَةُ الَّتِي قَالَ عَنْهَا رَبِّنَا: وَ أَنَّهٗ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (١)، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

إِنَّ الْكَلِمَةَ لَيْسَتْ اسْمَ أَشْخَاصٍ بَلْ مَنْطِقُهُ كَانَ يَسْكُنُهَا قَوْمُ عَادٍ، وَ لَا يَتَنَافَى أَنْ يَكُونَ الْاسْمُ مَشْتَرِكًا بَيْنَ الْقَبِيلَةِ وَ أَرْضِهِمْ حَيْثُ كَانَتِ الْعَادَةُ تَقْضَى تَسْمِيَةَ الْأَرْضِ بِاسْمِ أَهْلِهَا.. فَتَكُونُ كَلِمَةُ ذَاتِ صِفَةٍ لِإِرَمَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الَّتِي سَكَنَتْهَا عَادٌ، وَ كَلِمَةُ الْعِمَادِ بِمَعْنَى الْأَبْنِيَةِ الْمُرْتَفَعَةِ الْمَرْفُوعَةِ عَلَى الْعَمْدِ، وَ لِذَلِكَ قَالَتِ الْعَرَبُ: فَلَانَ طَوِيلَ الْعِمَادِ إِذَا كَانَ مَنْزِلُهُ مَعْلَمًا لِزَائِرِهِ.

(٨) تلك القبيلة الشديده التي راجت حولها الأساطير، و تلك المدينة ذات العمد التي لم يكن لها مثيل في بلاد العالم ذلك اليوم.. ألم تر كيف دمّرت عليهم؟

ص: ٩٠

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَإِنَّمَا بَيْنِي الْإِنْسَانَ الْمَدِينِ لَصِيَانَهُ نَفْسَهُ مِنْ أَهْوَالٍ مُحْتَمَلَةٍ مِنْ اعْتِدَاءٍ مَفَاجِئٍ أَوْ سَيْلٍ مِنْهُمْ أَوْ زَلْزَلٍ وَانْهِيَارَاتٍ أَرْضِيهِ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، وَالَّذِي يَدْفَعُهُ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ تَهَرُّبُهُ مِنَ الْمَوْتِ وَ مِنْ عَاقِبَةِ أَعْمَالِهِ، وَ لَكِنْ تِلْكَ الْجُهُودُ تَنْفَعُهُ مَا لَمْ يَأْتِ قَدْرُهُ، فَيَإِذَا جَاءَ الْقَدْرُ فَأَيْنَ الْمَفْرُوقُ؟ إِنَّ الْمَدِينَةَ وَ بِالذَّاتِ إِذَا كَانَتْ بِمَسْتَوَى مَدِينِ عَادِ الْعَظِيمَةِ عِلَامَهُ بَارِزُهُ لِحَضَارَتِهِ الْإِنْسَانِ حَتَّى سَمَّيْتَ الْحَضَارَةَ بِالْمَدِينَةِ، لِأَنَّهَا رَمَزٌ تَعَاوَنَ بِنَاءُ بَيْنَ مَجَامِيعِ كَبِيرِهِ مِنَ النَّاسِ، وَ سِيَادَةُ نَوْعٍ مُتَقَدِّمٍ مِنَ الْقَوَانِينِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّهَا تَأْتِي نَتِيجَةً تَرَكَمُ تَجَارِبِ وَ جُهُودِ عَظِيمَةٍ يَتَوَارَثُهَا أَهْلُهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.. وَ لَكِنَّهَا عَرَضٌ لِلدَّمَارِ الشَّامِلِ إِذَا تَسَلَّطَ عَلَيْهَا الْمَتْرَفُونَ، وَ وَجْهَهَا عَكْسُ مَسِيرِهِ الْخَيْرِ وَ الْفَضِيلَةِ، وَ اتَّخَذَهَا وَسِيلَةً لِلْبَطْشِ بِالْآخِرِينَ، كَمَا فَعَلَتْ عَادٌ فَدَمَّرَهَا اللَّهُ شَرًّا تَدْمِيرًا، فَأَيْنَ الْأَحْقَافُ الَّتِي كَانَتْ مَسَاكِنَهُمْ بَيْنَ الْيَمَنِ وَ حَضْرَمَوْتِ، وَ أَيْنَ قُبُورُهُمْ وَ آثَارُهُمْ؟ (٩) كَذَلِكَ ثَمُودَ الَّذِينَ سَكَنُوا شِمَالِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَ الشَّامِ، فَشِيدُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْقُصُورَ الَّتِي اقْتَطَعُوهَا مِنَ الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ وَ حَفَرُوهَا أَيْضًا مَلَاجِئَ وَ مَخَازِنَ لَهُمْ.. إِنَّ مَصِيرَهُمْ كَانَ أَيْضًا الدَّمَارَ.

وَ ثَمُودَ الَّذِينَ لَجَّأُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ جَابُوا: أَى قَطَعُوا، وَ يُقَالُ: يَجُوبُ الْبِلَادَ أَى يَقْطَعُهَا، وَ الْوَادِ: الْمَسِيرُ بَيْنَ الْجِبَالِ.

(١٠) وَ كَانَتْ عَادٌ وَ ثَمُودٌ وَ قِصَّةُ إِبَادَتِهِمْ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي الْجَزِيرَةِ، لِأَنَّهُمَا كَانَتَا فِي طَرَفِي الْجَزِيرَةِ، أَمَّا آلُ فِرْعَوْنَ فَقَدْ كَانَتْ قِصَّتُهُمْ مَشْهُورَةً عِنْدَ الْأُمَّمِ، لِأَنَّهَا

كانت ذات صبغه عالميه، وقد سمعتها العرب من أهل الكتاب الذين اتصلوا بهم، وقد فصّلها القرآن تفصيلا في مواقع كثيره، و أجملها هنا بكلمات فقال:

وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ قَالَوا: أوتاده أركان سلطته من جنود و عساكر و أموال و أساليب قهر و سلطان، و قال بعضهم: بل كان يعذب الناس بالأوتاد حيث يشدّهم بها إلى أن يموتوا، و هكذا فعل بأسيه زوجته و ماشطه ابنته، و قال بعضهم: بل الأهرامات التي تشبه الوتد في الأرض.. و أنّى كان فقد زعم أنّ تلك الأوتاد تنقذه من مصيره.

(١١) و يبدو أنّ المراد بفرعون هم آل فرعون، أو هو و أوتاده الذين أيّدوه، فلذلك قال عنهم ربنا سبحانه:

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ذَلِكَ أَنَّ لِلْإِنْسَانَ قَدْرَهُ مَحْدُودَهُ لِتَحْمَلِ ضِغْوَطَ التَّمَلُّكِ، فمن الناس من تبطره نعمه تافهه، و منهم من إذا امتلك الدنيا يظل قادرا على التصرف بحكمه و رشد، و إنّما يرتفع الإنسان إلى مستوى ضبط النعم و عدم الوقوع في أسرها و الاسترسال مع رياحها إذا كان مؤمنا بالله و باليوم الآخر. و آل فرعون أبطرتهم النعمه، فلمّا رأوا النيل يجري في بلادهم بالخيرات، و قد دانت لهم الشعوب المستضعفه من حولهم، و قد عرفوا بعض العلوم الجديده في فنّ العماره و الزراعه و تحنيط الأموات و ما أشبه فاستكبروا في الأرض و طغوا.

(١٢) و هكذا ركبوا مطيه الطغيان الجامحه، و أسكتوا الأصوات المعارضه، و تسلحوا بمنطق القوه، و اتبعوا نهج الدجل و التضليل، و أصبحت السلطه مركزا لكلّ فاسد مفسد، منافق متملّق، قوّل كذّاب، محبّ لنفسه، معقّد من الناس،

و بدأوا رحله النهايه إذ أخذت السلطه تنشر الفساد فى الأرض بدل الصلاح، و الظلم بدل العداله.

فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٣) حتى إذا طفح بهم كيل الفساد، و جاءهم النذير فهموا به ليقتلوه، هنالك نزل عليهم العذاب الشديد.

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رُبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ كَمَا السَّيْلُ الْمُنْهَمِرُ يَصُبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ عَلٍّ أَنْصَابًا فَأَيْنَ الْمَفْرُوقِ؟ و كان كلذع السوط و سرعته، يسوطهم فيخالط لحمهم و دمهم.

قالوا:العرب كانت تسمى العذاب الشديد سوطا، و قيل:بل أصل معنى السوط خلط الشىء بالشىء، و لأنَّ العذاب الشديد يخالط اللحم و الدم يسمى بالسوط.

و قال السيد قطب فى هذه الايه:هو تعبير يوحى بلذع العذاب حين يذكر السوط، و بفيضه و غمره حين يذكر الصب، حيث يجتمع الألم اللاذع و الغمره الطاغيه على الطغاه الذين طغوا فى البلاد (١).

و هكذا جاءت نهايه عاد و ثمود و آل فرعون واحده لأنَّ أعمالهم كانت متشابهه بالرغم من اختلاف بلادهم و عصورهم و سائر تفاصيل حياتهم و الجرائم التى ارتكبوها.

(١٤)قسما بأيام المسيره الكبرى، بفجر العيد و لىالى الإحرام و يوم العيد و يوم

ص:٩٣

عرفه و بليله الإفاضه، و على هدى تلك العبر التاريخيه: إِنَّ اللَّهَ يَقِفُ لِلطَّغَاهِ وَ الْمَجْرِمِينَ بِالْمَرْصَادِ.

إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمَرْصَادِ الْجَيْشِ الْمَعَادِي يَسِيرُ بَيْنَ شَعَابِ الْوَادِي بِكَلِّ غُرُورٍ، وَ قُوَاتِ الدِّفَاعِ قَدْ اتَّخَذَتْ مَوَاقِعَهَا خَلْفَ صَخُورِ السَّفُوحِ وَ فَوْقَ مَرْتَفَعَاتِ الْجِبَلِ، وَ فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ تَقَعُ الْوَاقِعَةُ، وَ يَتَبَخَّرُ غُرُورُ الْجَيْشِ وَ يَتَلَاشَى.

كَذَلِكَ أَعْدَاءُ اللَّهِ يَأْخُذُهُمْ فِي سَاعَةِ غُرُورِهِمْ وَ غَفَلَتُهُمْ لِأَنَّ رَبَّكَ بِالْمَرْصَادِ..

وَ هُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، وَ مِنْ سَطَوَاتِهِ آمِنُونَ.

تلك هي ذروه السوره فيما يبدو، و محور آياتها، و خلاصه دروسها، فمن وعى هذه الحقيقه، و خشى سطوات الله، و لم يأمن مكره؟ و من اتقى أخذه الشديد في ساعات الغفله، و كلما هم بمعصيه أو فكر في ظلم أحد فكر في نفسه: أو ليس الله يراقبني و هو بالمرصاد؟ من إذا هم بظلم أحد تذكر القهار العظيم الذي يأخذ الظالمين بشده، و إذا تمادى في الظلم و لم ينزل به العذاب تذكر أن ذلك قد يكون كيدا متينا له حتى يؤخذ بشده.

جاء في الدعاء المأثور عن الإمام السجاد -عليه السلام-:

«اللهم صل على محمد و آل محمد و لا أظلمن و أنت مطيق للدفع عني، و لا أظلمن و أنت القادر على القبض مني» (1).

و قال الشاعر:

ص: ٩٤

١-١) مفاتيح الجنان/دعاء مكارم الأخلاق.

تنام عيناك و المظلوم منتبه يدعو عليك و عين الله لم تنم

و أمّا المظلوم و المستضعف و النائر المقهور فإنهم جميعا يزدادون أملا و استقامه و تحدّيا عند ما يعرفون أنّ الله من الظالمين بالمرصاد، فلا ينهزمون نفسيًا و لا يستسلمون.

(١٥) لكي يتسامى الإنسان عن حتمّيات المادة و مؤثراتها الضاغطة، و لكي يبقى مالكا للدنيا متصرّفا فيها لا مملوكا لها مسترسلا معها، و بالتالى لكي لا تطغيه الثروه و السلطه و تجرّه إلى الترف و الفساد، يبصرنا الذكر بحكمه المال و القدره المتمثله فى اختيار إرادته الإنسان و تجربه معدنه و مدى صبره على إغرائها و انسيابه مع جاذبيتها.

و ليست الثروه دليل كرامه الإنسان عند الله و اجتبائه من لدنه، فلا يستبد به الغرور فيزعم أنّه على حق، ثم يتسافل فيزعم أنّه بذاته الحق، ثم يبلغ به السفه و الطغيان إلى الزعم بأنّه الرب الأعلى! كلاً.. الثروه ماده اختبار، و على الإنسان أن يتخلّص من إغرائها بإنفاقها و التقيد بالحدود الشرعيه فى جمعها.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ ابْتِلَاءَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ بلى. الثروه بذاتها نعمه و كرامه و لكنّها فى ذات الوقت ابتلاء و اختبار، و هذا هو الخط الفاصل و الدقيق فى ذات الوقت بين البصيره الإلهيه و التصوّر البشرى، فليست الثروه رجسا، و ليست كرامه دائما، بل هى حقيقه بلا هويه بلا صبغه، و إنّما تكتسب هويتها و صبغتها من طريقه تصرّف الإنسان فيها.

(١٦) كما أنّ الفقر ليس بذاته نقمه، وإنّما النقمه الاستسلام له، والإعتقاد بأنّه دليل مهانه عند الله.

وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وَ كَانَتْ حَكْمَهُ ضَيْقَ الرِّزْقِ ابْتِلَاءً، تَرَاهُ فَقَدَ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ، وَ زَعَمَ أَنَّهُ رَجُلٌ مَهَانٌ مَنبُودٌ، وَ أَنَّ وَقَعَهُ لَا يَتَغَيَّرُ.

فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلًّا..الفقر ليس إهانته، بل هو اختبار، و ربّ فقير ذى طمرين لا يؤبه به عند الناس لو أقسم على الله لأبره.

أليست الثروه قد تكون على طرق غير مشروع، بل عاده تكون كذلك؟ أ و ليس الفقر قد يكون لأسباب خارجه عن إرادته الإنسان كأن يولد الإنسان فى بلد فقير و من أبوين معدمين؟ فكيف تكون الثروه مقياسا للكرامه الإلهيه، و تتحوّل بذاتها إلى قيمه مقدّسه، و يصبح الفقر معيارا للهوان عند الله، أداه لتذليل الإنسان و تصغيره؟ (١٧) كيف يتخلّص الإنسان من جواذب الماده و أثقالها؟ يا كرام الضعفاء، و الإنفاق عليهم، و عدم انتهاب أموال المحرومين.

أولئك الذين جعلوا الماده قيمه تراهم ممسوخين عن الفطره السليمه، فلا تجدهم يكرمون اليتيم الذى يستثير الرحمه و العطف عند البشر السويّ، أنى كان دينه و مستواه.

كَلًّا

ليس كما تزعمون أنّ الغنى دليل كرامه الفرد عند الله، وأنّ الفقر دليل هوانه، إنّما هما ابتلاء و فتنه.

بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَ هَذَا عَاقِبَةُ الْمَجْتَمَعِ الْمَادِي الْمَرْتَكِسِ فِي أَوْحَالِ الْمَادَةِ وَ عِبَادَةِ الثَّرْوَةِ وَ إِكْرَامِ الْغَنَى لَغْنَاهُ.. فَهَلْ هَذِهِ الْعَاقِبَةُ تَنْسَجَمُ مَعَ الْعَاطِفَةِ الْإِنْسَانِيَةِ، وَ هَلْ يَقْبَلُهَا وَجْدَانُ بَشَرٍ أُنِّي كَانَ؟ كَلَّا.. إِنَّ بَنِي آدَمَ مَفْطُورُونَ عَلَى الْعَطْفِ عَلَى الضَّعِيفِ، وَ بِالذَّاتِ الطِّفْلِ الَّذِي يَفِيضُ بَرَاءَهُ وَ طَيِّبًا، وَ إِذَا كَانَ الطِّفْلُ يَتِيمًا لَا يَمْلِكُ قُوَّةَ ذَاتِهِ يَدْفَعُ عَنِ نَفْسِهِ الْأَخْطَارَ وَ الْأَطْمَاعَ، وَ لَا حَامِيًا يَقِيهِ الشَّرَّ، وَ لَمْ يَحِظْ بِالْقَدْرِ الْكَافِي مِنَ الْعَطْفِ الْأَبَوِيِّ- إِنَّهُ يَذِيبُ الْقَلْبَ حَنَانًا- فَمَا أَقْسَى قَلْبٍ مِنْ يَهِينِهِ وَ يَجَافِيهِ؟ كَلَّ ذِي وَجْدَانٍ يَحْكُمُ بِأَنَّ الْمَجْتَمَعَ الَّذِي يَقْسُوا عَلَى الْيَتِيمِ مَجْتَمَعٌ مَمْسُوخٌ مَنكُوسٌ، وَ أَنَّ قِيمَةَ بَاطِلِهِ وَ نِظَامَهُ فَاسِدٌ.

وَ ذَلِكَ مَقْيَاسٌ سَلِيمٌ وَ فَطْرِيٌّ يَبَيِّنُهُ الْقُرْآنُ فِي الْمَعْرِفَةِ، حَيْثُ أَنَّهُ يَدُلُّنَا عَلَى عَاقِبَةِ النِّظَامِ لِمَعْرِفَةِ صِلَاحِهِ أَوْ فِسَادِهِ، فَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْكُمَ عَلَى نِظَامٍ اجْتِمَاعِيٍّ بِأَدْعَاءِهِ أَوْ شِعَارَاتِهِ، وَ لَكِنْ نَحْكُمُ عَلَيْهِ بِعَاقِبَتِهِ، فَإِنْ وَافَقَتْ وَجْدَانَنَا الْإِنْسَانِيَّ وَ انْتَهَى إِلَى حِمَايَةِ الضَّعِيفِ وَ إِكْرَامِ الْيَتِيمِ وَ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْمَحْتِاجِ وَ مَا أَشْبَهَ نَعْرِفُ صِلَاحَهُ.

وَ هَكَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا تَدْرُسُ بِدَايَتِهِ بَلْ رَاقِبُ نَهَايَتِهِ وَ عَاقِبَتِهِ، حَتَّى تَعْرِفَ طَبِيعَتَهُ.

(١٨) فِي الْمَجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ حَيْثُ يَصْبِحُ الْمَالُ قِيمَةً يَعِيشُ الْمَعْدَمُونَ الَّذِينَ أَسْكَنَتْهُمْ الْفَاقَةُ فِي عِنَاءٍ كَبِيرٍ، إِذْ لَا يَشْجَعُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِلْإِعْتِنَاءِ بِهِمْ.

وَلَا تَحِيَّاءُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ مَنْ هُوَ الْمَسْكِينُ؟ إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلِي وَ مِثْلَكَ أَقْعَدْتَهُ عَوَامِلٌ قَاهِرَةٌ عَنْ اِكْتِسَابِ رِزْقِهِ، أَلَا تَرَحِمُهُ؟ تَصَوَّرْ لَوْ كُنْتَ -لَا سَمَحَ اللَّهُ- مِثْلَهُ كَيْفَ كُنْتَ تَتَوَقَّعُ مِنَ النَّاسِ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَصِيحَ أَنْتَ أَوْ وَاحِدًا مِمَّنْ تَحِبُّهُمْ مَسْكِينًا، فَهَلْ تَرْضَى أَنْ يَطْوَى لَيْلَهُ جَائِعًا، وَيَعِيشَ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ التَّخْمَةَ؟ وَ هَلْ يَرْضَى بِذَلِكَ إِنْسَانٌ ذُو ضَمِيرٍ؟ إِنَّ أَقْلَ مَا نَقَدَّمَهُ لِلْمَسْكِينِ الطَّعَامَ.. إِنَّهُ حَقُّ الْبَهَائِمِ وَ النَّبَاتَاتِ فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ نَظِيرٌ لَنَا فِي الْخَلْقِ؟! وَ قَدْ ذَكَرَ الرَّبُّ أَنَّهُمْ لَا يَأْمُرُونَ بَعْضُهُمْ بِإِطْعَامِ الْمَسْكِينِ لِيَبَانَ انْتِكَاسُ الْمَجْتَمَعِ عَنِ قِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَرِيْمَا مَنَعَ الْوَاحِدَ بِخَلِّهِ عَنِ إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ وَ لَكِنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِأَمْرٍ غَيْرِهِ بِذَلِكَ، بَلْ نَرَى الْبِخِيلَ عَادَةً يَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ غَيْرَهُ تَكْفَّلَ عَنْهُ بِإِطْعَامِ الْمَحْتَاكِ، أَمَّا إِذَا تَرَدَّى الْمَجْتَمَعُ إِلَى عَدَمِ حُضِّ بَعْضِهِمْ عَلَى إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ فَقَدْ هَبَطَ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ. وَ هَذِهِ هِيَ نَهَايَةُ اعْتِبَارِ الْغِنَى كِرَامَةً إِلَهِيَّةً وَ الْفَقْرَ ذَلَالًا وَ هَوَانًا.

(١٩) وَ الْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ أَكْلُهُمُ التَّرَاثَ، وَ التَّهَامُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى جَمِيعًا، حَتَّى إِذَا كَبُرُوا لَمْ يَجِدُوا أَمَامَهُمْ إِلَّا الْحَرْمَانَ وَ الْحَسْرَةَ.

وَ تَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا قَالُوا: «لَمَّا» يَعْنِي جَمْعًا، وَ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَمَّ اللَّهُ شَعْنَهُ أَيْ جَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أُمُورِهِ، وَ لَعَلَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تُشِيرُ إِلَى الْإِسْرَاعِ فِي أَكْلِ التَّرَاثِ لِثَلَا يَكْبُرُ أَهْلُهُ فَيَطَالِبُونَ بِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَ لَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَ بَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا (١).

ص: ٩٨

(٢٠) وهكذا ينحدر الذي يزعم أنّ الثروه هي أقصى كرامه عند الله إلى درك عباده المال، و الانسياق مع مصادره و من يملكه من المترفين.

وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا أَي حُبًّا كَثِيرًا، وَ مِنْهُ: جَمَّ الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ إِذَا اجْتَمَعَ وَ كَثُرَ، وَ أَنْشَدُوا:

إِن تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَ أَيَّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

هذه هي ملامح المجتمع الذي يقَدّس المال. إنّه لا يكرم اليتيم الذي يستدّر عطف كلّ بشر، و لا يأبه بمسكين، و يسترسل مع المال.

(٢١) إذا تجب مواجهه هذه القيمه الشاذّه التي تحسب الكرامه في الثروه، و الهوان في الفقر، و لكن أنّى يستطيع الإنسان التسامى من أرض خلق منها و عجنت طينته بحبّها و حبّ شهواتها و زينتها! بلى. إذا آمن بالله، و تطلّع إلى لقائه، و عرف أنّ الحياه حقًا هي حياه الاخره.. آتئذ تعزف نفسه عن الدنيا، و يقدم من جهده و ماله لبناء مقرّه النهائى فى الاخره.

من أجل هذا يصوّر لنا السياق مدى الحسره التي تشمل الناس الذين لم يعمروا حياتهم الاخره، و أذهبوا طيباتهم فى الدنيا تلك اللحظات الزائلة التي سرعان ما تبخّرت و لم تخلف لهم سوى الندم و الحسرات فى يوم الزلزال الكبير.

كَلَّا- ليست الدنيا نهايه المطاف، و ليست الثروه قيمه عند الله، و ليست تصوّراتهم عن أنفسهم صحيحه.. و متى يتجلّى لهم ذلك؟ إنّما عند قيام الساعه.

إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا فَإِذَا بِالْأَبْنِيَةِ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ تَرَكَمَاتِ جَهْدِ الْمَلَائِكِينَ تَنْهَارُ بِفِعْلِ الزَّلْزَالِ الرَّهِيْبِ الَّذِي يَدُكُّ الْأَرْضَ فَيَسْوِيهَا وَيُدْعَاهَا قَاعًا صَفْصَفًا.

قالوا: أى زلزلت الأرض فكسر بعضها بعضا و تكسرت الأشياء على ظهرها، و قال بعضهم: بل دكت جبالها و أنشازها حتى استوت.

و أتى كان فإن الأرض تنبسط كالأديم لا ترى فيها عوجا و لا أمتا، و لا حفره و لا ارتفاعا. فهل تبقى يومئذ قيمه لعقار أو ركاز أو ذهب و فضّه؟! (٢٢) هنالك يتجلّى الربّ بعظمته للعالمين، فلا أحد يقدر على الهرب من سطوته أو الشك في قهره و قدرته، حيث ترى الملك صافين ينتظرون أوامره.

وَجَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَيْفًا صَيْفًا أَيَّ آيَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَتَجَلَّى لَكَ الَّتِي عَبَّرَ الْقُرْآنُ عَنْهَا: «وَجَاءَ رَبُّكَ»؟ لست أدري، و لكنّه يوم عظيم لا يمكننا و نحن نعيش حدود الدنيا الضيقه أن نتحسّس آفاق عظمته.

(٢٣) إلاّ أنّ من معانى شهود الله حضور تلك القيم التي أمر بها، و تلاشى قيم الزيف و الضلال التي امتحن الناس بها فى الدنيا.. لذلك فأول ما يؤتى بجهنّم سجن المجرمين الرهيب.

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ أَيْنَ جَهَنَّمَ الْيَوْمَ، و كيف يؤتى بها ذلك اليوم؟ هل هى كره ملتبهه عظيمه

كالشمس و أعظم منها، حتى أن الشمس حين تقع فيها تصيح من شدة حرّها، أم ماذا؟ لا نعرف، و لكن

جاء في روايه مأثوره عن أبي جعفر (الباقر) -عليه السلام- أنه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» سئِلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-، فَقَالَ: بِذَلِكَ أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا بَرَزَ الْخَلَائِقُ وَجَمَعَ الْأُولَى وَ الْآخِرِينَ أَتَى بِجَهَنَّمَ يَقَادُ بِأَلْفِ زَمَامٍ يَقُودُهَا مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مِنَ الْغَلَاظِ الشَّدَادِ، لَهَا هَدَّةٌ وَ غَضَبٌ وَ زَفِيرٌ وَ شَهيقٌ، وَ إِنَّهَا لَتُزْفَرُ الزَّفْرَةَ فَلَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمَ لِلْحِسَابِ لِأَهْلِكَ الْجَمِيعِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عَنقٌ فَيَحِيطُ بِالْخَلَائِقِ الْبَرِّ مِنْهُمْ وَ الْفَاجِرِ فَمَا خَلَقَ اللَّهُ عَبِيدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَلَكَ وَ لَا نَبِيًّا إِلَّا ينادي: رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي، وَ أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ تَنَادَى: أُمَّتِي أُمَّتِي، ثُمَّ يَوْضَعُ عَلَيْهَا الصَّرَاطَ أَدَقَّ مِنْ حَدِّ السِّيفِ، عَلَيْهَا ثَلَاثُ قَنَاطِرٍ فَأَمْرًا وَاحِدَةً فَعَلِيهَا الْأَمَانَةُ وَ الرَّحْمُ، وَ ثَانِيهَا فَعَلِيهَا الصَّلَاةُ، وَ أَمَّا الثَّلَاثَةُ فَعَلِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَيَكْلِفُونَ الْمَمَرَّ عَلَيْهِمْ فَيَجْسِبُهُمُ الرَّحْمُ وَ الْأَمَانَةُ فَإِنْ نَجَّوْا مِنْهَا حَبَسْتَهُمُ الصَّلَاةَ، فَإِنْ نَجَّوْا مِنْهَا كَانَ الْمُنْتَهَى إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَ هُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ، وَ النَّاسُ عَلَى الصَّرَاطِ فَمَتَعَلَّقَ بِيَدِهِ، وَ تَزُولُ قَدَمُهُ، وَ يَسْتَمْسِكُ بِقَدَمِهِ، وَ الْمَلَائِكَةُ حَوْلَهَا يَنَادُونَ: يَا حَلِيمٌ أَعْفُ وَ اصْفَحْ وَ عَدَّ بِفَضْلِكَ وَ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَ النَّاسُ يَتَهافتون فِي النَّارِ كَالْفَرَّاشِ فِيهَا، فَإِذَا نَجَّاهُ نَجَّاهُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ مَرَّ بِهَا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ بِنِعْمَتِهِ تَتَمُّ الصَّالِحَاتُ وَ تَزَكُوا الْحَسَنَاتُ، وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ بَعْدَ إِيَّاسٍ بِمَنِّهِ وَ فَضْلِهِ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» (1) و

في حديث آخر إضافه رهيبه حيث يقول الرسول -صلى الله عليه و اله-:

«جاء جبرئيل فأقرأني «وجيء يومئذ بجهنم» فقلت: يجاء بها؟ قال: يجيء بها سبعون ألف يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شرده لو تركت لأحرقت

ص: ١٠١

أهل الجمع!!» (١) يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَىٰ لَا تَنْفَعُهُ الذُّكْرَىٰ بَعْدَ فَوَاتٍ أَوْانَهَا.

(٢٤) ماذا يتذكر؟ يتذكر طيباته التي بددها فيما زالت، يتذكر شبابه الذي أبلاه في شره السهو و التباعد عن الرب، يتذكر أمواله التي جمعها من غير حلّ، و أنفقها في غير رضا الرب، يتذكر أوقاته التي أفناها في اللهو و الغفلة و الإشتغال بالتوافه، و كل ساعه منها كان يستطيع أن يحصل بها على ملك كبير في الاخره! يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي إِنَّهَا تِلْكَ الْحَيَاةُ حَقَّ الْحَيَاةِ، الْحَيَاةُ الْخَالِدَةُ الَّتِي لَا تَزُولُ.

(٢٥) هنالك العذاب الإلهي الذي يتجلّى به الرب، و الوثاق الإلهي الذي يتجلّى به غضبه.

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا لَّا أَحَدٌ يَعْذِبُ كَاللَّهِ، لِأَنَّهُ الْأَعْظَمُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَقَاسُ أَيُّ شَيْءٍ مِنْهُ بِأَيِّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَهْرَبُ مِنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَ لَا يَعْرِفُ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ لَا يَقَاسُ بِبَعْضِ الْأَذَى فِي الدُّنْيَا.

جاء في دعاء أمير المؤمنين علي-عليه السلام-: «و أنت تعلم ضعفى عن قليل من بلاء الدنيا و عقوباتها و ما يجرى فيها من المكاره على أهلها، على أن ذلك

ص: ١٠٢

بلاء و مكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته، فكيف احتمالى لبلاء الاخره و جليل وقوع المكاره فيها؟! او هو بلاء تطول مدته، و يدوم مقامه، و لا يخفف عن أهله، لأنه لا يكون إلا عن غضبك و انتقامك و سخطك، و هذا ما لا تقوم له السموات و الأرض، يا سيدى فكيف بى و أنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين؟!» (١) (٢٦) كما لا شىء يشبه سجن الله و وثاقه.

و لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ أَى لا يشدُّ أحدٌ وثاقاً بذات الشده التى يشدُّ الله وثاق الكفار.

(٢٧) أ هذا خير أم مصير المؤمنين الذين قدّموا لحياتهم فعمروا آخرتهم، فاطمأنت نفوسهم بسكينه الإيمان، و تساموا فوق مؤثرات الماده، فربما ملكوها و لكنّها لم تمتلكهم أبداً، فعاشوا أحراراً، و ماتوا سعداء، إذا استقبلهم ملك الموت فبترحاب، و نودوا فى أوّل ساعه من حياتهم الأبدية بالبشرى.

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ يعيش المؤمن بين الخوف و الرجاء، فإن دعاه إلى الخوف إحساسه بالتفريط فى جنب الله، فقد دعاه إلى الرجاء يقينه بعظيم عفو الله و واسع رحمته. و كل خوفه من العاقبه السوءى، و من ألا يتقبل الله حسناته، و لا يتجاوز عن سيئاته، و من أن يتبين فى ساعه الرحيل أن حساباته كانت خاطئه، و أنه ليس كما كان يرجو من أصحاب الجنه. أو لم تسمع

مناجاه الإمام السّجاد على بن الحسين -عليه السلام:-

«ليت شعرى أ للشقاء ولدتنى أمى أم للعناء ربّتنى، فليتها لم تلدنى و لم

ص: ١٠٣

(١ - ١) مفاتيح الجنان / دعاء كميل.

تربّنى، و ليتنى علمت أمن أهل السعادة جعلتنى و بقربك و جوارك خصصتنى فتقر بذلك عىنى و تطمئن له نفسى» (١)

(٢٨) فإذا جاءه النداء الإلهى عند وفاته: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ استراح، و شملته البشرى، و عمه الفرح.. هنالك يستطيب الموت لأنه عوده العبد الكرىم إلى الربّ الرحىم الذى يستضىفه بالقول:

إِرْجِى إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً لقد اطمأنت أنفسهم إلى بارئها، و توكلوا على الله، و سلموا لقدره و قضائه، و لم يبطرهم الغنى، و ما اعتبروه صكّ الغفران، و لم يهزمهم الفقر، و ما اعتبروه لعنه إلهيه.. لذلك فإنّ الله يرضيهم بنعيم الأبد، و يتيؤهم بأنهم مرضيون، و ما أحلى ساعه اللقاء بحبيبهم و أنيسهم، و ما أروع كلمات الودّ المتبادله،

جاء فى الحديث القدسى عن الله عزّ و جلّ أنه قال فى حقّ الزاهدين و أهل الخير و أهل الآخرة: «فو عزّتى و جلالى لأحييهم حياه طيبه إذا فارقت أرواحهم أجسادهم، لا- أسلط عليهم ملك الموت، و لا يلى قبض روحهم غيرى، و لأفتحنّ لروحهم أبواب السماء كلّها، و لأرفعنّ الحجب كلّها دونى، و لامرنّ الجنان فلتترّين، و الحور فلتزفنّ، و الملائكه فلتصلين، و الأشجار فلتثمرنّ، و ثمار الجنه فلتدلّين، و لامرنّ ريحا من الرياح التى تحت العرش فلتحملنّ جبالا من الكافور و المسك الأذفر فلتصيرنّ و قودا من غير النار فلتدخلنّ به و لا يكون بينى و بين روحه ستر فأقول له عند قبض روحه: مرحبا و أهلا بقدمك على، اصعد بالكرامه و البشرى، و الرّحمه و الرضوان، و جنّات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدا، إنّ الله عنده أجر عظيم، فلو رأيت الملائكه كيف يأخذ بها واحد و يعطيها الآخرة!» (٢)

ص: ١٠٤

١-١) مفاتيح الجنان/مناجاه الخائفين.

٢-٢) كلمه الله/المؤلف السيد حسن الشيرازى ص ٣٦٩.

جاء في نفس الحديث: «وإذا كان العبد في حاله الموت يقوم على رأسه ملائكة بيد كل ملك كأس من ماء الكوثر و كأس من الخمر، يسقون روحه حتى تذهب سكرته و مرارته، و يبشرونه بالبشارة العظمى، و يقولون له: طبت و طاب مثواك، إنك تقدم على العزيز الحكيم، الحبيب القريب، فتطير الروح من أيدي الملائكة فتصعد إلى الله تعالى في أسرع (من) طرفه عين، و لا يبقى حجاب و لا - ستر بينها و بين الله تعالى، و الله عزّ و جلّ إليها مشتاق، و تجلس على عين عند العرش، ثمّ يقال لها: كيف تركت الدنيا؟ فتقول: إلهي و عزّتك و جلالك لا علم لي بالدنيا، أنا منذ خلقتني خائفه منك، فيقول الله تعالى: صدقت يا عبدي، كنت بجسدك في الدنيا و روحك معي، فأنت بعيني، سرّك و علانيتك، سل أعطك، و تمنّ عليّ فأكرمك، هذه جنتي فتجّح فيها، و هذا جواري فاسكنه، فتقول الروح: إلهي عرفّنتي نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك، و عزّتك و جلالك لو كان رضاك في أن أقطع إربا إربا، و أقتل سبعين قتله بأشدّ ما يقتل به الناس لكان رضاك أحبّ إليّ، إلهي كيف أعجب بنفسي و أنا ذليل إن لم تكرمني، و أنا مغلوب إن لم تنصرني، و أنا ضعيف إن لم تقوّني، و أنا ميّت إن لم تحيني بذكرك، و لو لا سترك لافتضحت أوّل مرّه عصيتك، إلهي كيف لا أرضيك و قد أكملت عقلي حتى عرفتك، و عرفت الحقّ من الباطل، و الأمر من النهي، و العلم من الجهل، و النور من الظلمه، فقال الله عزّ و جلّ: و عزّتي و جلالي لا - أحجب بيني و بينك في وقت من الأوقات، كذلك أفعل بأحبّائي» (١).

(٢٩) ثم يدخل الله روح المؤمن بعد قبضها برضاه في حزه المفلحين في عباده الصالحين حيث المؤمنسه و الصفاء.

ص: ١٠٥

فَاذْخُلِي فِي عِبَادِي أَيِ انْتِظِمِي فِي سَلْكِهِمْ.

(٣٠) وَتَسْتَقْبِلُهُ دَارُ ضِيَافَةِ اللَّهِ وَمَنْزِلُ كِرَامَتِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي مِنْ دَخْلِهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا أَبَدًا.

وَإِذْخُلِي جَنَّاتِي جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْ أَهْلِ جَنَّتِهِ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ.

ص: ١٠٦

سوره البلد

اشاره

ص: ١٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله الصادق-عليه السلام-: من كان قراءته في فريضته «لا أقسم بهذا البلد» كان في الدنيا معروفاً أنه من الصالحين، و كان في الآخرة معروفاً أن له من الله مكاناً، و كان يوم القيامة من رفقاء النبيين و الشهداء و الصالحين تفسير سوره الثقلين/ج ٥/ص ٥٧٨.

ص: ١٠٩

حينما يولد ابن آدم تتساوى فى كيانه فرص الخير و الشر، و لا يزال يختار ثم يستفيد من فرص الخير أو الشر الواحد بعد الأخرى حتى تميل كفته نحو ما اختار. فرص الخير هى العناصر النورية التى لو رجحت حملته الى الجنة، بينما فرص الشر هى العناصر النارية التى لو تكاثفت هوت به إلى جهنم و ساءت مصيرا.

و لا- أعرف شيئا يجرى فيه تحول ذاتى كالإنسان. إنه يتمحض بالتالى للجنة أو للنار، هنالك لا- يعود مختارا، و لا يعود يملك حرية اختيار واحد من النجدين، بل يبقى كما اختار أولا-، أما الى جنه النور خالدا فيها، أو الى جهنم النار خالدا فيها، أو لبعض الوقت.

كيف يتم اختيار الشر؟ انه ليس بحاجة الى العزم و الوعى، بل يكفى الغفلة و الاسترسال سبيلا- يؤدى به الى النار، كما لو تسلق الإنسان الجبل لا- يحتاج سقوطه فى الوادى الى إرادته و حكمه، بل ليدع نفسه لحظه فسوف نراه فى الوادى مهشما بعد لحظات، بينما الذى يختار الجنة عليه ان يتسلح بوعى الذات و عزم الإرادة، و لعل

هذه البصيره هي محور سوره البلد.

ذلك أن القسم الاول من السوره يبصرنا بأنفسنا، و اننا فى كبد(الأرض و المكان) و علينا وعى ذلك حتى نتحدى الصعاب بعزم الاراده، و نعرف أن الله قادر علينا فنراقبه، و خبير بنا فلا نخدع أنفسنا؛ خصوصا عند الإنفاق، فنزعم: اننا أهلكتنا مالا كثيرا.

أما القسم الثانى فيذكرنا بضروره اقتحام العقبه، و تجاوز المنعطف الخطير الذى يجد الإنسان نفسه بين أمرين: بين السقوط فى أشراك الهوى أو التحليق فى سماء الحق.

و بعد أن يبين مثلين لاقتحام العقبه هما: فك رقبه، و الإطعام فى يوم ذى مسغبه، يهدى الى قمه التحول الايجابى عند البعض المتمثله فى الإيمان و التواصى بالصبر و المرحمه.

كما يشير فى السياق فى خاتمه السوره الى التحول السلبي عند البعض الاخر متمثلا فى الانحياز الى المشأمه حيث النار المؤصده.

ص: ١١١

[سوره البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٢٠]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَ وَالِدٍ وَ مَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَشْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبِدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ (٩) وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

اللغه

٤(كبد): أصل الكبد من قولك: كبد الرجل كبدا فهو كبد إذا وجعت كبده و انتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب و مشقه، و منه اشتقت المكابده، و أصل كبده إذا أصاب كبده، و قيل: الكبد: شدة الأمر، و منه تكبد اللبن:

إذا اغلظ و اشتد.

٦(لبدا)الكثير المتراكم، كما اللبده و هى اللحاف الثخين، و منه اشتقت لبده الأسد.

١٠(النجدين): قيل النجد كالنجف، و سميت نجد نجدا لأنها فى رفعة من الأرض، و سميت النجف نجفا لذلك، و قيل: نجد: هو الطريق الواضح على مرتفع من الأرض يبصره الرائي.

ص: ١١٤

بينات من الآيات:

(١) لكى نعى مدى خطوره قضيه نقيسه باخرى عبر القسم، و حينما يأتى القسم فى كلام الله، يضاف الى ذلك بعدان اخران: أولاً: يعكس عظمه ما يقسم به بذات النسبه التى يعكس أهميه ما يقسم عليه، ثانياً: يكشف عن علاقه خفيه أو ظاهره بين الأمرين، و فى فاتحه سوره البلد نجد التلويح بالقسم بالبلد و بالوالد و الولد، لبيان المشاق التى يواجهها الإنسان، فما هى العلاقه بينهما؟ انها تتمثل فى أن أعظم ما يكابده البشر يتصل بالأرض و الأولاد.

لا- أُقسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ قُلْنَا: ان القسم يهدف إلقاء ظلال من العظمه على الموضوع، و سوف يحقق هذا الهدف نفيه أو إثباته، و قد يكون نفي القسم يوحى بأهميه ما يحلف به مما يبالغ فى العظمه، و لذلك قال المفسرون: ان لا هنا زائده، و بعضهم قال: انها تشبه كلمه

كلا، تنفى أفكار الجاهليين.

و البلد-حسب أقوال المفسرين:-مكة، و شرف مكة واضح.

(٢) و لكن مكة ليست بأشرف من رسول الله، بل شرف كل أرض بمن يسكنها من عباد الله الصالحين، و لذلك

جاء فى الحديث: «المؤمن أعظم حرمة من الكعبة» (١) و يفسر ذلك

حديث آخر: أن رسول الله-صلى الله عليه و اله-نظر الى الكعبة فقال: «مرحبا بالبيت ما أعظمك! و أعظم حرمتك على الله! و الله للمؤمن أعظم حرمة منك؛ لأن الله حرم منك واحده، و من المؤمن ثلاث: ماله، و دمه، و أن يظن به ظنّ السوء» ٢ أو ليست الكعبة أول بيت وضع للناس، فالهدف إذا هو الإنسان الذى سخرت له الأرض و ما فيها، و أى إنسان أشرف من محمد بن عبد الله صلى الله عليه و اله.

وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ أَى أَنْتَ تَسْكُنُ هَذَا الْبَلَدَ وَ تَحِلُّ فِيهِ، وَ قَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَى الْآيَةِ: لِأَقْسَمَ بِالْبَلَدِ الَّذِى يَسْتَحِلُّ النَّبِىُّ فِيهِ. وَ

قد روى ذلك مأثورا عن الامام الصادق عليه السلام حيث قال: «و كان أهل الجاهلية يعظمون الحرم، و لا- يقسمون به، و (لا) يستحلون حرمة الله فيه، و لا يعرضون لمن كان فيه، و لا يخرجون منه دابه، فقال الله تبارك و تعالى لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَ وَالِدٍ وَ مَا وَلَدَ قَالَ:

يعظمون البلد أن يحلفوا به، و يستحلون فيه حرمة رسول الله (٢).

و على هذا يكون شرف المكان بتوفر حاله من الحرية و الأمن لمن يسكنه.

ص: ١١٤

١- (١، ٢) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٦٧ ص ٧١.

٢- (٣) تفسير البصائر ج ٥٥ ص ٥٣٣ نقلا عن الكافى.

(٣) ثم يقسم القرآن بوالد و ما ولد، فيقول:

وَ وَالِدٍ وَّ مَا وَّلَدَ فَمَنْ هُمَا؟ يبدو ان كل والد يكابد حتى ينمو ولده و يشب، كما يكابد كل ولد حتى يكتمل و يصبح والدا، و القسم على هذا مطلق يشمل كل إنسان.

و قال بعضهم بل المراد آدم-عليه السلام-و ذريته، أو إبراهيم-عليه السلام-و نجله إسماعيل، أو كل ذريته الصالحين.

(٤) أيهما أيسر عليك إذا حملت ما يزن خمسه كيلوات و أنت تزعم انه عشره، أو كنت تزعم انه ثلاثه؟! كذلك حينما تواجه الحياه و أنت ترى أنها كما التسلق على جبل أشمّ، فانك تتغلب بسهولة، بعكس ما لو زعمت انها مجرد رحله سياحيه.

و القرآن الكريم يريدنا أن نعرف حقيقه الحياه، و نسموا الى مستواها، لأنه أفضل لديتنا و دنيانا من ان نتهرب منها بحثا عن الراحة، القرآن يريدك قوى الظهر حتى لا يثقل عليك أى حمل، و لا يريدك تبحث دائما عن الحمل الخفيف و قد لا تجده..

أو لم تقرأ قول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ .

بلى. و كل حياه الإنسان كدح، إلا أنه قد يغفل عنه فيهرب الى ما هو أشد كدحا، أو يستسهله و يتغلب على صعابه حتى لا يعود يعترف بأيه صعوبه.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ و انى لك الفرار من أمر خلقت فيه و هو داخل كيانك بل هو أصل وجودك شئت أم أبيت؟! قالوا: الكبد الشده و النصب.

الوجود ذاته سلسله انتصارات ضد العدم، أو ليس الوجود نورا يجعل الشيء واقعا! تصور أن النور ذرأت متلاحقه متصله، فإذا توقفت فليس ثمه سوى ظلام.

و الحياه بدورها سلسله صراعات ضد الموت؛ إنها هي الاخرى نور متجدد، و هي نتيجه ملايين من العوامل المتزامنه لو فقد بعضها انعدمت.

كما أن حياه كل واحد منا صراع مع الطبيعه، أو تعرف كم مليار جرثومه هجمت عليك خلال رحله حياتك بهدف القضاء عليك، و كم مره تعرضت أو تتعرض لخطر الموت فنجوت منها بإذن الله، و حتى على مستوى الظاهر تجد الإنسان في كبد، يصارع من أجل البقاء في ظلمات الرحم، و يواجه أكبر التحديات عند الولاده، حتى اعتبروا ساعتها كساعتي الموت و النشور أشد مما يمر به البشر، و في الطفوله المبكره يعانى من الجوع و العطش و الألم و يتحدى الأخطار، أو ليس تشكل نسبه الوفيات عند الأطفال الأعلى في البلاد الناميه و نسبه عاليه في غيرها؟! راقب طفلا يتعلم المشى و انظر كم يقدم و كم يسقط، و راقبه عند تعلم اللغه كم يعانى من صعوبه، و راقبه عند ما يسعى لاقتناع والديه برغبه ملحه كم يبكى و كم يجهد نفسه. كل ذلك جانب من معاناه الطفل. أما معاناه الكبار فإنها لا تنتهى لأن الإنسان خلق شاعرا طموحا، و الشعور يفرز الألم، و الطموح سبيل المعاناه، و هذا هو الذى يميزه عن سائر الأحياء، و من هنا

روى عن الامام الحسن -عليه السلام- انه قال: «لا أعلم خليفه يكابد من الأمر ما يكابد الإنسان، يكابد مضايق الدنيا و شدائد الاخره» (١).

(٥) و فى هذه المكابده يستوى المؤمن و الكافر، و الغنى و الفقير، و الكبير، و الصغير، و كل من سمى إنسان. قد لا تحس أنت بمعاناه رفيقك لأنك لست فى

ص: ١١٨

قلبه، فتزعم أن غيرك أفضل منك، و لكن أ و ليسوا هم أيضا بشرا أمثالك. بلى. إذا تعالوا نرضى بواقعنا، و نتحمل المسئوليه، و لا يقول الواحد: الآن انا صغير، لو كبرت لارتحت مما أعانيه؛ لأن الكبار أفضل، أو يقول: انا الآن اعزب لو تزوجت، أو إن سبب متاعبي فقري فلو أغناني الله بلغت الراحة، أو إن سبب مشاكلي أن أولادي صغار فلو كبروا تخلصت من همومهم، و لكنه ما إن ينتقل من حال إلى حال، أو من مرحله لأخرى حتى تهجم عليه مشاكل جديده، كل مشكله أكبر من أختها. لا- تعيش إذا في الأمنيات الحلوه، في أحلام اليقظه، لا تقل لا يعاقبنى الله، و لماذا؟ هل أنت إلا بشر.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ قَالُوا مَعْنَاهُ: أَيُظَنُّ ابْنُ آدَمَ أَنَّ لَنْ يَعْقِبَهُ اللَّهُ عِزًّا وَ جَلًّا؟ إِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى مَا أُوتِيَ مِنْ نِعْمِ اللَّهِ فَيُصِيبُهُ الْغُرُورُ وَ لَا يَفْكُرُ أَنْ مَا لَا يَمْلِكُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَمْلِكُهُ، يَقُولُ: لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَيَّ، وَ هُوَ يَعِيشُ فِي وَسْطِ الْمَشَاكِلِ وَ كِبْدِ التَّحْدِيَّاتِ.

(٦) أو تدرى كيف يكبر الإنسان؟ حينما يحمل قضيه كبيره، و نسبه أدائه لقضيته يكون تساميه، و هكذا حمل الله عباده الصالحين المزيد من المسئوليات، و ابتلاهم بأشد البلاء، حتى

جاء في الحديث المعروف: «البلاء للأنبيا ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» بيد أن بعض الناس كلما حمل رساله أو قضيه أو مسئولييه صغرت نفسه في عينيه، و قال: كيف أؤدى هذا العمل؟ و حاول الفرار منها. حقا عند هذه النقطه يفترق العظماء عن غيرهم، انهم لا يجدون أحدا أحق منهم بعمل الخير أو تحمل المسئوليه، بل تجد بعضهم يبحث عنها بحثا حثيثا.

و لعل الايه هذه تعالج هذه الحاله الشاذه في نفس الإنسان، حيث تراه إذا أعطى قليلا كبر في عينيه، و قال: إنه مال كثير، و لا يقول انه قدمه لحياته، بل يراه

مغرما و يقول: اننى أهلكته.

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا- لُدِيدًا أَى مَالًا- كثيرا مجتمعا و لعله يكون كاذبا فى ذلك، فلم ينفق إلا- قليلا، و عظم عمله فى عينه، بخلاف المؤمن الذى لا يخرج أبدا عن حد التقصير فى جنب الله، و لذلك فهو يتطلع أبدا الى عمل أكبر و أفضل.

(٧) ثم إنه يزعم: أنه متروك لشأنه كالبهيمه السائحه، و أنه لا أحد يراقبه.

كلا.. إن الله يراقبه و هو أقرب إليه من جبل الوريد.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٨) إن الذين يتهربون من مسئولياتهم يفرغون حياتهم من محتواها، من لبها، من هدفها. فلما ذا إذا جعل إنسانا، و أوتى الأحاسيس المختلفه: عينا يبصر بها فيعرف الحق و الباطل، و لسانا ينطق به، و شفتين ليطبقها على لسانه ان هم بكلام خاطئ.

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ لِلْبَصْرِ وَ الْبَصِيرَةِ مَعًا.

(٩) و جعل الله للإنسان اللسان الذى ميّزه عن سائر الأحياء بالنطق.

وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ (١٠) و أعظم النعم أنه منحه الحريه فهداه الى ما هو طريق الحق و ما هو طريق الباطل.

وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

ص: ١٢٠

و أصل النجد الأرض المرتفعه، و

روى عن النبى-صلى الله عليه و اله-أنه قال: «أيها الناس! هما نجدان: نجد الخير و نجد الشر» (١) و لعل تسميه الطريقين بالنجدين بسبب أنهما طريقان، واضحان، متميزان، ظاهره معالهما، و معروف روادهما.

(١١) كل ما فى الإنسان يعكس المسؤوليه التى حَمَلَهَا إياها، فقد ألهم الفجور و التقوى، و أودع فى داخله نوازع الشر و حوافز الخير، و سخرت له الأشياء لكى يستخدمها فى واحد من السبيلين، و السؤال: كيف ينبغى أن يتصرف حتى يحقق المسؤوليه التى هى الهدف من خلقه؟ عليه أن يقتحم، و ما لم يفعل ذلك يبقى وراء جدر التخلف.

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ هل تسلقت الجبال، و هل صادفك طريق وعر ضيق بين الصخور المترامه، و من تحتك الوادى العميق، الحاله النفسيه التى يعيشها المتسلق الشجاع هى الحاله المطلوبه فى تحدى الصعاب فى الحياه و تحمل المسؤوليات، قمه فى الوعى و مضاء فى العزم و شجاعه فى الاقدام. ايه و سوسه أو تردد أو ارتجاج للقدم، أو ايه غفله و تساهل تكفى سببا للسقوط فى الهاويه السحيقه! و قالوا عن الاقتحام: الدخول بسرعه و ضغط و شده، و العقبه: الطريق الصعب الوعر الذى فيه صعود.

(١٣-١٢) و أى شىء العقبه؟ انها تجاوز شح النفس، و مصارعه هواها بالكرم و الإيثار.

ص: ١٢١

١-١) تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٥٨١.

وَمَا أَذْرَاكَ مِمَّا الْعَقَبُهُ فَكَّ رَقَبِهِ قَالُوا عَنْ فَكِّ الرِّقَبِ: إِنَّهُ أَشْمَلُ مِنْ عَتَقِ رَقَبِهِ، لِأَنَّ الْعَتَقَ هُوَ تَحْرِيرُ الرِّقِّ بِصُورِهِ كَامِلِهِ، بَيْنَمَا فَكُّ رَقَبِهِ يَكُونُ ذَلِكَ بِالْمَشَارَكَةِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَأُورِدُوا فِي ذَلِكَ

حديثاً مأثوراً عن رسول الله -صلى الله عليه و اله- يقول الحديث المرفوع عن البراء بن عازب: جاء اعرابي للنبي، فقال: يا رسول الله! علمني عملاً -يدخلني الجنة، فقال: «ان كنت أقصرت الخطبه لقد أعرضت المسأله. أعتق النسمة و فك الرقبه» فقال: أ و ليسا واحدا، قال: «لا. عتق الرقبه أن تنفرد بعقتها، و فك الرقبه ان تعين في ثمنها، و الفء على ذى الرحم الظالم، فان لم يكن ذلك فأطعم الجائع، و اسق الضمآن، و أمر بالمعروف، و انه عن المنكر، فان لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير» (١).

(١٤) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمِ ذِي مَسْعَبَةٍ أَنْ إِطْعَامٌ جَيِّدٌ وَ عِنْدَ الْمَجَاعَةِ حَيْثُ يَحْضُرُ النَّفْسُ الشَّحُّ، وَ يَنْتَشِرُ الْاسْتِثْنَاءُ، وَ يَصْبِحُ النَّاسُ فِي هَلَعٍ شَدِيدٍ، يَكُونُ الْإِطْعَامُ أَكْبَرَ ثَوَابًا، لِأَنَّهُ يُعْتَبَرُ تَجَاوُزًا لِحَالِهِ الشَّحِّ، وَ اقْتِحَامًا لِعَقْبِهِ حُبِّ الدَّاتِ.

(١٥) وَ الْإِطْعَامُ قَدْ يَكُونُ بِهَدَفِ الْحَصُولِ عَلَى مَكْسَبِ مَادِيٍّ أَوْ رِيَاءٍ وَ سَمْعِهِ، وَ يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ عَادَةً عِنْدَ انْتِخَابِ مَوْضِعِهِ، فَمَنْ النَّاسُ مِنْ لَا يُعْطَى الْفَقِيرَ دَرَاهِمًا وَ لَكِنَّهُ يَنْفِقُ عَلَى الْمَوَائِدِ الْبَاذِخَةِ أَلُوفَ الدَّنَانِيرِ. مِنْ هُنَا حُدِّدَ اللَّهُ كُلَّ الْإِنْفَاقِ وَ قَالَ:

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ فَأُولَى النَّاسِ بِالْإِهْتِمَامِ بِالْأَيْتَامِ أَقْرَبَاؤُهُمْ، وَ الْيَتِيمِ، حَلَقَهُ ضَعِيفُهُ فِي الْمَجْتَمَعِ،

ص: ١٢٢

لضعفه وقله احترام الناس له، و لذلك تتوالى النصوص القرآنيه التي تشجع على الاهتمام به.

(١٦) و المورد الضرورى الاخر للإِنفاق هو المسكين القريب.

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ الَّذِي أُصِغَتْهُ الْفَقْرُ بِالْتَرَابِ.

(١٧) و يبدو ان فك الرقبه و الإطعام مثلان لاقتحام العقبه، و أن الكلمه تشمل كل اقتحام لعقبه الهوى، و مجاهده لتيار الشهوات، و إن أعظم ما ابتلى به الإنسان عقبه التسليم للحق و لمن يمثله من البشر كالرسول و خلفائه عبر العصور، فمن والى الرسول و أئمه الهدى من خلفائه فقد اقتحمها، و إلا هوى فى النار، لذلك عبر القرآن عن هذه الطاعه بكلمه «ثم» و قال:

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فِإِنِ الْمَسَافَهُ بَيْنَ فَكِّ رَقَبَةٍ وَ الْإِطْعَامِ، وَ بَيْنَ الْإِيمَانِ التَّامِ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ مَسَافَهُ شَاسِعَهُ، وَ أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَزَالُ يَعْمَلُ الْخَيْرَاتِ وَ يَقَاوِمُ شَهْوَاتِ نَفْسِهِ حَتَّى يَعْجُرَ إِلَى مَسْتَوَى التَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَ الْإِيمَانِ بِرِسَالَاتِهِ، وَ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ وَ خُلَفَائِهِ الْمَعْصُومِينَ.

و الصبر من الإيمان بمنزله الرأس من الجسد، و أعظم منه التواصى به، فإنه قمه التسليم للحق و الرضا بالمكراهه التي فى طريقه، و أعظم من الصبر الرحمه، فقد تعبر على أذى الناس و أنت تدعوهم الى الخير و لكن يمتلأ قلبك بغضا لهم، بينما المؤمن حقاً هو الذى يرحم الناس جميعا و حتى أعدائه تسعهم رحمته، و أعظم من كل ذلك التواصى

بالمرحمه. و اشاعه ثقافه الصبر و الرحمه فى المجتمع.

وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٨) هؤلاء هم أصحاب الجنه الذين يحظون بالعاقبه الحسنی.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَ هَكَذَا جَعَلَ اللَّهُ شَرْطًا لِدُخُولِ الْجَنَّةِ يَتِمُّثَلُ فِي اقْتِحَامِ الْعَقْبَةِ، وَ مَنْ لَمْ يَحَقِّقْ هَذَا الشَّرْطَ الْأَسَاسِي فَإِنَّ أَمَانِيهِ فِي الْجَنَّةِ تَذْهَبُ عَيْثًا، وَ

قد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «هيهات لا يخدع الله عن جنته.» و

جاء فى حديث مأثور: «حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَ حَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ.» (١٩) أما الكفار الذى سقطوا فى فخ الهوى، و لم يتساموا الى مستوى التحدى فإنهم يتهاونون فى النار و ساءت مصيرا.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَ لَا يَقْبَلُ إِتْفَاقُهُمْ؛ لِأَنَّ الْإِيْمَانَ شَرْطٌ مُسَبِّقٌ لِقَبُولِ أَى عَمَلٍ صَالِحٍ، وَ الْعَرَبُ كَانَتْ تَتَشَاءَمُ مِنَ الشَّمَالِ وَ لِذَلِكَ سَمَّيْتُهَا الْمَشْأَمَةَ.

(٢٠) و كما سجنوا أنفسهم فى زنانه الذات، و صدوها عن رحاب الحق الواسعه، فإنهم يعذبون بنار مطبقه عليهم، مغلقه دونهم.

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ السُّوْأَى.

سوره الشمس

اشاره

ص: ۱۲۵

فضل السوره

عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال: «من أكثر قراءه «و الشمس...» في يوم أو ليله لم يبق شيء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة، حتى شعره و بشره و لحمه و دمه و عروقه و عصبه و عظامه، و جميع ما أقلت الأرض منه، و يقول الرب تبارك و تعالى: قبلت شهادتكم لعبدى و أجزتها له، انطلقوا به الى جنّاتي حتى يتخيّر منها حيث ما أحبّ، فأعطوه من غير منّ و لكن رحمه منى و فضلا عليه، و هنيئا لعبدى».

تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٥٨٥

ص: ١٢٧

عبر خمسة عشر آيه، و ثلاثة مقاطع تبصرنا سوره الشمس بأنفسنا، و كيف نحقق لها الفلاح و نمنع عنها الخييه.

محور السوره- فيما يبدو- الآيتان (٧-٨) حيث توحيان بالبصيره النافذه. إن بلوغ قمه الكمال عند النفس لا- يتم إلا بالتزكيه، بينما الفشل ينتظر من يدس نفسه فى و حل الجاهليه و ركامها.

و قبل بيان هذه البصيره تحملنا الآيات الأولى إلى آفاق السماء و الأرض، و ظواهر الليل و النهار لكى نجعل من العالم المحيط مدرسه لنا و محرابا.

و بعد بيانها تضرب الآيات الأخيره مثلا عليها بواقع ثمود، الذين حملهم طغيانهم الى تكذيب رسول الله و عقر الناقه التى كانت لهم آيه مبصره.

و السوره عموما تعمق حس المسؤوليه فى نفس الإنسان، و من عجب القول ان بعض المفسرين المتأثرين بالفلسفه اليونانيه زعموا أن السوره تدل على الجبر، و هكذا

حَمَلُوا رَبَّهُمْ سَبْحَانَهُ مَسْئُولِيهِ ضَلَالِهِمْ وَفَجُورِ كُلِّ قَوْمٍ ضَالٍّ. كَلَّا. إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ سَوَّيْتِ نَفْسَهُ، وَأَلْهَمْتَ الْفَجُورَ وَالتَّقْوَى، وَأَمَرَ
بِالتَّزْكِيَةِ، فَمَنْ قَامَ بِهَا أَفْلَحَ، وَمَنْ دَسَّ نَفْسَهُ خَابَ وَخَسِرَ أَهْدَافَهُ.

ص: ١٢٩

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاها (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاها (٤) وَالسَّمَاءِ وَ
مَا بَنَّاها (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاها (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاها (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

اللغه

٦ طَحَّاها: أصل الطحو البسط الواسع، يقال: طحا بك همك، يطحو بك طحوا: إذا انبسط بك الى مذهب بعيد، يقال:

طحا القوم بعضهم بعضا إذا تدافعوا دفعا فانبسطوا، و الطواحي: النُسور تنبسط حول القتلى، و هي في هذه الحاله فقط تسمى
طواحي.

بينات من الآيات:

(١) هل للطبيعة لسان ينطق؟ بلى. يلهج بحمد ربها، و لكن ليس لكل الناس أذن تتلقى. ان إشاراتنا خفيه فمن التقطها كانت له الكائنات مدرسه مسجدا و طهورا، و لعل من غايات القسم فى القرآن تعليمنا لغه الكائنات. أو تدرى بأيه صورته؟ إن لنفس البشر شفافية تغطى عليها الرغبات الملحه و الهموم الطاغيه، فالنفس شاعره تحب الجمال، و تعشق النور، و تنجذب الى روعه النظام، و دقه التناغم، و لكن الذين يشتغلون أبدا بلذات البطن و ما دونه، و تلعب بعقولهم خمرة التفاخر و التكاثر أنى لهم الاستماع الى همسات روحهم، و الاهتمام بلذات عقلهم من هنا يحتاجون الى من يذكرهم بها، و يستثير فى نفوسهم الإحساس بجمال الطبيعة و روعتها و تناسقها و نظمها الدقيق، يجعلهم ينظرون الى الشمس و ضحاها ببراءه الطفل، و احساس الشاعر، و شفافية الواله العاشق، كلما أشرق الشمس على البسيطة و نشرت ضحاها فوق الروابى و السهول، و بثت أشعتها عبر النوافذ و المداخل، استلهموا منها درسا جديدا بل روحا جديده. و زخه عاطفيه.

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا قَسَمَا بِهَا.. أنظر إليها و كأنك لم تعرفها من قبل ما هذه الكتلة العظيمه من النيران، التي لا تزال تحترق منذ ملايين السنين و لا- زالت في كهولتها؛ لأن احتراقها يتم بالتفاعل النووي، و نحن لا-زلنا على الأرض نتمتع بدفئتها وضوئها و فوائدها، و ننتظر نتائج القمر الصناعي الذي بعثناه أخيرا إلى مدارها، و سيصل بإذن الله هناك بعد حوالي ثلاث سنوات، و ربما زودنا بالمزيد من المعلومات عنها، و لكن دعنا - و نحن ننتظر ذلك- نتدبر في ضحوه الشمس و هي كما قيل ضد الظل أى أشعتها المنبسطة على الأرض، و تتجلى عند ارتفاع الشمس و قال بعضهم: ضحى الشمس هي النهار كله، و يبدو أن القول الاول أظهر و هو أن الضحى من الضح و هو نور الشمس.

(٢) للشمس جمالها الناطق و روعتها الصارخه، أما القمر فجماله صامت و روعته هادئه، لذلك اختاره الشعراء لسهراتهم، و العشاق لنجواتهم، و أهل الطاعه لسبحاتهم. ما هذا الفيض المتدفق من النور الهادئ؟ يسبح فى الفضاء و ينتعش به جمال الطبيعه، و يهتدى به السرى! وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا أَي يلى الشمس، و من أوتى حسًا رهيفا سمع سبحات الشمس و القمر و نورهما فاهتدى الى ربهما العزيز.

(٣) قسما بضحوه الشمس و نور القمر. قسما بالنهار الذى يحيط الأرض بضياؤه و دفئه و حيويته.

وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا

ص: ١٣٣

يبدو أنّ الضمير يعود هنا الى الأرض و إن لم تذكر كقوله سبحانه عن الشمس:

«حتى توارت بالحجاب» و لم تذكر الشمس في السياق.

و قيل: جلى الظلمه و ان لم يجر لها ذكر كما نقول أضحت بارده نريد أضحت الغداه بارده أو الليله بارده، و أنى كان فإن التدبر في النهار و نوره و جماله يزيد الإنسان بصيره و هدى.

(٤) بعد نهار طويل مجهد يغشى الأرض ظلام الليل و هدوئه، فيستريح على كفه الناس و الأحياء و النبات، و من يتدبر في النهار و ضيائه و نشاطه و حركته يصعب عليه كيف يغشى الأرض بعد ساعات الليل بسباته و دجاء و سكونه و سكوته. دع فكرك يقارن بينها و ينطلق في آفاق المعرفة.

وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَ الضَّمِيرِ هُنَا كَمَا الضَّمِيرِ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ يَعُودُ إِلَى الْأَرْضِ، وَ جَاءَ فِي بَعْضِ النُّصُوصِ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي الْجَوَانِبِ الْمَعْنَوِيَّةِ مِنْ حَيَاةِ الْمَجْتَمَعِ، وَ أَنَّ الشَّمْسَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله- بَيْنَمَا الْقَمَرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَمَّا النَّهَارُ فَأَتَمَّهُ الْهُدَى، بَيْنَمَا اللَّيْلُ أَتَمَّهُ الضَّلَالُ (١).

(٥) عند ما يستجلى المتدبر في ظواهر الطبيعه آيات الله فيها يعي الإنسان عظمه السماء و بنائها المتين، و الأرض و إعدادها لراحة البشر، فيذكره الله سبحانه بهما قائلاً:

وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا أَيُّ تَدْبِيرٍ عَظِيمٍ، وَ آيَةٌ حَكْمِهِ بِالْغَيْهِ، وَ آيَةٌ قُوَّةٍ وَاسِعَةٍ، وَ أَيُّ عِلْمٍ مَحِيطٍ وَرَاءَ بِنَاءِ

ص: ١٣٤

١-١) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٨٥.

السماء و ما فيها من أجرام سماويه مسخره فى أفلاكها.لا يكاد حتى الخيال العلمى الخصب ملاحقه أبعادها و آفاقها و مبتدئها و منتهاها.

(٦) أنظر إلى الأرض التى تعتبر بالقياس الى سائر أجرام السماء كسمكه صغيره على شاطئ المحيط إذا قستها الى الحيتان الكبار التى تجوب البحار الواسعه، أو كأصغر حرف من أصغر كلمه فى كتاب متواضع بالنسبه الى مكتبه تضم ملايين الأسفار، فإذا نظرت إلى الأرض و بحارها و سهولها و جبالها و أنواع الخلق فيها-مما لا يحصيها العلم-كلّ نظرك و نصب مخك، و قلت: سبحان الله! ما أعظم تلك القوه التى دحت الأرض و هيأتها للحياه بعشرات الملايين من وسائل الحياه و الراحة و أسبابها.

وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَّهَا قَالُوا: الدحو و الطحو واحد، و معناهما البسط، و قال الماوردى: و يحتمل أنه ما خرج منها من نبات و عيون و كنوز لأنه حياه لما خلق عليها، و يبدو أن أصل الطحو هو تهيئه الشئ و تمهيده و الله العالم.

(٧) لماذا خلقت السماء و الأرض، و أحكمنا البناء أ و ليس للإنسان؟! تعالوا و فكروا فى هذا العالم الكبير: إنه آيه على ما خلقهم الله فى الأرض من احياء و أشياء.

وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فى أعماق هذه النفس آيات لا يتسنى لغير صاحبها بلوغ أغوارها، كذلك فى أعماق سائر النفوس و سائر الحقائق. انك ترى الشمس من ظاهرها، تلامس جدرانها الخارجيه فهل تعرف ما يجرى هناك فى داخلها، كذلك القمر و النهار

و الليل، بينما نفسك أقرب الكائنات إليك لا تقدر على اكتشاف جانب من اغوارها الذاتية، فتفكر أى خلق عظيم هذه النفس التي هيئها الله سبحانه، و نظم أمرها، بأحسن تنظيم.

(٨) و أعظم ما فى النفس العقل الذى هداها الله به إلى خيرها و شرها، تقواها و فجورها، ما يصلح لها و عليها ان تأتي به، و ما يفسدها و عليها أن تتركه.

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ وَ معرفه الفجور قدمت على معرفه التقوى إذ أن النفس تعرف أولاً أسباب الهلاك، ثم تعرف كيف تتجنبها بوسائل الصلاح.

علما بأن أكثر الواجبات هى سبل للتخلص من المفسد.

جاء فى الحديث المأثور عن النبى -صلى الله عليه و اله- أنه كان إذا قرأ هذه الايه: فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا رفع صوته بها و قال: «اللهم آت نفسى تقواها.

أنت وليها و مولاها، و أنت خير من زكاها» (١).

و

جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق -عليه السلام- أنه قال: فى تفسيرها: «بين لها ما تأتي و ما تترك» (٢).

(٩) عظيمه جداً نعمه العقل الذى هو مرآه للطبيعه، تعكس ما فيها من خير و شر، و حسن و قبح، و جمال و دمامه، و أعظم منها المشيئه التى بها يتم انتخاب الإنسان لواحد منهما، و يبلغ بها البشر أرفع درجات الكمال المتمثله فى الفلاح، أ و ليس الفلاح بلوغ المنى، و تحقيق أبعد الأهداف و الغايات!؟

ص: ١٣٦

١- (١) القرطبى ج ٢٠ ص ٧٦، و فى تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٨٦ مثله بتغيير قليل.

٢- (٢) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٨٦.

بلى. و لكن كيف يبلغ الإنسان ذلك؟ بتزكيه النفس و تطهيرها من حوافز الشر، و رواسب الشرك، و وساوس الشيطان.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ^{□□} قالوا: الزكاه بمعنى النمو و الزياده، و منه زكاه الزرع إذا كثر ريعه، و منه تزكيه القاضى للشاهد لأنه يرفعه بالتعديل.

و يبدو لى ان أصل معنى الزكاه التطهير، و بما أن الشىء الطاهر ينمو بينما لا يكون الخبيث إلا نكدا تلازم معنى الزكاه و التطهير.

و قال بعضهم إن أجواد العرب كانوا ينزلون الربا و المرتفعات ليسهل على أصحاب الحاجه الوصول إليهم، بينما اللثام كانوا يختارون الأطراف و المنخفضات هربا من الفقراء و طالبى المعروف، فأولئك علوا أنفسهم و زكوها، و هؤلاء أخفوا أنفسهم و دسوها.

(١٠) كما أن من زكى نفسه و طهرها من أدرانها و أنقذها من قيودها و أغلالها ينطلق فى معارج الكمال، و يبلغ الفلاح، فإن من دس نفسه فى أوحال الجهل، و سلاسل العبوديه، للمال و الجاه، فإنه يخيب و لا يبلغ أيأ من أهداف وجوده.

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ^{□□} و أصل الدس من التدريس، و كما قالوا: هو إخفاء الشىء فى الشىء، فأبدلت سينه ياء، كما يقال: قَصَّيْتِ أظفارى، و أصلها قصصت اظفارى، و قد استخدمت الكلمه فى الإغواء كما قال الشاعر:

و أنت الذى دسست عمرا فأصبحت جلائله منه أرامل ضيعا

و السؤال: ما هي علاقة الدس و هو الإخفاء بالخيبه؟ إنهما تعبيران متناسقان، ذلك أن الخيبه التي هي خساره غير متوقعه، و فشل غير محتمل تأتي نتيجة الإحجام و الانطواء و الانغلاق، و النفس مثل كتله عظيمه من الأحجار الكريمه أخفيت تحت ركام من الرمل و الحجر، ماذا تنفع هذه الكتله لو زدناها ركاما فوق ركامها، إنما تنفع إذا استخرجناها، و نظفناها، و أبعدها عنها الأجسام الغريبه، كذلك أنت كتله هائله من المواهب و الفرص، بإمكانك أن تستغل كل لحظه من حياتك في العروج بنفسك درجه من الكمال، و لكن إذا استسلمت للضغوط، و اشتغلت بالتوافه، و تعللت بالتبريرات و الاعذار فإن عمرك يذهب عبثا. و تخب ظنونك.

(١١) و الدس لا- يأتي من فراغ بل ضمن سلسله من العلل، تبدء بالطغيان الذى هو صفه ملازمه للإنسان، أو ليس الطغيان نتيجة الكبر الذاتى. و الكبر يلازم الجهل، و الفرح بما تملكه النفس دون النظر إلى ما لا- تملكه؟ و من الطغيان يأتي التكذيب بآيات الله، و الانغلاق دون الإنذار و من التكذيب ينتج الحرمان، أ رأيت لو دعاك صاحبك الى مائده فى يوم مجاعه فكذبتة كيف تحرم نفسك! كذلك الرسل دعونا الى رحمه الله فكذبهم قوم فخابوا مثل ثمود الذين دعاهم طغيانهم الى تكذيب آيات الله.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا قَالُوا: أَيُّ بَطْغْيَانِهَا فَيَكُونُ الطَّغْيَانُ سَبَبَ التَّكْذِيبِ. و به

جاءت الروايه المأثوره عن الامام الباقر-عليه السلام-قال: فى تفسير الايه: و الطغيان حملها على التكذيب (١).

و قال بعضهم: بل الطغوى هو العذاب الطاغى الذى كذبوا به، و الأول أظهر.

ص: ١٣٨

(١-١) المصدر.

(١٢) والتكذيب كان صفه عامه لثمود و لكنه تركز في شخص واحد هو الذي عقر ناقه صالح من بعد أن طلبوها آيه لهم.

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۖ وَ هَكَذَا يَقُومُ شَخْصٌ أَوْ اشْخَاصٌ مَعْدُدُونَ بِالْجَرِيمَةِ، وَ لَكِنِ الْآخِرِينَ يَرْضُونَ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَقُومُونَ بِهَا إِلَّا ضَمِنَ سِيَاقُ اجْتِمَاعِي يَسَاعِدُهُمْ عَلَيْهَا: سَكُوتُ أَهْلِ الصَّلَاحِ، وَ مَجَاهِرَةُ الْمَكْذِبِينَ، وَ صِلَافَةُ الْمَجْرِمِينَ. مِنْ هُنَا

روى عن الامام على -عليه السلام- أنه قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرَّضَىٰ وَ السَّيْخُطُ، وَ إِنَّمَا عَقَرَ نَاقَهُ ثَمُودٌ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَعَمَّهِمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَا، فَقَالَ سَبْحَانَهُ: فَعَقَّرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۖ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتِ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفِ خَوَارِ السَّكَّةِ الْمَحْمَاهِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارِ» (١).

و معنى انبعث: نهض، و إنما سمى عاقر الناقه أشقى ثمود لأنه قام بما لم يجزأ عليه غيره منهم، و

جاء في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- أنه قال له النبي -صلى الله عليه و اله-: «أ تدرى من أشقى الأولين؟ قلت الله و رسوله أعلم؟ قال: عاقر الناقه، قال: أ تدرى من أشقى الآخرين قلت: الله و رسوله أعلم: قال: قاتلك» (٢).

و

روى عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا و على بن أبى طالب فى غزوه العسره نائمين فى صور من النخل و دقعاء من التراب فوالله ما أهبتنا إلا رسول الله يحركنا برجله، و قد تربنا من تلك الدقعاء، فقال: «ألا أحدثكما بأشقى الناس من

ص: ١٣٩

١- (١) نهج البلاغه خ ٢٠١ ص ٣١٩.

٢- (٢) القرطبي ج ٢٠ ص ٧٨.

رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، و الذى يضربك يا على على هذه- و وضع يده على قرنه- حتى يبل منها هذه و أخذ بلحيته» (١).

(١٣) حينما يكون الذنب تحدياً لسلطان الرب يحل بصاحبه العذاب العاجل، كما كان عند ثمود، إذ أنهم هم الذين طالبوا نبيهم صالحاً بآيه مبصره، و اقترحوا عليه أن تكون ناقه تخرج من الجبل، و تعهدوا بتصديقه عندئذ، و التسليم لأمره، و لكنهم كذبوه و عقروا الناقة بعد ان حذرهم نبيهم من مغبه ذلك طغيانا و عتوا، فنزل العذاب بساحتهم.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا قَالُوا: مَعْنَاهُ احْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ، كَمَا يَقَالُ: الْأَسَدُ الْأَسَدُ: أَي احْذَرَهُ، وَ الصَّبَى الصَّبَى: أَي احْفَظْهُ مِنْ الْوَقُوعِ فِي الْبُئْرِ، وَ نَسَبَتِ النَّاقَةَ إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا بِاعْتِبَارِهَا آيَةً مَبْصُرَةً، وَ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ فِيهَا، أَمَا كَلِمَةُ «سُقْيَاهَا» فَتَعْنَى ذَرُوهَا تَشْرَبُ، وَ كَانَ لَهَا شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ، وَ لَهُمْ مِثْلُهُ.

(١٤) و لكنهم كذبوا رسول الله، و عقروا الناقة، و تحدوا أمر ربهم و إنذاره، فأطبق عليه العذاب، و لم يبق من قراهم شيئاً.

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَقَال دَمَدَمَ عَلَى الشَّيْءِ إِذَا طَبَقَ عَلَيْهِ، وَ دَمَدَمَتْ عَلَى الْمَيْتِ التَّرَابُ أَي سَوَّيَتْ عَلَيْهِ، وَ يَبْدُو أَنَّ الدَّمْدَمَةَ هِيَ الْإِطْبَاقُ بِتَدْرِيجٍ، أَي بِتَكَرُّرِ مَرَّةٍ بَعْدَ أُخْرَى.

ص: ١٤٠

بَذَنِيهِمْ فَلَمْ يَفْعَلْ بِهِمْ ظُلْمًا. حَاشَاهُ، وَانْمَا جِزَاءٌ لِأَفْعَالِهِمْ، وَكُلٌّ مِنْ يَذْنِبُ يَهِيءُ نَفْسَهُ لِمِثْلِ تِلْكَ الدَّمْدَمَةِ.

فَسَوَّاهَا كَمَا يَسْوَى الْقَبْرَ بَعْدَ أَنْ يَهَالَ التَّرَابُ عَلَيْهِ طَبَقًا بَعْدَ طَبَقٍ.

(١٥) وَهَلْ سَأَلَ اللَّهُ أَحَدًا فِي أَوْلَئِكَ الْهَلْكَى لِمَاذَا أَهْلَكْتَهُمْ؟! كَلَّا..

وَلَا يَخَافُ عُقُوبَاتَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى كَيْفَ يَخَافُ عَقْبَى دَمْدَمِهِ وَهُوَ جَبَّارُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟! وَهَكَذَا لَمْ تَنْفَعَهُمُ الشُّرَكَاءُ وَالْأَنْدَادُ، وَلَمْ تَنْقُذْهُمْ الْأَعْذَارُ وَالتَّبْرِيرَاتُ. أَفَلَا نَرْتَدِعُ بِمَصِيرِهِمْ، كَذَلِكَ كَانَتْ عَاقِبَةُ قَوْمِ دَسَّوْا أَنْفُسَهُمْ فَخَابُوا أَشَدَّ الْخَيْبَةِ، وَكَذَلِكَ تَكُونُ عَاقِبَةُ كُلِّ مَنْ ضَيَّعَ نَفْسَهُ وَدَسَّهَا، إِنَّهَا الْخَيْبَةُ وَالنَّدَمُ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُمَا.

ص: ١٤١

سوره اللیل

اشاره

ص: ۱۴۳

فضل السوره

عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال «من أكثر قراءه...والليل إذا يغشى...فى يوم أو ليلة لم يبق شىء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة،حتى شعره و بشره و لحمه و دمه و عروقه و عصبه و عظامه،و جميع ما أقلت الأرض منه، و يقول الرب تبارك و تعالى:قبلت شهادتكم لعبدى و أجزتها له انطلقوا به الى جنّاتى حتى يتخيّر منها حيث ما أحبّ،فأعطوه من غير منّ و لكن رحمه منى و فضلا عليه،و هنيئا لعبدى.».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٨٥

ص:١٤٥

ليس الذكر و الأئثى سواء، و لا الليل و النهار، كذلك فعل الخيرات و ارتكاب المآثم ليسا بسواء. أو يحصد الشعير من زرع القمح، و هل يحصد من زرع الريح سوى العاصفه؟! النفس البشريه تهوى الخلط بين الحقّ و الباطل لتتهرب من المسؤوليه و لكن هيهات، و تتواصل آيات الذكر و سوره للفصل الحاسم بينهما، و يبدو أن محور هذه السوره التذكره بهذه البصيره، و أن من أعطى و اتقى و صدق بالحسنى فإن الله يوفقه للحياه اليسرى، بينما الذى كذب بالحسنى فيدفعه الله للحياه العسرى.

و نتائج التكذيب تمتد من الدنيا حتى الاخره، حيث النار الملتهبه تنتظر المكذبين، أما الذين يتقون ربهم، و يؤتون أموالهم سعيا وراء التركيه فإن عاقبتهم الحسنى، و لأنهم ابتغوا رضوان ربهم فان الله يعطيهم من النعم حتى يبلغون الرضا.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (٤) فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَدَّلَ وَإِسْتَتَنَّي (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسِيسِرُهُ
لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا
يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسُجِنَتْهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ
تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

بينات من الآيات:

(١) لا يحس الأعمى باختلاف الألوان و الأبعاد، و لا يشعر من عطب ذوقه أو شمّه بتفاوت الاطعمه و الروائح، كذلك الجاهل لا يعرف اختلاف الأشياء، و كلما ازداد الإنسان علما ازداد معرفه بحدود الأشياء و اختلافها، و ميزات كل واحد على الآخر، مثلا: الخبير بالاقمشه يميز بين نوع و آخر، أما الجاهل فلا يشعر لماذا تتفاوت قيمه أنواعها. أ ليس كذلك؟ الحق و الباطل هما صبغتا الطبيعه، لا يفرق بينهما إلا العالمون، و ليست المشكله فى هذه القضية عقليه فقط إذ الهوى أيضا يخالف التمييز بين الحق و الباطل، فهى إذا مشكله نفسه أيضا، و آيات القرآن ترى فى تحذير الإنسان من خلط الأمور، فكما أن الليل غير النهار، و الذكر غير الأنثى، كذلك يختلف سعى الخير عن سعى الشر.

وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ أَي يَغْطِي الطَّبِيعَةَ بِظِلَامِهِ وَ هَدْوَتِهِ.

(٢) قسماً بالليل إذ يحيط بالأشياء، و بالنهار إذ يتجلى بنوره و نشاطه و دفته.

وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٣) منذ نعومه أظفارها تحب الطفلة اللعب بتمائيل تزعم أنها أولادها، و منذ نعومه أظفاره يحب الطفل ما يزعم أنه سلاحه، ما الذى فرق بين مشاعرهما؟ و تنمو الطفلة و تتميز عن الطفل أكثر فأكثر بيولوجيا و سيكولوجيا، و كما يتميز الجنسان عند البشر كذلك فى سائر الأحياء و النباتات، فسبحان الذى خلق الزوجين، يتكامل أحدهما بالآخر! وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ (٤) و كما اختلف الذكر عن الأنثى، و الليل عن النهار، كذلك يختلف سعى الإنسان.

لو نظرت إلى خليه هل تستطيع أن تتنبأ بأنها سوف تفتق عن مولود ذكر أم أنثى؟ كلا.. و لكن الله يقدر لها ذلك حسبما يرى من حكمه بالغه، كذلك حين تنظر الى فعله يرتكبها شخص قد لا تعرف أنها ستكون وسيله لانشاء حضاره أو تدمير حضاره و لكن الله يعلم ذلك و يهدينا اليه بفضلله. هناك إنفاق فى سبيل الله ينمى المال، و يزكى القلب، و ينشط الدوره المالىه فى المجتمع، و هناك إنفاق يماثله فى الظاهر، و يناقضه فى المحتوى، يوقف مسيره التكامل فى المجتمع.

هناك قتال فى سبيل الله يكون بمثابة عمليه جراحيه ناجحه، و آخر يكون فى

سبيل الطاغوت، يهدم المجتمع، ويبعد الحضاره، والناس لا يرون إلا ظاهر القتال دون ان يعرفوا هدفه و وجهته و نفعه و ضره..و لكن الله يهدينا الى ان هذا سعى حسن و أن ذاك سعى هدام.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٥﴾ كل ابن أنثى يكدح في حياته، و يسعى، و يصارع الأقدار، و لكن الذى يعطى ماله فى سبيل الله، و يتقى الحرام هو الذى ينتفع بعطائه.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَ اتَّقَىٰ ﴿٦﴾ انه يختلف عمن يعطى و يمن أو يعطى مما سرقه من الناس، أو يختار أفسد ما عنده للعطاء، أو يضعه فى غير محلّه للمدّاحين و المتملقين من حوله، أو يهدف من عطائه رياء و سمعه و سيطره على المستضعفين؛ فان عمله لا يتقبل منه لان الله يقول: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ بل يكون وبالا عليه يوم القيامة، و ضيقا و حرجا فى الدنيا.

(٦) ما الذى يجعل سعى الإنسان و عطائه زكيا نقيًا مرضيًا؟ إيمانه بالله، و تصديقه برسالاته و رسله.

وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٧﴾ لان الايمان بالله يحدد وجهه الإنسان، فليس سواء من يسعى الى المسجد و من يسعى الى الملهى! ثم هناك من يريد المسجد و لا- يعرف السبيل اليه، فمن يحدد لنا سبل السلام، و يضعنا على المحججه البيضاء حتى نصل الى حيث الخيرات؟ الرسل. فمن كذب بهم ضل السبيل، و كان كمن يريد مكه و لكنه

يضل طريقه فيصل الى اليمن.

و سميت الرساله بالحسنى لأنها تهدينا إلى أحسن السبل لأحسن الاهداف.

و

قد جاء في الحديث المأثور عن رسول الله-صلى الله عليه و اله-قال:

«ما من يوم غربت شمس إلا بعث بجنبتها ملكان يناديان، يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا، و أعط ممسكا تلفا» (١). و قد استوعب الكثير من أصحاب رسول الله هذا الدرس فتراهم يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة، و ينفقون أموالهم بلا حساب ابتغاء وجه ربهم. هكذا أدبهم رسول الله-صلى الله عليه و اله-حتى تساموا على شح أنفسهم،

جاء في روايه مأثوره عن الامام الباقر-عليه السلام-:قال: «مرّ رسول الله برجل يغرس غرسا في حائط فوقف له و قال: ألا أدلك على غرس أثبت أصلا و أسرع إيناعا و أطيب ثمرا و أبقى؟ قال: بلى. دلّنى يا رسول الله؟ فقال: إذا أصبحت و أمسيت فقل:

سبحان الله، و الحمد لله، و لا إله إلا الله، و الله أكبر؛ فإن لك أن قلته بكل تسبيحه عشر شجرات في الجنة من أنواع الفاكهه، و هو من الباقيات الصالحات قال: فقال الرجل: فانى أشهدك يا رسول الله! إن حائطى هذا صدقه مقبوضه على فقراء المسلمين أهل الصدقه» (٢).

(٧) حينما تكون النيه صالحه، و القلب زكيا، فإن سبل الخير تحمل أصحابها إلى حيث السعاده و الفلاح.

فَسَيُسِّرُهُ لِلْيُسْرَى □ أى الحياه اليسرى، و العاقبه الحسنى، و السؤال: كيف؟ الالكترون الصغير

ص: ١٥١

١-١) القرطبي ج ٢٠ ص ٨٣.

٢-٢) نور الثقلين ج ٢ ص ٥٩١.

المتناهي في الصغر داخل عالم (الذره) يسير في سبيله المحدد له، وهكذا المجره المتناهيه في الكبر تسبح في أفلاكها المحدده، وكذلك ما بينهما لكل شيء سبيله، فإذا عرفت سبل الأشياء، واستطعت ان تضبط حياتك عليها فإنك تسير لاهدافك، وإلا فسوف تصطدم مع سبل الحياه و سنن الله فيها، ولا تبلغ المنى.

(٨-٩) الحياه منظمه بأدق مما نتصور، وأدق مما يعرفه كبار العلماء، حتى قال أحدهم و قد بهرته عظمه تنظيم العالم: العالم كتب بلغه رياضيه. ان الجزء الواحد من مليون جزء من الثانيه محسوب عند الله، و ان المثقال من ذره خفيفه موزون عند الله، و ان اللمحه و الخطفه و النيه محسوبه عند الله، و لكن بعض الناس يزعمون بجهلهم أنهم في غابه تسودها الفوضى، فيكذبون بالحق، و يبخلون، و يستكبرون في الأرض، و نهايتهم العسرى.

وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى* وَ كَذَّبَ بِالْحُسَيْنِ فَمَنْ يَنْفِقْ، وَ تَشَبَّثَ بِمَا يَمْلِكُ، وَ زَعَمَ أَنَّ الْمَالَ يَخْلُدُهُ، وَ يَنْقُذُهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَ اضْأَفَهُ عَلَى ذَلِكَ كَذِبَ بِرِسَالِهِ رَبِّهِ.

(١٠) انه يجد طريقا سهلا الى المهالك، كمن يسقط من عل لا يحتاج الى وعى و إرادته و عزم و اختيار. أ رأيت الذى يقود سياره سريعه فى طريق جبلى لو غفل عن المقود هل يحتاج الى عزم إرادته لكى يرتطم بالصخور، أو تهوى به فى الوادى؟ انه يتيسر لمصيره.

فَسْتَيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى كَمَا قَالَ رَبَّنَا سَبْحَانَهُ: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (١).

ص: ١٥٢

(١١) من ضيق نفس البشر و محدوديه أفته أنه يفرح بما أوتى حتى يستغنى به عما لا يملك و يتملكه الغرور به، و الاستغناء و الغرور يدفعانه إلى الطغيان، كما يقول ربنا سبحانه: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى (١).

و من فرط غرور المرء بماله يزعم أن ماله يصنع له المعجزات، و انه يمنع عنه كل سوء، و لكن هيهات.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى أى سقط فى الهاويه بفعل ذنوبه! و قيل: معناه إذا مات.

و

قد جاء فى حديث مأثور عن الامام الرضا-عليه السلام- فى تفسير هذه الايه: انها نزلت فى أبى الدحداح، قال: ان رجلا من الأنصار كان لرجل فى حائطه نخله، فكان يضرب به، فشكا ذلك إلى رسول الله فدعاه، فقال: أعطنى نخلتك بنخله فى الجنة، فأبى، فسمع ذلك رجل من الأنصار يكتى أبى الدحداح، فجاء الى صاحب النخله فقال: بعنى نخلتك بحائطى، فباعه فجاء إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله! قد اشتريت نخله فلان بحائطى، فقال رسول الله-صلى الله عليه و اله- تلك بدلها نخله فى الجنة، فأنزل الله تعالى على نبيه: وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ... الآيات (٢) (١٢) من المسؤل عن عملك أنت أم ربك؟ كل منا يجيب بفطرته و بلا تردد أنه هو الذى اختار نوع عمله، فهو إذا مسؤل عنه، و مجزى به؛ إنما يوفر الله سبحانه له فرص الهدايه كامله، فمن اهتدى فلنفسه و من ضل فعليها، و هكذا أتم السياق بيان مسؤلوه الإنسان عن أفعاله، و أن سعيه شتى، فمن اختار العطاء

ص: ١٥٣

١-١ (١) العلق ٦.

٢-٢ (٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٨٩.

و التصديق يسره الله للحسنى، و من اختار البخل و التكذيب يسره الله للعسرى.

أقول: أكمل هذه البصيره ببيان: أن الهدى عليه، و السعى علينا، و لذلك فالإنسان هو الذى يتحمل مسئوليه سعيه.

إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَىٰ وَقَالَ سُبْحَانَهُ: وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَقَالَ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْتَظِرَ هُدَى اللَّهِ وَبَيَانَهُ. فَإِذَا هَدَاهُ بَادِرٌ بِاتِّبَاعِ هَدَاهُ وَتَنْفِيزِ بَيَانِهِ.

(١٣) و إن الرب الجبار هو المسيطر على شؤون الاخره و الدنيا، فإذا اتبع أحد هداه فبتوقيقه و تيسيره، و إذا ضلّ و عصى ففي اطار قدرته، فلا يعصى الله عن غلبه أو ضعف، و لا يتهرب العصاه عن حدود مملكته.

وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ إِنْ الْعَصَاهُ يَتَّكِلُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَيَزْعَمُونَ أَنْ هَامِشَ الْاِخْتِيَارِ وَالْاِمْتِلَاكِ الَّذِي أُوتُوا يُوفِّرُ لَهُمْ إِمْكَانِيهِ تَحْدَىٰ مَالِكُهُمْ وَمَلِيكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، فَاللَّهُ هُوَ مَالِكُ الدُّنْيَا كَمَا هُوَ مَلِكُ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ فِي يَدِهِ أَمْرُهُمْ وَجَزَائِهِمْ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا.

(١٤) و لذلك فهو يعاقبهم فى الدنيا بتسهيل سبيل العسر لهم، و استدراجهم فيه بسوء اختيارهم له، و يعاقبهم فى الاخره بنار تتقد و تبتلع الأشقياء.

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْقَىٰ مِنْهَا نَارَ مَلْتَبِهِ، تَنْتَظِرُ كُلَّ الْأَشْقِيَاءِ، وَعَلَيْنَا الْحَذَرُ مِنْهَا، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْذَرَنَا جَمِيعًا، فَلَا يَقُولُنَّ أَحَدٌ: أَنَا بَعِيدٌ عَنْهَا لِأَنِّي أَمْلِكُ مَالًا، أَوْ جَاهًا، أَوْ أَنْتَمِي

إِثْمًا عَظِيمًا (١) و إلى ذلك تشير

الروايه المأثوره عن الامام الباقر عليه السلام: «النيران بعضها دون بعض» (٢).

و هكذا يبين السياق حالتين متقابلتين تماما لتكونا- كما الليل يقابل النهار- مثلا لاختلاف السعى.

(١٨) و من أبرز صفات: «الأتقى» التصدق بماله لكي يطهر قلبه من الشح و البخل و حب الدنيا.

□
الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى كُلٌّ مِنْ يَمْلِكُ مَالًا - ينفقه، و لكن أكثرهم ينفقون أموالهم، ثم تكون عليهم حسره؛ لأنهم لا يبحثون عن الزكاه، و نقاوه القلب بقدر ما يبحثون عن الذات و تكريس الانانيه، إلا المتقون الذين يعرفون أن حب الدنيا أصل كل انحراف، فيطهرون بالزكاه قلوبهم من حبها.

□
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ فَلَمْ يَنْفِقْ مَالَهُ جِزَاءَ عَلَىٰ نِعْمَةٍ سَبَقَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْمُنْفِقِ عَلَيْهِ، و لم يطلب لانفاقه جزاء حتى و لو كان من نوع طلب الشكر، أو محاوله إخضاع الفقير لسلطته، و تكريس حاله الطبقيه بهذا الإنفاق، كإنفاق الكثير من المترفين و المسرفين.

(٢٠) كلاً.. إنما ينفق لوجه الله، و ابتغاء مرضاته، و سعياً وراء الجنة التي

ص: ١٥٦

١-١ (١) النساء ٤٨.

٢-٢ (٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٩٢.

وعد الله المنفقين.

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَ وَجْهَ اللَّهِ رِضَاهُ وَ مَا أَمْرُ بِهِ، وَ مِمَّا أَمْرُ بِهِ طَاعَهُ أَوْلِيَائِهِ.

(٢١) لأنه ابتغى رضوان الله فإن الله يرضيه بفضله.

وَ لَسَوْفَ يَرْضَىٰ وَ هل هناك غايه أسمى من الرضا؟ أليس الإنسان دائم التطلع عريض الطموح، فكيف يرضى؟ بلى. أتى كانت رغبات الإنسان عظيمه فإن الجنة أعظم، و فضل الله أكبر.

و هذه السوره بمجملها و لا سيما خاتمتها تكرر في الإنسان حس المسؤوليه، بيد أن بعض القدرية حاولوا تفسيرها بما يتناسب و نظريه الجبر التي تنتزع حس المسؤوليه عن القلب، فإذا كان كل شيء كتب بالقلم و حتى عمل الإنسان فأين مسئوليته؟ و لماذا يحرضنا الله على العطاء و لا نملك من أنفسنا شيئاً، و لماذا يحذرنا النار و لسنا الذين نقرر الدخول فيها أو اجتنابها؟ هكذا جاء في صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لى عمران بن حصين: رأيت ما يعمل الناس اليوم و يكمدحون فيه أين قضى و مضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم. و ثبتت الحجه عليهم؟! فقلت: بل شيء قضى عليهم و مضى عليهم، قال: فقال: أ فلا- يكون ظلماً؟ ففزعت من ذلك فزعا شديداً، و قلت: كل شيء خلق الله و ملك يده، فلا يسأل عما يفعل و هم يسألون، فقال لى: يرحمك الله. إنى لم أرد فيما سألتك إلا لأحرز عقلك.

و

أن رجلين من مزينه أتيا رسول الله -صلى الله عليه و اله- فقالا: يا

ص: ١٥٧

رسول الله! أ رأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه. أ شىء قضى عليهم و مضى، من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما آتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا- بل شىء قضى عليهم و مضى فيهم، و تصديق ذلك فى كتاب الله عز و جل وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (١)».

و يبدو لى أن هناك خلطاً فظيماً حدث عند البعض بين الايمان بالقضاء و القدر، و بين الأخذ بنظريه الجبر اليهوديه التى زعموا فيها: أن يد الله مغلوله، و أن الله لا يقدر على تغيير شىء مما قدر سبحانه، و أن العباد مكرهون على ما يفعلون، و أن الله يجازيهم بغير صنع منهم فى أفعالهم أو مشيئته.

و منشأ هذا الخلط تطرف بعض المؤمنين ضد نظريه التفويض للقدريه التى زعمت أن الله ترك عباده لشأنهم، دون أن يأمر أو ينهى أو يقدر شيئاً.

و النظرية القاصده هى الوسطى التى فاتت الكثير من المفسرين، و هى التى تصرح بها آيات الله، و التى هى لب الشريعة و خلاصه الرسالات الالهيه و هى: أن الله قضى و قدر، و كان مما قضى حريه الإنسان فى حدود مشيئته، و مسئوليتهم عن أفعالهم، و أنه سبحانه هو الذى منح العباده قدره المشيئته، كما أعطاهم سائر القدرات ليفتنهم فيها، و يبين لهم الخير و الشر و ألهمهم الفجور و التقوى.

و الرسول- صلى الله عليه و اله- يبين ذلك، و لكن الناس فسروا كلام الرسول بالخطأ كما فسروا القرآن كذلك، فالروايه السابقه- مثلاً- لا تخطأ القرآن فى مدلولها، إذ أن الرسول بين أن الله قد قضى عليهم ما ألهمهم من الفجور و التقوى، فإن فجروا فبإذنه (لا بأمره و لا بفعله) و إن اتقوا فبإذن و بأمره (لا بفعله).

ص: ١٥٨

و كذلك النص التالي انما يدل على أن الله سبحانه لم يترك عباده سدى.

و فى النص - كما نقرأه - تصريح بضروره السعى و الكدح، و إذا كان كل شىء قد تم فلم السعى، و لماذا الكدح؟

جاء فى الصحيحين و الترمذى عن على - عليه السلام - قال: «كنا فى جنازه بالبقيع، فأتى النبى - صلى الله عليه و اله - فجلس و جلسنا معه، و معه عود ينكت به فى الأرض. فرفع رأسه الى السماء فقال: ما من نفس منفوسه إلا قد كتب مدخلها» فقال القوم: يا رسول الله! فلا نتكل على كتابنا، فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة. و من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء؟ قال: اعملوا فكل ميسر. أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة، و أما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء» ثم قرأ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَ اتَّقَىٰ * وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَيْسَّرُهُ لِيُسْرَىٰ * وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَىٰ * وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَيْسَّرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ (١).

ماذا نفهم من هذا الحديث؟ هل الجبر أم المسؤولية؟ إن تلاوه الرسول للآيه تدل على أنه - صلى الله عليه و اله - حرّضنا للعطاء و البذل، و لكنه ربط العاقبه بأمر الله، بلى. لسنا نحن الذين نقرر السعادة و الشقاء، و إنما الله سبحانه و لكن بأعمالنا و بما نختاره، أ و لم يقل سبحانه: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٢) و قال: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ فنسب السعى الى الإنسان، و الرسول رفض فكره الجبر، و الاتكال على الكتاب الذى لا يفيد فيه حسب زعمهم.

ص: ١٥٩

١ - ١) القرطبي ج ٢٠ ص ٨٤.

٢ - ٢) المدثر ٣٨.

سوره الضحی

اشاره

ص: ۱۶۰

فضل السوره

عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال: «من أكثر قراءه و الضحى فى يوم أو ليله لم يبق شىء بحضرته إلا شهد له يوم القيامة، حتى شعره و بشره و لحمه و دمه و عروقه و عصبه و عظامه، و جميع ما أقلت الأرض منه، و يقول الرب تبارك و تعالى: قبلت شهادتكم لعبدى و أجزتها له، انطلقوا به الى جنّاتى حتى يتخيّر منها حيث ما أحبّ، و أعطوه من غير منّ و لكن رحمه منى و فضلا عليه، و هنيئا لعبدى».

تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٨٥.

ص: ١٦٣

من رحم الظلام يتنفس الفجر، و من رحم المأساه يولد أمل التغيير، و عند ما تأخر الوحي قليلاً، و زاد قلب الرسول شوقاً، و نفوس المؤمنين و جلاء و أراجيف المشركين انتشاراً، هنالك جلجل الوحي في هضاب مكه من جديد، و شقّ فجره طريقه إلى القلوب العطشى، إلى النور و الدفئ و الحنان، فاستقبلته بحفاوه و وعته بعمق.

هكذا رحمه الله تهيأ الظروف من قبل لتكون أوقع أثراً و أبلغ نفاذاً، أرايت اليتيم حين تتناوله يد الرحمه كيف يحن على الأيتام و المحرومين، أو رأيت الضال حين يهتدى كيف يمتص قلبه الهدى كما تمتص حبه التراب الندى في ضحوه الهجير؟! هكذا يرضى المؤمن بالقدر، فلو لا الليل إذا سجي لم يعرف القلب قيمه الضحى، و لو لا العطش لم يتلذذ الكبد بشربه ماء هنيئه. و لو لا التحديات لما حدث التطور، و لو لا الماسى لما قامت القدرات.

و يبدو أن محور سوره الضحى كما سوره ألم نشرح هي هذه البصيره التي مهدت

لها بالقسم بالضحى، و الليل إذا سجدى، ثم بيان أن تأخير الوحي لم يكن للوداع، بل لحكمه بالغه قد تكون تكريسه فى النفوس، ثم ذكرت الرسول-صلّى الله عليه و اله- كيف منّ الله عليه بألوان النعم بعد الصعاب، عليه أن يسعى لإسعاد الناس و هدايتهم بكل ما أوتى من حول و قوه.

ص: ١٦٥

[سوره الضحی (۹۳): الآيات ۱ الى ۱۱]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالضُّحَى (۱) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (۲) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (۳) وَاللَّآخِرَهُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (۴) وَ
لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (۵) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (۶) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (۷) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (۸) فَأَمَّا الْيَتِيمَ
فَلَا تَفْهَرُ (۹) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ (۱۰) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (۱۱)

بينات من الآيات:

(١) لماذا لا يجوز للناس ان يحلفوا بخلق الله، بينما يحلف الله يمينا بما خلق، و جاء فى حديث مستفيض ما يلى:

عن الامام الباقر عليه السلام: «ان لله عزّ و جلّ ان يقسم من خلقه بما شاء، و ليس لخلقه أن يقسموا إلاّ به» (١).

و فى هذا المعنى جاءت روايات كثيره أخرى.

الجواب: اننا حين نحلف بشىء نعطيه قيمه ذاتيه يخشى أن تتحول الى حاله من التقديس المنافيه لصفاء التوحيد و نقائه، و بينما ربنا حين يقسم بشىء فإنه يعطيه قيمه، و يجعلنا نلتفت إلى أهميته كذلك فى فاتحه هذه السوره القسم بالضحى حيث ارتفاع النهار، و ميعاد الإنسان مع الكد و النشاط.

ص: ١٦٨

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ أَي ما ودعك الوداع الأخير، و لا أبغضك-حتى و لو بصورة مؤقتة-وقد اختلفت أحاديث الرواه عن سبب تأخر الوحي و يمكن الجمع بينهما، و نحن نذكر فيما يلي طائفة منها لما فيها من فوائد هامة، بالاضافة إلى أنها توضح جانباً من حياة الرسول، و تساهم بقدر ما فى فهم القرآن:

روى عن الامام الباقر-عليه السلام- فى تفسير السوره أن جبرئيل-عليه السلام-أبطأ على رسول الله، و أنه كانت أول سوره نزلت اقرأ باسم ربك الذى خلق ثم أبطأ عليه، فقالت خديجه-رضى الله عنها-: لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك، فأنزل الله تبارك و تعالى: مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (١).

و

فى حديث آخر: ان المسلمين قالوا لرسول الله: ما ينزل عليك الوحي يا رسول الله؟! فقال «و كيف ينزل على الوحي و أنتم لا تنفون براجمكم (٢) و لا تقلّمون أظافركم» و لما نزلت السوره قال النبى لجبرئيل: «ما جئت حتى اشتقت إليك» فقال جبرئيل: «و انا كنت أشدّ إليك شوقاً، و لكنى عبد مأمور، و ما تنتزل إلا بأمر ربك» (٣).

و روى عن ابن عباس: أنه احتبس عنه الوحي خمسة عشر يوماً، فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه و قلاه، و لو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء (٤) فنزلت السوره.

ص: ١٧٠

١-١) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٦٤.

٢-٢) اى العقد التى تكون فى ظهر الأصابع.

٣-٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٥٠٤.

٤-٤) القرطبي ج ٢٠ ص ٩٢.

و هذه الأسباب متداخله، فقد يكون سبب تأخير الوحي الظاهر أكثر من سبب واحد، و أنى كان فقد امتحن المؤمنون، و زاد شوق الرسول الى الوحي، كما ذهبت إشاعات المشركين أدراج الرياح، و عرف الناس أن كلامهم باطل، و أمرهم فرط.

(٤) و كما يتفجر ضحى الشمس بعد ليل ساج، و كما يتنزل الوحي بعد انقطاع و انتظار كذلك الاخره التى تتأخر زمنا عن الاولى خير و أبقى، و على المؤمن ألا يستعجل النتائج فقد يكون فى تأخيرها مصلحه كبرى.

وَلَلْمَآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۗ قِيلَ: ان له فى الاخره ألف ألف قصر من اللؤلؤ ترابها من المسك، و فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج و الخدم، و ما يشتهى، على أتم الوصف (١).

و قال بعضهم: الاخره تعنى المستقبل، و فيها بشاره للنبي بأنه سيفتح له فتحا مينا.

(٥) و يبدو لى أن أعظم ما بشر به النبي لقاء جهاده فى الله، و عنائه الشديد الذى فاق عناء الأنبياء جميعا كانت الشفاعة، ذلك أن قلبه الكبير كان ينبض بحب الإنسان، و هدفه الأسمى كان إنقاذ البشرية من إصر الشرك و الجهل و أغلال العبوديه و التخلف و الفقر و المرض، و حتى

فى يوم القيامه حيث كان يقول جميع الناس و الأنبياء معهم: نفسى نفسى، ترى رسول الله-صلى الله عليه و اله- يدعو ربه بالشفاعة و يقول: أمتى أمتى، و فى أشد لحظات حياته عند ما نزلت به سكرات الموت كان يقول لقا بضع روحه: شدد على و خفف عن أمتى. إن هذا القلب الكبير لا يملؤه إلا حب الله و حب عباده، و لا يرضيه سوى إنقاذ عباد الله فى الدنيا من

ص: ١٧١

الضلال بالدعوة و الجهاد، و فى الاخره من النار بالشفاعه، و لذلك جاءت الايه التاليه تفسيرا للايه السابقه:

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۗ وَمَا يَرْضَىٰ الرَّسُولَ غَيْرَ الشَّفَاعَةِ فِي أُمَّتِهِ؟ مِنْ هُنَا

جاءت الروايه المأثوره عن الامام على -عليه السلام- حيث قال: «قال: رسول الله -صلى الله عليه و اله-: يشفعنى الله فى أمتى حتى يقول الله سبحانه لى: رضيت يا محمد! فأقول يا رب رضيت» (١).

و

روى عنه -عليه السلام- انه قال لأهل القرآن: إنكم تقولون ان أرجى آيه فى كتاب الله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أُشِيرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ قَالُوا: إِنَّا نَقُولُ ذَلِكَ، قَالَ: وَ لَكُنَّا -أهل البيت- نقول: إن أرجى آيه فى كتاب الله قوله تعالى: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٢).

و

فى حديث آخر: «إنها الشفاعة ليعطينها فى أهل لا إله إلا الله حتى يقول:

رب رضيت» (٣).

و قد أتعب رسول الله نفسه، و حمل ذوى قرباه على أصعب المحامل من أجل الله، و لبلوغ درجه الوسيله (التي أظنها هى الشفاعة بذاتها)

جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق -عليه السلام- انه دخل يوما على فاطمه -عليها السلام- و عليها كساء من ثلث الإبل، و هى تطحن بيدها، و لترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله لما أبصرها، فقال: يا بنتاه تعجلى مراره الدنيا بحلاوه الاخره، فقد أنزل

ص: ١٧٢

١-١) القرطبي ج ٢٠ ص ٩٥.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) المصدر ص ٩٦ و نص هذان الحديثان فى حديث واحد عن على عليه السلام فى نور الثقلين.

اللّٰهُ عَلَيَّ « وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » و قال الصادق-عليه السلام:-

«رضا جدّى أن لا يبقى فى النار موحد» (١).

(٦) لقد ترعرع رسول الله يتيماً، فقد والده و هو لا يزال فى بطن امه ثم فقد والدته فى الطفوله المبكره، و ذاق-كبشر-كلما يعانىه يتيم الأبوين من حرمان عاطفى، فجعله الله ينوع الحب و الحنان.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ □ كان رسول الله بطلعه البهيه، و جذابته الاخاذه، و بما حباه الله من بركه تفيض على من حوله مأوى القلوب التى تهوى التقرب اليه و تتنافس على خدمته، ألم تسمع قصه عبد المطلب-جده العظيم-كيف كان يشرف شخصياً على راحته، و من بعده عمه أبو طالب-سيد بنى هاشم-يستमित فى الدفاع عنه، و يفضله على أولاده فى خدمه.

سبحان الله! كيف يتجلى بآياته للخلق، فيجعل يتيم الأبوين أعظم شخصيه عبر التاريخ، الذى أحبه أهل الأرض و أهل السماء، فلم يحبوا أحدا مثله.

و قد أثار البعض السؤال التالى: لآيه حكمه جعل الله خاتم أنبيائه يتيم الأبوين؟ تجيب الروايه التالیه على ذلك:

يقول الامام الصادق-عليه السلام:-

«لئلا يكون لمخلوق عليه حق» (٢).

و هناك تفسير آخر لليتيم نجده لليتيم نجده فى بعض النصوص سند كره ضمن تفسير الآيات التالیه إنشاء الله.

ص: ١٧٣

١-١) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٩٥.

٢-٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٩٥.

(٧) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ لِقَدْرِ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - أَنْ يَكُونَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ قَبْلَ وِلَادَتِهِ، بَلْ كَانَ نُورًا يَحْدُقُ بَعْرَشَ اللَّهِ، وَ

قد قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ -: «كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين». بل كان مثلا للنور الذي خلقه الله في البدء ثم خلق الخلق به. جاء في حديث شريف: «أول ما خلق الله نوري» (١).

و قد قلبته يد الرحمة الالهيه في أصلاب شامخه، و أرحام مطهره، حتى قال ربنا تعالى: وَ تَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ .

و عند ولادته من أبوين كريمين - عبد الله سلام الله عليه، و آمنه بنت وهب سلام الله عليها - أظهر الله آيات عظيمه في العالم، إيذانا بولادته فسقطت شرفه من ايوان كسرى، و غاضت بحيره ساوه، و فاضت بحيره سماوه، و انطفأت نار المجوس بعد مئات السنين من اشتعالها.

و قرن الله به منذ ولادته ملكا يسلك به طريق المكارم،

قال الامام أمير المؤمنين - عليه السلام -:

«و لقد قرن الله به من لدنّ كان فطيما أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، و محاسن أخلاق العالم، ليله و نهاره» (٢).

و هكذا أدبه الله فأحسن تأديبه كما قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - عن نفسه.

إلا أن ذلك كله لا يعنى أن القرآن من وحى نفسه، بل إنه كان غافلا عن القرآن من قبل ان يقضى اليه وحيه، لذلك قال سبحانه:

ص: ١٧٤

١-١) موسوعه بحار الأنوار ج ١ ص ٩٧.

٢-٢) نهج البلاغه خ ١٩٢ ص ٣٠٠.

وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ (١) وقال: وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٢) وقال: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتُمْ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا (٣).

و بهذا المفهوم كان الرسول ضالاً عن الشريعة الجديدة، وليس ضالاً عن أيه شريعته، و عن الهدى الجديد لا عن اى هدى. هكذا قال بعض المفسرين.

بينما نجد تفسيراً آخر ينسجم مع مقام الرسول: أنه كان ضاله العالمين، يبحثون عنه، فهدى الله إليه الناس، و هذا تفسير أهل البيت عليهم السلام، و هو إن لم يكن تفسير ظاهر القرآن فلا ريب انه تفسير بطن من بطونه، أو ليس للقرآن سبعة أبطن؟ هكذا

روى عن الامام الرضا-عليه السلام- فى قوله: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى» قال: «فرداً لا مثيل لك فى المخلوقين، فآوى الناس إليك» وَ وَجَدَكَ ضَالًّا «أى ضالاً فى قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك» وَ وَجَدَكَ عَائِلًا «تعول أقواما بالعلم فأغناهم الله بك» (٤).

و هناك تفسيرات أخرى للآيه تعكس اهتمام المؤمنين بمقام الرسول-صلى الله عليه و اله- و عدم نسبه الضلاله اليه كأن يكون الضلال بمعنى الضياع عن الطريق فى طفولته، أو عند ما سافر الى الشام للتجاره، و لكن التفسيرين الأولين اولى.

(٨) و كان الرسول يعيش فى قبيله بنى هاشم، التى كانت تتميز بالسؤدد، و الخلق الرفيع، و تعتبر المرجع الدينى فى مكه المكرمه، و لكنها لم تكن ذا مال كبير،

ص: ١٧٥

١-١ (١) يوسف ٣.

٢-٢ (٢) العنكبوت ٤٨.

٣-٣ (٣) الشورى ٥٢.

٤-٤ (٤) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٩٥.

و بالذات أبو طالب الذى أصبح شيخ بنى هاشم بعد عبد المطلب بالرغم من فقره حتى قيل: ما ساد فقير إلا أبو طالب، و من المعروف تاريخيًا انه -عليه السلام- قبل بتكفل أولاده من قبل أخوته لضيق ذات يده.

و لكن الله منّ على الرسول بالسعه، حيث آمنت به واحده من أثرى قريش و هى خديجه بنت خويلد التى تزوجها الرسول -صلّى الله عليه و اله- فأصبح غنيًا بفضل الله.

وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۖ وَ قد مضى تفسير آخر للآيه: ان الرسول كان يعيل الناس، فأغناهم الله بعلم الرسول و هداه.

(٩) لقد نهض النبى من أرض الحرمان، فكان نصير المحرومين، و قد أوصاه الرب بمداراه اليتيم، و نهاه عن قهره، و تجاوز حقه.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَمُ ۖ ان احساس اليتيم بالنقص يكفيه قهرا، و لا -بد أن يقوم المجتمع بتعويض هذا النقص بالعطف عليه، لكى لا يتكرس هذا النقص فى نفسه، فيصاب بعقده الضعه، و يحاول أن ينتقم عند ما يكبر من المجتمع، و يتعالى على أقرانه، و يستكبر فى الأرض و..و..

و لعل التعبير بعدم القهر يشمل أمرين: الاول: دفع حقوق اليتيم إليه، الثانى: عدم أخذ الحق من عنده بالقهر و التسلط.

و قد راعى القرآن الجانب النفسى لليتيم مع انه بحاجة عاداه الى معونه ماديه

أيضاً، أو تدري لماذا؟ أولاً: لان كل الأيتام يحتاجون الى عطف معنوي، بينما قد لا يحتاج بعضهم الى عون مادي، ثانياً: لان النهي عن قهرهم يتضمن النهي عن استضعافهم المادي أيضاً.

و قد وردت نصوص كثيرة في فضيله الاهتمام بالايام و النهي عن ظلمهم،

فقد روى عن رسول الله-صلى الله عليه و اله- «من مسح على رأس يتييم كان له بكل شعره تمرّ به على يده نور يوم القيامة» (١).

و

قال: «أنا و كافل اليتيم كهاتين في الجنة، إذا اتقى الله عز و جل» و أشار بالسبابة الوسطى (٢).

و

روى عن رسول الله-صلى الله عليه و اله- «إنّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، يقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيّت أباه في التراب؟ فيقول الملائكة: ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي! اشهدوا أنّ من أسكته و أرضاه أن أرضيه يوم القيامة» (٣).

(١٠) و كما اليتيم الفقير السائل، أوصى الإسلام به خيراً، فقال ربنا سبحانه:

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَوْهُ مِنْ عَاشٍ وَ رَأَى الْحَرْمَانَ، وَ لَدَغْتَهُ لَسَعَاتِ الْجُوعِ كَانَ أَحْرَى بِاحْتِرَامِ مَشَاعِرِ السَّائِلِ كإِنْسَانٍ، وَ سِوَاءِ وَفَّقٍ لِمُسَاعَدَتِهِ أَوْ لَا. فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَجَنَّبَ نَهْرَهُ وَ زَجْرَهُ، وَ إِغْلَظَ الْقَوْلَ لَهُ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ إِفْسَادٌ لِنَفْسِهِ، حَيْثُ يَشْرَعُ فِي التَّعَالَى عَلَى النَّاسِ وَ الْاسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ، وَ عِبَادَةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتِهَا، كَمَا أَنْ فِي ذَلِكَ إِفْسَادٌ لِنَفْسِهِ

ص: ١٧٧

١-١ (١) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٩٧.

٢-٢ (٢) المصدر.

٣-٣ (٣) القرطبي ج ٢٠ ص ١٠١.

السائل، و زرعها بعقده الضَّعه، فربما دار دولاب الزمن و استغنى السائل و افتقر المسؤل! كما أن في ذلك إفساد للمجتمع بتكريس الطبقية فيه.

و قد وصى الإسلام بالسائل كثيرا ألا ينهر،

فقد روى عن رسول الله -صلى الله عليه و اله-: «ردّوا السائل ببذل يسير، أو ردّ جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الانس و لا من الجن ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله» (١).

و نهى الإسلام من السؤال، و اعتبره ذلًا، و لكنه نهى أيضا عن رد من يسأل،

جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر -عليه السلام- أنه قال: «لو يعلم السائل ما فى المسأله ما سأل أحد أحد، و لو يعلم المعطى ما فى العطيه ما رد أحد أحد» (٢).

(١١) الرزق طعام الجسد، و شكره طعام الروح، و من فقد الشكر أحسّ بجوع دائم، أ و ليس أعظم الغنى غنى النفس؟ أولئك الذين يستشعرون الفقر النفسى يشبهون تماما المصابون بمرض الأكل، تسرى فى عروقهم قشعريره بارده و لو تحت عشرين دثارا.

و العطف على اليتيم، و رد السائل بالإفناق أو بالكلام الطيب مظهران للشكر، إلا أن لشكر نعم الله مظاهر شتى أمر الإسلام بها جميعا عبر كلمه حكمه جامعته، فقال:

وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ و الحديث عن النعمه يشمل ثلاثه أبعاد:

ص: ١٧٨

١-١) المصدر.

٢-٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٩٨.

أولاً: الاعتراف به، و بيانه أمام الملا لكي لا يحسبه الناس فقيراً و هو مستغن بفضل الله،

فقد روى عن الامام الصادق-عليه السلام- في تفسير الايه:

فحدث بما أعطاك الله، و فضلك، و رزقك، و أحسن إليك، و هداك (١).

ثانياً: أن يرى أثر نعمته على حياته، فلا يبخل على نفسه مما رزقه الله، مما يخالف حاله الترهب الذي نهى عنه الإسلام

فقد جاء في الحديث المأثور عن الامام أمير المؤمنين-عليه السلام- حين اشتكى اليه الربيع بن زياد أخاه عاصم بن زياد، و قال: انه لبس العباء، و ترك الملا، و أنه قد غم اهله و أحزن ولده بذلك، فقال أمير المؤمنين-عليه السلام-: «عليّ بعاصم بن زياد» فجيء به فلما رآه عبس في وجهه و قال له: أما استحييت من أهلك، أما رحمت ولدك؟ أ ترى الله أحل لك الطيبات، و هو يكره أخذك منها! أنت أهون على الله من ذلك، أو ليس الله يقول: وَ الْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ أو ليس يقول: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ الى قوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ فبالله لا بتذال نعم الله بالفعل أحب اليه من ابتذالها بالمقال، فقد قال عز و جل: وَ أَمَا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ فقال عاصم: يا أمير المؤمنين! فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الجشوبه، و في ملبسك على الخشونه؟ فقال:

«ويحك! إن الله عز و جل فرض على أئمة العدل ان يقدروا أنفسهم بضعفه الناس كيلا يتبيخ بالفقير فقره» فالقى عاصم بن زياد العباء و لبس الملا (٢).

و ينبغي أن يأخذ الإنسان من زينه الحياه الدنيا بقدر حاجته،

فقد روى عن رسول الله-صلى الله عليه و اله- أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال، و يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» (٣).

ص: ١٧٩

١- (١) المصدر.

٢- (٢) المصدر ص ٦٠١.

٣- (٣) القرطبي ج ٢٠ ص ١٠٢.

ثالثاً: شكر من أنعم عليه من أرباب النعم، والإنفاق على الآخرين،

فقد جاء في الحديث المأثور عن النبي -صلى الله عليه و اله-: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، و من لم يشكر الناس لم يشكر الله، و المتحدّث بالنعم شكر، و تركه كفر، و الجماعه رحمه، و الفرقة عذاب» (١).

و بقى ذكر رسول الله -صلى الله عليه و اله- خالداً رغم أنف المعاندين له، فقد روى عن معاويه أنه سمع المؤذن يقول: اشهد ان لا إله الا الله و ان محمداً رسول الله، فلم يملك إهابه، و اندفع يقول:

«لله أبوك يا ابن عبد الله، لقد كنت على الهمة، ما رضيت لنفسك إلا ان يقرن اسمك باسم رب العالمين» (٢) و روى مطرف بن المغيرة قال: وفدت مع أبى على معاويه، فكان أبى يتحدث عنده ثم ينصرف إلى، و هو يذكر معاويه و عقله، و يعجب بما يرى منه، و اقبل ذات ليله، و هو غضبان فأمسك عن العشاء، فانتظرتة ساعه، و قد ظننت انه لشيء حدث فينا أو فى عملنا، فقلت له: مالى أراك مغتما منذ الليله؟ قال: يا بنى! جئتك من أخبث الناس، قال: ما ذاك؟ قال: خلوت بمعاويه فقلت له: إنك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين! فلو أظهرت عدلاً و بسطت خيراً، فانك قد كبرت، و لو نظرت الى إخوتك من بنى هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه.

فتار معاويه و اندفع يقول:

ص: ١٨٠

١-١) المصدر.

٢-٢) حياه الامام الحسين/باقر شريف القرشى/ج ٢ ص ١٥١.

«هيهات!! هيهات ملك أخو تيم فعدل، و فعل ما فعل، فوالله ما عدا ان هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: ابو بكر، ثم ملك أخو عدى فاجتهد و شمر عشر سنين، فوالله ما عدا ان هلك ذكره، الا أن يقول قائل: عمر، ثم ملك أخونا عثمان، فملكك رجل لم يكن أحد فى مثل نسبه، فعمل به ما عمل فوالله ما عدا ان هلك ذكره، و ان أخا هاشم يصرخ به فى كل يوم خمس مرات: اشهد ان محمدا رسول الله، فأى عمل يبقى بعد هذا، لا أم لك إلا دفنا دفنا..» (١).

ص: ١٨١

١-١) شرح نهج البلاغه لابن الحديد المعتزلى / ج ٢ ص ٢٩٧.

سوره الشرح

اشاره

ص: ۱۸۳

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جاء في النصوص المأثوره عن أهل البيت-عليهم السلام- أن هذه و ما سبقتها كسوره واحده،يجوز الجمع بينهما في صلاه فريضه بخلاف غيرها ،

فقد روى عن الصادق-عليه السلام-أنه قال: «لا- يجمع سورتين في ركعه واحده إلا- الضحى و ألم نشرح، و ألم تر كيف و لإيلاف» (1)و ذلك لتعلق إحداهما بالأخرى،و السؤال: كيف؟ إنَّ الله سبحانه عدّد طائفه من مننه على الرسول في السوره الاولي،و بين طائفه أخرى في الثانيه،و لعلّ السوره الاولي تتصل بالنعم الشخصيه،بينما الثانيه تبين النعم المتصله به كصاحب رساله.

و يؤيد الوصل بينهما ما

روى عنه-صلّى الله عليه و اله- من سبب نزول السوره حيث قال:سألت ربي مسأله وددت أنى لم أسألها،قلت: يا رب!

ص: ١٨٥

اتخذت إبراهيم خليلاً، و كلمت موسى تكليماً، و سخّرت مع داود الجبال يسبحن، و أعطيت فلاناً كذا... فقال عزّ و جلّ: ألم أجدك يتيماً فأويتك؟! ألم أجدك ضالاً فهديتك؟! ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟! ألم أشرح لك صدرك؟! ألم أوتك ما لم أوت أحداً قبلك، خواتيم سورة البقره؟! ألم أتخذك خليلاً كما اتخذت إبراهيم خليلاً؟! قلت: بلى يا رب (١)

ص: ١٨٤

١-١) القرطبي/ج ٢٠ ص ١٠٢

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

اللغه

٧ فَرَغْتَ: قيل: ان الفراغ هو الهم والحزن، واستدلوا بقوله:

« وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ » أي مهموما محزوننا، و على هذا المعنى: فاذا أصابك الهم، فانصب لله قائما.

بينات من الآيات:

(١) هكذا جاء الخطاب الالهي لرسوله يفيض حنانا و عطفًا، و يذكر المسلمين بفضيله رسولهم، و يلقي حبه و احترامه في روعهم، و يقول:

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ لَقَدْ بَلَغَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- أَسْمَى دَرَجَةٍ مِنَ الْكَمَالِ مِمَّا لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ قَبْلَهُ، وَ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْلُغَهُ غَيْرَهُ، كُلُّ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ مَنِّهِ وَ تَوْفِيقِهِ، وَ عَلَيْنَا أَنْ نَمَيِّزَ تَمَامًا بَيْنَ إِكْرَامِ مَخْلُوقٍ لِكِرَامَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَ وَصْفِهِ بِالْكَمَالِ الَّذِي حَبَاهُ رَبُّهُ وَ إِعْظَامِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِذَلِكَ وَ فِي حُدُودِ أَمْرِ اللَّهِ، وَ بَيْنَ أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ بَعِيدًا عَنِ اللَّهِ.. أَلَا تَرَى أَنَّنَا حِينَ نَشْهَدُ لِلنَّبِيِّ بِالرِّسَالَةِ فِي الصَّلَاةِ، نَقُولُ:

و أشهد أنّ محمدا عبده و رسوله، فلما ذا توكّد على أنّه عبد الله؟ أحد أسباب ذلك لكي لا يدفعنا حبنا للرسول إلى الغلو فيه، كما فعل النصارى في ابن مريم

-عليهما السلام-

و الآيات فى سورة الضحى و هذه ترفع شأن الرسول إلى أسمى المراتب، و لكن بصيغه تنفى فى ذات الوقت بدعه الغلو التى ابتليت بها الأمم فيما يتصل بالصالحين منهم، و إنك لترى-مع كل هذا الوضوح فى التعبير-أنّ عامّة المسلمين لا تخلوا نظراتهم حول النبى و سائر أولياء الله من شوائب الغلو، جهلاً بأنّ مقاماتهم الساميه ليست بذواتهم، بل بما جباهم الله سبحانه، و إلاّ فهم بشر كسائر البشر لولا رحمه الله.

و قد شرح الله صدر النبى بالايمن، و شرحه باليقين، و شرحه بالرساله، حتى جعله يتحمل ما تشفق الجبال من حملة، حتى واجه ذلك المجتمع الجاهلى الفظ الجافى الحاد الغنيف بتلك الأخلاق الحميده التى نعتها الله جل ثناؤه بالقول:

وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (١).

لقد وسع قلبه لما مضى من الزمان و لما قد يأتى، و هيمن بقلبه الكبير عليهما جميعاً، و لا يزال الزمن يتقدم و يتطور و رسول الله يقوده و حتى قيام الساعة.

و لقد شرح الله صدر الرسول بأولئك الصفوه من أصحابه الذين حملوا رسالته، و تابعوا مسيرته و فى طليعتهم ابن عمه الامام على-عليه السلام-الذى كان منه بمنزله هارون من موسى-حسب الحديث المتفق عليه-أو لم يؤيد الله كليمه موسى -عليه السلام-بأخيه هارون، و كان استجابته لدعائه، حيث قال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي لِى قَوْلِهِ: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى * هَارُونَ أَخِي .

(٢) حينما يشرح الله القلب بالايمن فإنه يتسع للمشاكل و الصعاب، و يقدر

ص: ١٨٩

على مواجهه أعتى التحديات، أو تدرى كيف؟ لان القلب يومئذ يضحى طاهرا من وساوس الشيطان، نقيا من رواسب الشرك، بعيدا عن أغلال التبرير و الخداع الذاتى، سليما من البغضاء و الضغائن و الحسد و الظنون و التمنيات، و آئذ يكون صاحبه خفيف المؤمنه، نشيط التحرك، كما لو نشط من عقال، و لعل القرآن يشير الى ذلك بقوله:

وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ لَانَ الْوِزْرَ هُوَ الْحَمْلُ الثَّقِيلُ، وَ وَضَعَ الْحَمْلَ رَفَعَهُ، فَأَى حَمْلٍ أَشَدَّ ثَقَلًا مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا، وَ الْخَوْفُ مِنْ أَهْلِهَا، وَ التَّثَاوُلُ إِلَى الْأَرْضِ؟ وَ نَجِدُ تَأْيِيدَ ذَلِكَ

فى الحديث المأثور عن النبى -صلى الله عليه و اله- حيث سئل فقيل له: يا رسول الله! أين شرح الصدر؟ قال: «نعم» قالوا: يا رسول الله! و هل لذلك علامه يعرف بها؟ قال:

«نعم. التجافى عن دار الغرور، و الانابه إلى دار الخلود، و الاعداد للموت قبل نزول الموت» (١) فاذا كان شرح الصدر فى حسب هذا الحديث -يتم بالتجافى عن الدنيا، فان وضع الوزر يكون أحد مظاهره، كما نجد تصديق ذلك فى قوله سبحانه صفه الرسول: وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (٢) و الإصر هو الحمل الثقيل، و قد فسرت بالشرك و الخرافات، كما أن أحد معانى الأغلال: القيود النفسيه التى تمنع التحرك.

و قد تم كل ذلك بالوحى المتمثل فى الكتاب، و أى مؤمن ليستفيد منه نصيبا عند ما يتلوه حق تلاوته، فيشرح به صدره و يتخفف عن وزره و أثقاله.

ص: ١٩٠

١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٠٣

٢-٢) الأعراف/١٥٧

(٣) و آى وزر عظيم هو ضيق النفس و حرج القلب؟! إنه ينقض ظهر صاحبه، و بالذات إذا حمل رساله الله إلى العالمين، انه وقر كبير لا يقدر عليه إلا من شرح الله صدره بالايمن و اليقين و التوكل عليه، و تفويض الأمر اليه، هكذا قال شعيب-عليه السلام- حينما تحدى فساد قومه و قال: **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١)**.

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ قَالُوا: أَي أَثْقَلَهُ، حَتَّى سَمِعَ نَقِيضَهُ، وَ هُوَ صَرِيرُهُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ شِدَّةِ الْحَمْلِ.

(٤) عند ما يخلص العبد لربه حياته، و يصفو من أدران الدنيا و مصالحها و شهواتها، و يتخلص من قيود المادة أو أغلالها فإنه يصبح قرين الرساله، يسمع بها، و يعلو ذكره بسبب تصديده لنشرها و ذوبانه في بوتقتها، كذلك سيد المرسلين استخلصه الله لنفسه، فأصبح ذكره قرين ذكر الله، و طاعته امتدادا لطاعه الله، و كلامه و سنته و سيرته و آدابه جزء من احكام الله، فقال ربنا سبحانه: **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (٢)** هكذا رفع ذكره، الا ترى كيف يهتف المؤمنون باسمه مع كل شارقه و غاربه، و عبر ملايين الحناجر المؤمنه.

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ وَ ذَكَرَ الرَّسُولُ مَرْفُوعٌ فِي الدُّنْيَا بِتَأْيِيدِ اللَّهِ لِدِينِهِ الَّذِي يَظْهَرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي يَرْضِيهِ بِهَا، وَ الْيَوْمَ وَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا مِنْ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَجَدَ اسْمَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله- هُوَ أَشْهُرُ اسْمٍ فِي الْعَالَمِ، وَ شَخْصِيَّتُهُ الْكَرِيمَةُ أَحَبُّ إِلَى قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ أَيِّ شَخْصِيَّةٍ أُخْرَى، وَ إِذَا

ص: ١٩١

١- ١) هود ٨٨

٢- ٢) الحشر ٧

ذكروا أعظم شخصيه عبر التاريخ فسوف يكون هو الاول، لا ريب حتى عند غير المسلمين.

(٥) من يتيم عائل يحيط به الأعداء اضحى رسول الله سيد قومه، ثم بانى أمه، ثم سيد البشرية جميعا، من فعل ذلك به أو ليس الله؟ فلما ذا نياس من روحه، و تراجع بعض الأذى الذى يصيبنا فى سبيله؟ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا أنه يلازمه أنى سار، لان العسر يحمل فى ذاته بذور اليسر، و لان العسر حاله عابره فى حياه الإنسان، أ و ليس قد خلق الله الخلائق ليرحمهم، و انما يتليهم بالعسر و الشده؟ أو ليس قد سبقت رحمه ربنا غضبه؟ إذا فالعسر لا يدوم، و الدليل على ذلك سيره الرسول التى أخلدها القرآن للعبه بها، لأنها مثل أعلى لحياتنا نحن المسلمين، نتبع هداها فيرزقنا الله روحها و عقباها، و بتعبير آخر: الذى يتبع سيره الرسول بقدر أو آخر فإن الخطوط العريضة لحياته سوف تتشابه مع تلك السيره فى عسرها و يسرها، فى صعابها و فى عواقبها الحسنى.

و لقد قال ربنا سبحانه: لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (١) فمن تأسى برسول الله فى حياته حصل على جزء من مغانم سيره الرسول و مكتسباتها.

(٦) وراء العسر الواحد يسران: يسر فى الدنيا و آخر فى الاخره، يسر نابع من رحمه الله التى وسعت كل شىء، و يسر منبعث من الصبر و الاستقامه، و بالتالى من رحمه الله الخاصه بالمؤمنين، لذلك كررت الايه:

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

ص: ١٩٢

قالوا: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرّفا ثم كرروه فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان ليكون أقوى للأمل و أبعث للصبر.

و لذلك

جاء في الحديث المروى عن الرسول-صلى الله عليه و اله-: أنه خرج مسرورا فرحا، و هو يضحك، و يقول: «لن يغلب عسر يسرين!» (١) و جاء على لسان الشاعر:

إذا ضاقت بك الأحوال يوما توّسل بألم نشرح

تجد عشرين مع يسرين لا تحزن و لا تفرح

(٧) كيف جعل الله مع عسر واحد يسرين إثنين؟ إنما بتوكل المؤمن على ربه، و اجتهاده فى العمل، حتى إذا فرغ من مسؤوليه لمسؤوليه أخرى فمن دون توان أو انقطاع.

فَمَاذَا فَرَعْتَ فَمَا نَصَبَ قَالُوا: فإذا فرغت من الصلاة فانصب للدعاء، قبل أن تقوم من مقامك، أو إذا فرغت من أمور الدنيا فانصب للعبادة، أو إذا فرغت فى نهارك عن أمور الخلق فانصب بالليل فى طاعه الحق.

و يبدو أن كل هذه المعانى صحيحة لان الكلمه تسعها، و معناها-فيما يظهر- الفراغ من عمل و الاجتهاد فى عمل جديد، و العمل الاول يكون أسهل من الثانى لأنه قد بذل جهده فيه، و لذلك جاء التعبير ب«فانصب».

ذلك أن القلب المتقد شوقا إلى رضوان الله، و ولها الى الزلفى منه لا ينى يحمل

ص: ١٩٣

الجسد على الأعمال الصالحة، لا يفرغ من واحد حتى تراه يشتغل بالثاني و يجتهد فيه و ينصب لتحقيقه، إن نفسه منه في نصب لان أهدافه كبيره، و تحسسه بالزمن و سرعه انصرامه عنه، و بالموت و تسارع خطاه إليه، و بالأجل الذي لا يستأخر و لا يستقدم ساعه حلوله، و بالقبر الذي ينتظره لنومه طويله، و بالحساب ينتظره بكل هيئته و دقته.. أقول: إن عمق تحسسه بكل ذلك يقض مضجعه، و يسلب راحته، و يلهيه عن اللهو، و يشغله عن اللعب، و يصومه عن لذات الدنيا إلا بقدر حاجته، و يزهد في درجاتها الزائله.

هكذا كان أولياء الله الصالحين و لا يزالون فطوبى لهم ثم طوبى لهم، و هكذا تجدهم عند نزول الموت بهم يتحسرون لا لفراق الأحبه، و انعدام لذات الدنيا.

كلا.. و إنما لأنهم بالموت يفقدون لذه قيامهم بالليل و مناجاتهم مع رب العباد، كما يفقدون لذة العطش في صيام الهواجر.

كذلك

يصفهم الامام على -عليه السلام- في خطبه المتقين حيث يقول:

«و لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفه عين، شوقا إلى الثواب، و خوفا من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم و الجنه كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، و هم و النار كمن قد رآها، فهم فيها معدّبون. قلوبهم محزون، و شرورهم مأمونه، و أجسادهم نحيفه، و حاجاتهم خفيفه، و أنفسهم عفيفه. صبروا أياما قصيره أعقتهم راحه طويله. تجاره مربحه يسرّ رها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، و أسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أميا الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا. يحزنون به أنفسهم و يستثيرون به دواء دائهم. فإذا مرّوا بآيه فيها تشويق ركنا إليها

ص: ١٩٤

طمعاً، و تطلعت نفوسهم إليها شوقاً، و ظنوا أنها نصب أعينهم.

و إذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسمع قلوبهم، و ظنوا أنّ زفير جهنّم و شهيقها فى أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم و أكفهم و ركبهم، و أطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم. و أمّا النهار فحلماة علماء، أبرار أتقياء. قد براهم الخوف برى القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، و ما بالقوم من مرض؛ و يقول: لقد خولطوا!!^(١) و قد كان رسول الله المثل الأعلى لهذه الصفات، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه، و عانى من الجوع حتى شد على بطنه حجر المجاعة، و طلبته الدنيا فكشح عنها.

و لم يزل خلال أيام رسالته المحدوده يهدم بنى الجاهليه فى كلّ يوم ليقيم مكانها صرح الإسلام، فما فرغ من مهمّه الا لينصب للثانيه، حتى إذا أكمل الله به الدين نصب نفسه لمهمه الخلافه من بعده، فاستوزر علياً-عليه السلام- إماماً من بعده، و كانت تلك أصعب مراحل حياته، حيث واجه مخالفه واسع من بعض أصحابه و لكنه نهض به بكل عزم و استقامه.

من هنا

جاء فى تفسير الايه عن الامام الصادق-عليه السلام-: «فإذا فرغت من نبوتك فانصب علياً، و إلى ربك فارغب فى ذلك»^(٢) (٨) و ما الذى يجعل المؤمنين فى حركه ذاتيه، و نشاط لا ينقطع؟ إنه حب الله و الرغبه اليه، و من له بأحد استسهل الصعاب من أجله، و أى حب أكبر فى صدور المؤمنين من حبهم لله و قد قال الله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ^(٣) لذلك جاء النداء

ص: ١٩٥

١-١) نهج البلاغه/خ ١٩٣ ص ٣٠٣

٢-٢) تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٠٥

٣-٣) البقره ١٦٥/

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجِعْ لقد كان قلبه عند ربه، تنام عيناه و لا ينام قلبه، و كان إذا جنّ عليه الليل تفرغ للابتهال و الاجتهاد، دعنا نستمع الى قصه ترويه عائشه عن قيامه بالليل، حسبما

جاء فى روايه الامام الصادق-عليه السلام-قال: كان ليله النصف من شعبان و كان رسول الله-صلى الله عليه و اله-عند عائشه، فلما انتصف الليل قام رسول الله-صلى الله عليه و اله-عن فراشه، فلما انتهت وجدت رسول الله-صلى الله عليه و اله-قد قام عن فراشه، فداخلها ما يدخل النساء (اي الغيره) و ظننت أنه قام إلى بعض نساءه، فقامت و تلففت بشملتها-و أيم الله ما كانت قزًا و لا- كتانا و لا- قطنًا، و لكن سداه شعرا و لحمته أو بار الإبل-فقامت تطلب رسول الله فى حجره نساءه حجره حجره فيبينما هى كذلك إذ نظرت إلى رسول الله ساجدا كثوب متلبّد بوجه الأرض، فدنت منه قريبا فسمعته يقول فى سجوده:

«سجد لك سوادى و خيالى، و آمن بك فؤادى، هذه يداى و ما جنيته على نفسى، يا عظيم! ترجى لكلّ عظيم، اغفر لى العظيم، فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلاّ الربّ العظيم».

ثم رفع رأسه و أهوى ثانيا الى السجود، و سمعته عائشه يقول:

«أعوذ بنور وجهك الذى أضاءت له السموات و الأرضون، و انكشفت له الظلمات، و صلح عليه أمر الأولين و الآخرين من فجأه نعمتك، و من تحويل عافيتك، و من زوال نعمتك. اللهم ارزقنى قلبا تقيا نقيا، و من الشرك بريًا،

لا كافرا ولا شقيًا» ثم عفر خديه في التراب وقال: «عَفَرْتُ وَجْهِي فِي التَّرَابِ وَحَقَّ لِي أَنْ أَسْجُدَ لَكَ» (١)

ص: ١٩٧

١-١) مفاتيح الجنان (اعمال النصف من شعبان) ص ١٦٩

سوره التين

اشاره

ص: ۱۹۹

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال للشيخ الصدوق، بإسناده عن أبى عبد الله الصادق -عليه السلام- أنه قال: «من قرأ «والتين» فى فرائضه و نوافله أعطى من الجنة حيث يرضى».

تفسير نور الثقلين / ج ٥ ص ٦٠٦

ص: ٢٠١

من لا يضع معلوماته في إطار علمي رصين لا ينتفع بها شيئاً، والقرآن الكريم يمنحنا ذلك الإطار. أ رأيت لو لم تعرف نفسك من أنت، من أين جئت، و الى أين تذهب، و ماذا يصلحك، و ماذا يضربك، كيف تستطيع أن تنتفع بمعلوماتك عما حولك؟ فهل تفيدك معرفه الدواء لو لم تعرف المريض و مرضه؟ و سوره التين تهدينا الى بصيره الذات..و التي هي تمهيد لبصائر الحياه، بل هي خلاصتها.

[سوره التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالتِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (١) وَ طُورِ سِينِينَ (٢) وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ
بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)

اللغه

(طور سينين): قيل: هو جبل الطور بسيناء، وقيل: كل جبل ذا شجر مثمر.

(ممنون): الممنون: المقطوع، يقال: منه السير يمنه منّا إذا قطعه، والمنين: الضعيف.

بينات من الآيات:

(١) و تفتتح هذه السوره بالقسم بما يصلح إطارا لهذه البصيره. فما هو التين و الزيتون؟ وَ التَّيْنِ وَ الزَّيْتُونِ تتميز الفاكهه عن سائر الطعام بسهوله تناولها دون معالجه، فاللحم لا يستساغ نيا، و الحبوب بحاجه الى معالجه و إعداد، بينما العنب مثلا يجنى و يؤكل بلا معالجه، بينما يتميز أنواع من الطعام بإمكانيه تخزينه، و بزياده فوائده للجسم، بيد أنّ ألوانا من الفاكهه تجمع إلى ميزاتها كفاكهه ميزات الطعام، بإمكانيه تخزينها و غناها بالمواد الضروريه للجسد و منها التين، فهي سهله التناول كأنها قد صنعت بقدر فمك، طيبه المذاق، جليله الفائده، تجفّف لاوقات الحاجه، و

قد روى عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- في فضلها أنه قال: «لو قلت أن فاكهه نزلت من الجنه

لقلت هذه هي، لان فاكهه الجنه بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، و تنفع من النقرس» (١).

و كذلك فاكهه الزيتون التي هي من أعظم الفواكه نفعاً للجسد و بالذات لان زيتها يعتبر الدهن النادر الذى لا يضر الجسد شيئاً، و

جاء فى حديث مأثور عن النبى -صلى الله عليه و آله-: «كلوا الزيتون و ادهنوا به فإنه من شجره مباركه» (٢).

(٢) فى كنف جبل مشجر تحلو الحياه لما فيه من فوائد و منظر و حمايه، من هنا جاء ذكر الطور بعد ذكر طعام الإنسان فقال ربنا: وَ طُورِ سَيْنِينَ و قيل فى معنى «سينين» الحسن باللغه السريانيه، و قيل: ان كل جبل ذا أشجار مثمره يسمى بسينين، فقد قال مقاتل و الكلبي: «سينين» كل جبل فيه شجر مثمر (٣).

(٣) و أنى كان فإن الصوره تنسجم مع القسم بالتين و الزيتون من جهه و بالبلد الأمين من جهه أخرى، حيث قال ربنا سبحانه:

وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ذَلِكَ أَنْ أَصُولَ مَدِينَةِ الْإِنْسَانِ: الطعام، و الأرض، و السلام. فإذا كان التين و الزيتون مثلاً لارقى أنواع الطعام، و طور سينين لأحسن الاراضى و أكثرها بركه، فان البلد الأمين مثل لأفضل البلاد و هى بلاد الأمن، و يتناسب هذا الإطار مع

ص: ٢٠٥

١-١) نور الثقلين ج ٥ ص ٦٠٧.

٢-٢) القرطبي ج ٢٠ ص ١١٢.

٣-٣) المصدر.

محور السوره المتمثل فى خلق الإنسان بأحسن تقويم، ذلك لان تسخير الحياه له، و إعداد طعامه و أرضه، و توفير الأمن، و بالتالى توفير وسائل المدينه له بعض جوانب حسن صنعه إليه، و جميل عطائه له.

و قد فسرت هذه الكلمات تفسيرات أخرى لا تتنافى وسعه كلمات القرآن و تخومها المتعدده، فقالوا: **الْبَلَدِ الْأَمِينِ**: مكه شرفها الله وَ **طُورِ سَيْنِينَ**: الجبل الذى نادى الله جل ثناؤه فيه موسى -عليه السلام- **أما التَّيْنِ** فقيل: انه البيت المقدس أو المسجد الحرام أو مسجد دمشق، بينما الزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس، أو ان التين هو مهبط سفينه نوح حيث جبل الجودى.

و

جاء فى روايه مأثوره عن النبى -صلى الله عليه و آله-: ان الله تبارك و تعالى اختار من كل شىء أربعة. إلى أن قال: و اختار من البلدان أربعة: فقال تعالى: **وَ التَّيْنِ وَ الزَّيْتُونِ* وَ طُورِ سَيْنِينَ*** وَ **هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ** فالتين: المدينه، و الزيتون: بيت المقدس، و طور سينين: الكوفه، و هذا البلد: مكه (1).

(4) قسما بتلك الديار المقدسه. و قسما بتلك النعم التى تصنع حضاره البشر إن الإنسان قد خلق خلقا سويا حسنا.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ تتجلى قدره الله فى صنع جسده، من استقامه قامته، إلى شبكه أعصابه، الى قدرات مخه، الى مرونة جسمه و ما فيه من قدره احتمال للظروف المختلفه، مما يدل على أنه قد اعدّ لدور أعظم من مجرد دوره الحياتى أو البنائى؛ إنه ليس مجرد فرد متطور، أنه مخلوق مكرم، سخر الله له الأحياء و النباتات و الطبيعه، فاذا دوره

ص: ٢٠٦

الحقيقى ليس فى جسمه و إنما فى روحه، فى تلك الومضه المباركه من نور المشيئه التى منح من دون سائر الأحياء، فى ذلك القبس من نور العقل و العلم و المعرفه الذى زود به و ميز به عن سائر الخلائق.

و هذا المعنى هو الذى ينسجم مع سياق السوره، فالقوام الحسن الذى منّ الله به على الإنسان ليس تقويم جسده فقط؛ لان هذا التقويم مقدمه لما هو أهم و هو قوام روحه؛ و لان المؤمن و الكافر يشتر كان فيه، و لا- معنى لردّ الكفار و حدهم إلى أسفل سافلين.

إن الإنسان قد خلق ليكون ضيف ربه الأعلى فى جنان الخلد، ليكون جليس مقعد صدق عند مليك مقتدر، ليكون مثل ربه العظيم يقول: للشيء كن فيكون، ليكون فى خطّ ذلك الإنسان الذى يعرج الى ربه و يعرج حتى يكون قاب قوسين أو أدنى.

(٥) و لكن هذه الفرصه المباركه التى منحت له تنعكس تماما عند ما لا يستفيد منها، فيكون كالمتمسلق جبلا عظيما ان زلت قدمه هوى إلى الوادى السحيق.

تُمْ رَدِّدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَىٰ آيِن؟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ و ساءت مصيرا، حيث يتمنى لو يكون ترابا.

(٦) ما دام الإنسان قد خلق فى أحسن تقويم فليترك نفسه مع الأقدار تحمله أنى اتجهت؟ كلا.. إذ أن ذلك يؤدى به الى أسفل سافلين، لا بد من الوعى و النشاط حتى لا يهبط الى الدرك الأسفل، و مثله فى ذلك مثل الذى يوضع فى قمه جبل سامق، فتهب عليه عاصفه شديده ان لم يستخدم كل و عيه و قوته و عزمه لطوّحت به الى الوادى.

هكذا استثنى الذكر الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فقط، وهم الذين يبقون في القمه حيث وجعلهم الله.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ لا- ينقطع أجرهم، وتواتر عليهم نعم الله، أو ليس ربنا لا- تزيد كثره العطاء إلا جودا وكرما.

(٧) لا يحتاج أي حيوان إلى العناية في أمور حياته بقدر ما يحتاج الإنسان، فالطفل البشري تتضاءل احتمالات بقائه من دون عناية مناسبة قد يظل يعتمد على والديه فترة طويله، كما أن الإنسان نفسه لا يملك وسائل دفاعيه كافييه في مقاومه سائر الاخطار، بينما أوتى كل حيوان أدوات كافييه للدفاع، بينما أوكل هذا الأمر بالنسبه إلى الإنسان الى عقله وذكائه، كل ذلك يدل على أنه مخلوق متحصّر، يحتاج في وجوده و في تكامله الى النظام.

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ مَا الَّذِي يَدْعُوكَ إِلَى تَكْذِيبِ الْجَزَاءِ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ! من دون الايمان بالجزاء لا يمكن أن يبقى الإنسان حيث جعله الله في قمه الخلائق، كما أنه من دون الايمان بالجزاء لا- معنى للالتزام بالدين (الشريعة) بينما الدين ضروره عقليه يهتدى إليها الإنسان، أليس الإنسان قد خلق اجتماعيا فهو بحاجة الى نظام، و أفضل نظام هو الذي يوحى به الرب، أو ليس في الإنسان فرص التكامل الروحي و التقرب إلى الله، فهو إذا بحاجة الى رسل و رسالات ينجزون له هذه الفرص، و من جهه أخرى:

الا- تجدون الإنسان كيف ينهار إلى منتهى الوحشيه و الفساد من دون روادع، فيستخدم ذكائه و قدراته في تدمير نفسه، ألم تر كيف نشر الفساد في البر و البحر؟ ألم تسمع أنباء الحروب العالميه، أو لم تقرأ عما يعده لنفسه من وسائل التدمير؟! كل

ذلك يشهد على أن هذا الكائن العظيم لا يتكامل إلا بنظام إلهي عظيم.. إنه من دون الدين سفينه جباره بلا ربّان، طائره كبيره بلا طيار، فما هو مصيره يا ترى؟! (٨) و لو لا الجزاء الموعود لكان خلق الإنسان عبثاً أو حتى ظلماً سبحانه الله! فكيف يتساوى عند الله من يهبط إلى أسفل سافلين فينشر الفساد في الأرض، و من يتسامى إلى قمه الخير و الإحسان؟ إن آيات الله في الخليقه تهدينا إلى أن ربنا هو أحكم الحاكمين، فتشهد ذلك على أنه جعل لهذا الإنسان جزاء يبلغه في يوم الدين.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ

جاء في الحديث عن قتاده: و كان رسول الله -صلى الله عليه و آله- إذا ختم هذه السوره قال: بلى. و أنا على ذلك من الشاهدين (١).

ص: ٢٠٩

١- (١) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٥١٢.

سوره العلق

اشاره

ص: ۲۱۰

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله الصادق-عليه السلام-قال: «من قرأ في يومه أو ليلته اقرأ باسم ربك ثم مات في يومه أو ليلته مات شهيداً، وبعثه الله شهيداً، و أحياه شهيداً، و كان كمن ضرب بسيفه في سبيل الله عزّ و جل مع رسول الله صلّى الله عليه و آله».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٠٨

ص: ٢١٣

فى نفس ابن آدم كبر دفين، يستثيره شعوره بالغنى، و يذهب به إحساسه بالحاجه، و إذا لم ينتبه الإنسان الى هذا الداء العضال فإن نعم الله عليه لا تزيده إلا طغيانا، و الطغيان مطيه الهلاك.

و أما إذا تذكر الإنسان، و عرف أنه بذاته جاهل فقير مسكين مستكين، و أنّ الله هو الذى علّم بالقلم، و أنه حينما يقرأ فإنّ الله هو الأكرم، أهل الحمد و الكبرياء و ليس هذا المتعلّم الذى يطغى بعلمه و عرف أنّ الثروه نعمه من الله لا بدّ من حمد الله عليها و شكره لا الطغيان بها، و مواجهه الحق بها، و كذلك الجاه و العشيره.

لو عرف ذلك اطمأنت نفسه، بل استطاع أن يعالج بإذن الله كبر ذاته عبر نعم ربه، فكلّما زادت النعم ازداد شكرا لله و تواضعا لعباد الله، و أداء لحقوق الله.

هكذا يبدو محور سوره العلق: معالجه طغيان الإنسان عند ما يحظى بنعمه العلم أو المال و الجاه. معالجته بالمزيد من التعبد، و هكذا تختتم السوره بالأمر بالسجود الذى هو معراج الإنسان إلى ربه.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا- إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلْنِي (٧) إِنَّ إِلَهِي رَبُّكَ الْرَّجْعِي (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسِفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ بِيَمِينِهِ كَذِبُهُ خَاطِئُهُ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا- لَا تَطَعُهُ وَ أُسْجِدْ وَ اقْتَرِبْ (١٩)

بينات من الآيات:

(١) لم تكن المره الاولى للوحى و لكنها كانت الاخيره، و كانت العظمى حيث جلجل الوحى فى جبال مكه، و هبط الأمين جبرئيل، و حمل معه نورا يتألق سناه عبر الزمن.

كان النبى محمد-صلى الله عليه و آله- يقلب وجهه فى السماء ينتظر ساعه الانطلاق الكبير، كان يعلم أنه رسول الله و لكن متى يتنزل عليه الوحى ليأمره بأن يصدع بالحق؟ هذا الذى كان يبحث عنه بشوق كبير.

كانت الكعبه تستصرخه لينقذها من الصخور الصماء التى نصبت من حولها و عبدت من دون الله جهارا، و كانت تستنجد به لأنها حوّلت من بيت الله الذى وضعه للناس جميعا، إلى عاصمه مستكبرى قريش، يفرضون باسمها على الجزيره سيادتهم الظالمه.

و كانت الانسانيه المعذبّه فى أرجاء الجزيره تنتظره بفارغ الصبر، فهنا البنات يقتلن بغير ذنب، و هناك يقتلون الأولاد أيضا، و الحقوق تنتهك، و الزنا يتفشى، و الفقر و المسكنه و التخلف أصبحت سمه المجتمع أنى يّممت شطرك.

و أمّا الثقافه فقد أصبحت فى خدمه الطغاه و المترفين، على أنّها كانت ركاما من الأساطير و الخرافات، و وسيله لاثاره النعرات العشائريه، و العصبيات التافهه، و المفاسر الكاذبه، و أداه لتكريس الأحقاد و الضغائن، و العلاقات الاقتصاديه أصبحت مجموعه أغلال و قيود على نشاط الإنسان، على انها كانت قائمه على أساس الظلم و القهر و الطبقيه المقيته.

و كانت الأوضاع خارج الجزيره ليست بأحسن أبدا، حيث جرف التحريف و النفاق اتباع موسى و عيسى -عليهما السلام- الى أبعد حدود الضلال.

و كانت الثقافه ربّانيه إلى هذا الإنسان الغارق فى أوحال الجهل و التخلف، و بعث الله أعظم ملائكته الروح القدس ليؤدب مصطفاه من خلقه، المختار محمد، و بعث جبرئيل الأمين ليلقى فى روعه الوحي.

و إليك بعض ما

جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغه:

«و أشهد ان محمدا عبده و رسوله، أرسله بالدين المشهور، و العلم المأثور، و الكتاب المسطور، و النور الساطع، و الضياء اللامع، و الأمر الصادع. إزاحه للشبهات، و احتجاجا بالبينات، و تحذيرا بالآيات، و تخويفا بالمثلات و الناس فى فتن انجذم فيها جبل الدين و تزعزعت سوارى اليقين، و اختلف النجر، و تشتت الأمر، و ضاق المخرج، و عمى المصدر، فالهدى خامل، و العمى شامل. عصى الرحمن، و نصر الشيطان، و خذل الايمان فانهارت دعائمه، و تنكرت معالمه، و درست سبله، و عفت شركه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، و وردوا مناهله.

ص: ٢١٧

بهم سارت أعلامه و قام لواؤه. فى فتن داستهم بأخفافها، و وطئتهم بأظلافها.

و قامت على سناكبها.. فهم فيها تائهون حائرون، جاهلون مفتونون. فى خير دار و شر جيران. نومهم سهود، و كحلهم دموع. بأرض عالمها ملجم، و جاهلها مكرم». (١)

و قال: «ان الله بعث محمدا-صلى الله عليه و آله-نذيرا للعالمين، و أمينا على التنزيل، و أنتم معشر العرب على شر دين، و فى شر دار، منيخون بين حجاره خشن، و حيات صم. تشربون الكدر، و تأكلون الجشب، و تسفكون دماءكم، و تقطعون أرحامكم. الأصنام فيكم منصوبه، و الاثام بكم معصوبه» (٢).

و قال: «أرسله على حين فتره من الرسل، و طول هجعه من الأمم، و اعتزام من الفتن، و انتشار من الأمور، و تلظ من الحروب. و الدنيا كاسفه النور، ظاهره الغرور. على حين اصفرار من ورقها، و إياس من ثمرها، و اغوار من مائها. قد درست منار الهدى، و ظهرت أعلام الردى، فهى متجهمه لأهلها. عابسه فى وجه طالبها. ثمرها الفتنة، و طعامها الجيفه، و شعارها الخوف، و دثارها السيف» (٣).

و قال عليه السلام عن بعثه النبى صلى الله عليه و آله: «بعثه و الناس ضلال فى حيره، و خابطون فى فتنه. قد استهوتهم الأهواء، و استزلتهم الكبرياء، و استخفتهم الجاهليه الجهلاء.

حيارى فى زلزال من الأمر، و بلاء من الجهل. فبالغ-صلى الله عليه و آله-فى النصيحه، و مضى على الطريقه، و دعا الى الحكمه و المواعظه الحسنه» (٤).

لم يشك محمد-صلى الله عليه و آله-ان هذا وحى يوحى إليه، لان الله

ص: ٢١٨

١-١) نهج البلاغه خ ٢ ص ٤٦.

٢-٢) المصدر خ ٢٦ ص ٦٨.

٣-٣) المصدر خ ٨٩ ص ١٢١.

٤-٤) المصدر خ ٩٥ ص ١٤٠.

لا- يختار من رسله من يشك في وحيه، لم يشك إبراهيم-عليه السلام- أن رؤياه حق فبادر ليقتل ابنه، و لم يشك موسى-عليه السلام- أن الذى يكلمه عند الشجره هو الله، فأخذ يناديه بكل جوارحه، و لم تشك مريم أن الله قد رزقها غلاما زكيا، كما لم يشك عيسى بن مريم-عليهما السلام- أنه عبد الله و رسول الله الى بنى إسرائيل، فهل من المعقول أن يشك خاتم النبيين فى ذلك و هو أشرفهم و أعظمهم؟! نور الشمس دليلها، و نور العلم دليله، و اطمئنان اليقين هو ذاته شاهد صدق عليه، و الوحي أشد وضوحا من الشمس، و أبهى ضياء من العلم، و أكبر سكينه و اطمئنان من اليقين.

أو ليس الوحي من الله و الله شاهد عليه، فكيف يرتاب رسول الله فيه، أو ليس الله بقادر على أن يرى رسوله ما يجعله على يقين من أمره، أو يبعث الى الناس من لا يزال يشك فى الوحي حاشا لله!! و أنى لا يمكننى أن اصدق بتلك الروايات التى تنقل حول الرسول، و أنه قال لخديجه بعد ان نزل عليه الوحي: ما لى يا خديجه! و أخبرها الخبر، و قال: خشيت على نفسى، فقالت له: كلا..أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، و تصدق الحديث، و تحمل الكلّ و تقرى الضيف، و تعين على نوائب الدهر.

بلى. لا أستطيع أن أفهم هذا النوع من النصوص التى تخالف ظاهر القرآن، و تكون ذريعه للمستشرقين للنيل من رسول الإسلام، و أعتقد أن الرسول كان ينتظر الوحي بفارغ الصبر، فلما نزل عليه جبرئيل عزّفه الله بصدقه، فلما نودى:

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ قرأ: باسم الله الرحمن الرحيم، و كانت تلك بدايه الرساله بالرغم من أن فاتحه

الكتاب هي سورة الحمد، إلا- أنها كانت فاتحه الكتاب حسب ما قدر الله له ان يكون في صورته النهائية، بينما كانت الآيات الخمس الأوائل في سورة العلق فاتحه التنزيل. و من المعروف أن هناك فرقا بين ما أنزل في ليله القدر حين أنزل الكتاب كله و بين ما نزل منجما خلال ثلاث و عشرين عاما من دعوه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله.

من هنا

جاء في الحديث: عن الامام الصادق-عليه السلام:- «أول ما نزل على رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ وَ آخِرُهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ» (١).

و السؤال: ما هي دلالات هذه الكلمه الاولى من الوحي؟ لعل الوحي كان يفتح على البشريه عهد القراءه باعتبارها ظاهره ملازمه للإنسان بعد عهد النبي-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله-و فعلا- و بالرغم من وجود ظاهره الكتابه منذ مئات السنين قبل الإسلام إلا أنها انتشرت بالإسلام بصوره مطرده حتى أصبحت اليوم سمه الإنسان الظاهره.

و القراءه أشد وضوحا من الاستماع، لأنها تفرض التفاعل بين الإنسان و النص الذى يتلى عليه أكثر من مجرد الاستماع إليه، و ربما سمي لذلك كتاب ربنا بالقرآن.

و لكن القراءه ليست مطلوبه بصفه عامه إنما التى تكون باسم الله، لماذا؟ لان اسم الله يحدد الهدف من القراءه. لا يكون من أجل التعالى على الناس، و خدمه الطغاه و تضليل السذج من الناس، بل تكون من أجل تزكيه النفس، و خدمه الناس و هدايتهم.

ص: ٢٢٠

و حين يكون العلم -و وسيلته القراءه- باسم الله ترى الملوك صافين على أبواب العلماء، و الناس ملتفون حولهم، و هم يقودونهم في معاركهم ضد المترفين و المستكبرين.

(٢) لقد خلق الله الإنسان من علقه، من دم جامد يعلق، و من قبل خلقه من ماء مهين، ثم أكرمه حتى فضله على كثير مما خلق تفضيلاً. أيه نقله عظيمه كانت بين حالته كعلقه و دم، و بينه كإنسان يمشى سوياً على قدميه؟ إن من يعرف قليلاً عن خلقه الإنسان و ما أودع الله في جسده و روحه من آيات عظمته لا بد ان ينبهر بتلك النقلة العظيمه أليس كذلك؟ و لكن نقله عظيمه أخرى تنتظره الآن، هذه المره لا بد أن تتم هذه النقلة بعزيمه من عنده و رحمه من ربه. هي النقلة الحضاريه بين إنسان أمي و آخر يقرأ باسم ربه، و لعله لذلك جاءت الايه تذكرنا بأصل خلقه الإنسان.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ و من شكك في قدرته على أن يسمو إلى درجات عاليه فلينظر إلى نعمه الله كيف خلقه من علقه، إنه قادر على أن يبعثه خلقاً آخر بالعلم و الهدى.

(٣) تعال نفكر في أبعاد القراءه: كيف علم الله الإنسان الكتابه فأخذ ينقل تجاربه من جيل لآخر، و من أمه لأخرى، و تراكمت التجارب حتى أضحت اليوم سيلاً متدفقاً لا تكاد قنواتها العلميه على سعتها تقدر على استيعابها. أ رأيت لو لم يعلم الإنسان الكتابه هل كان إلا مثل فصيل من القرده أو من الانعام. سبحان الله! انك ترانا لا زلنا نكفر بنعمه الله، بل كلما زادت نعم الله على البشر ازدادوا كفراً بها طغياناً، فمن أجل الأ يصبح العلم سبباً للطغيان، و اداه للظلم و الفساد يذكرنا الرب بأنه أنى تقدم البشر في آفاق العلم فعليه أن يشكر ربه، و يعترف بأن الله هو

الأكرم، لأنه عَلم بالقلم، و لم يكن الإنسان شيئاً لو لم يَعلمه ربه.

إِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْمَكْرُمُ كما نقول: كل و احمد الله، أو اصبر و ربك الكريم، أو أعط و الله يخلف على المنفقين، كذلك- فيما يبدو لي- ذكرتنا الايه بأن الله هو الأكرم، فأى صفة حميده هي منه، فهو الجواد الذى أعطى الإنسان موهبه القلم، و هو الأعلى الذى لا يتسامى أحد فى مدارج العلم و الكمال إلا به.

(٤) و من آيات كرمه و حمده أنه علم الإنسان بسبب القلم فلم يكن القلم سوى وسيله، أ رأيت لو قررت أن تعلم الجدار هل يتعلم شيئاً؟ أو ليس لأنه ليس بنى أهل للتعلم؟ كذلك كلما تقدم الإنسان فى حقول العلم لا بد أن يزداد لربه تواضعاً، و لا يصبح كفرعنه المال يطغون فى الأرض و يسعون فيها فساداً.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٥) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ و هكذا جاءت النصوص ترى فى ضروره التواضع و الزهد عند العلماء:

فقد جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق- عليه السلام-: «تواضعوا لمن تعلمونه العلم، و تواضعوا لمن طلبتم منه العلم، و لا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم» (١).

عن البرقى مرفوعاً إلى أمير المؤمنين- عليه السلام- قال: قال عيسى بن مريم- عليه السلام-: يا معشر الحواريين! الى إلكم حاجه اقضوها لي، قالوا:

ص: ٢٢٢

١- ١) أصول الكافي ج ١ ص ٣٦.

قضيت حاجتك يا روح الله! فقام فغسل أقدامهم، فقالوا: كُنَّا نحن أحقّ بهذا يا روح الله! فقال: إن أحقّ الناس بالخدمة العالم، إنّما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدى فى الناس كتواضعى لكم، ثم قال عيسى -عليه السلام- بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر، وكذلك فى السهل ينبت الزرع لا فى الجبل (١).

(٦) ومشكله الإنسان أنه لا يستوعب نعم الله، فيطغى بها ويهلك نفسه بذلك وقد يهلك الآخريين معه. أ رأيت لو أعطيت قبله نوويّه لمن لا يعرف كيف يتصرف بها فطغى بها، أو يكون فى ذلك خير أم شرّ مستطير؟ كلاً إن الإنسان ليس بطبعه فى مستوى استيعاب هذه الحقيقه وهى أن العلم من عند الله و عليه الا يطغى به، أو أن المال من عنده سبحانه، و عليه أن يتصرف فيه كما يريد الله.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِغٌ (٧) متى يطغى؟ عند ما يحس أنه أصبح غتياً.

أَنْ رَأَتْهُ أَشْتَتَغْنِي أَي رَأَى نَفْسَهُ قَدْ اسْتَغْنَى، وَفِي أَدَبِ الْعَرَبِ لَا يَرْجِعُ ضَمِيرِينَ مُتَصِلِينَ إِلَى مَصْدَرٍ وَاحِدٍ، فَلَا يُقَالُ: ضَرَبَهُ، نَظَرْتَنِي، بَلْ يَقُولُونَ: ضَرَبَ نَفْسَهُ وَ نَظَرْتُ نَفْسِي، إِلَّا أَفْعَالَ الْقُلُوبِ الَّتِي تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولِينَ مِثْلَ حَسْبٍ، يَقُولُونَ:

(حسبتنى) وقال الله تعالى: «أ رأيتك» و رأى هنا ليس بمعنى النظر بالعين إذ ان

ص: ٢٢٣

ذلك من أفعال الجوارح، بل بمعنى النظر بالقلب.

و سياق الايه يهدينا الى أن خطأ علميا ينشأ عن الإنسان فيزعم أنه قد استغنى، و يتسع ذلك لاحتمالين:

الاول: أن يرى نفسه مستغنيا بما أوتى من علم فينطبق على علماء السوء كما قال سبحانه: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (١) و ينسجم ذلك أيضا مع قوله سبحانه: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى إِذَا هَذَا مِنْ شَأْنِ عِلْمَاءِ السُّوءِ وَ أَنْصَافِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يَتَصَدَّدُونَ لِأُمُورِ الدِّينِ، وَ يَأْمُرُونَ وَ يَنْهَوْنَ بِمَا تَشَاءُ أَهْوَاؤُهُمْ، وَ يَشِيرُ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ

الحديث المأثور عن الامام على -عليه السلام- أنه خرج في يوم عيد، فرأى أناسا يصلون فقال: «يا أيها الناس! قد شهدنا نبي الله في مثل هذا اليوم فلم يكن أحد يصلى قبل العيد أو قال النبي» فقال رجل: يا أمير المؤمنين! لا- انتهى أن يصلوا قبل خروج الامام؟ فقال:

«لا أريد أن أنهى عبدا إذا صلى، و لكننا نحدثهم بما شهدنا من النبي أو كما قال» (٢).

و هكذا لا ينبغي لعلماء الدين أن يفرطوا في الأمر، و التى فيما لا يتصل بالبدع الظاهره فى الامه، فقد ينهون أحدا عن عمل صالح و هم لا يشعرون، كما يفعل بعض المتصددين للشؤون الدينيه اليوم، يستغلون ثقه الناس فيهم، و فى نهيمهم عن التعاون مع المؤمنين أو عن دعم المؤسسات الخيره لأنها ليست تحت سيطرتهم، أو لأنهم يخالفون الخط الذي ينتهجه أصحاب تلك المؤسسات.

الثانى: أن يظن أنه مستغن بما أوتى من فضل الله، فيزعم أن المال هو كل شيء

ص: ٢٢٤

١- ١) آل عمران ١٨٨.

٢- ٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٦١٠.

فى حىاته؁ فلا يابه بنواقصه و نقاط ضعفه من الناحيه الدينيه اء العلميه اء الخلقيه اء الاجتماعيه؁ إنما يختصر نفسه فى زاويه المال حتى تفسد علاقته مع أهله و ذوى قرباه؁ و يتعامل معهم بروح استكباريه. لماذا؟ لأنه يملك بعض المال. كلا..

إن الثروه واحده من فرص الحياه؁ فلما ذا تضيع سائر أبعاد حياتك لها؁ أ رأيت لو كنت غتيا لا تأكل أو لا تنام أو لا تمارس الجنس. بلى. تفعل كل ذلك لأنها فرص حياتك أليس كذلك؟ فلما ذا تسجن نفسك فى ززانه الطغيان؁ و تفصلها عن إخوانك و أسرتك و سائر البشر؁ و تضيع عن نفسك التمتع بلذه العلم؁ و جمال الأدب؁ و جلال الأخلاق؁ و حتى تحرمها من كمالات الدين.

و قد أولت الايه فى أبى جهل الذى طغى بماله؁ و حاول أن ينهى رسول الله عن صلاته؁ و معروف ان أبا جهل واحد من أولئك المترفين؁ و ان فى كل عصر طاغيه يسير على خطاه؁ فكم هجمت شرطه الانظمه الفاسده على مواقع الصلاه؁ و كم ذبحوا أبنائها المؤمنين؁ و لطحوا اروقه الجوامع بدماء الصالحين الزاكيه!! (٨) ان تملك مالا أو تحوز علما أو شرفا حسن؁ بل إنك خلقت لتعمر الأرض؁ و تسخر ما فيها لمصلحتك؁ ثم تكامل روحيا عبرها؁ و لكن ان تستغنى بما تملك و تفرح؁ و تنسى نصيبك من الاخره. إنها نكسه فى وجودك؁ لأنه يحرمك عن خيرات أعدت لك.

و السؤال: كيف يتخلص الإنسان من الاحساس بالاستغناء؁ أ و ليس قلب البشر ضيق؁ و صدره حرج؁ أ و ليس قد خلق هلوعا: يطير فرحا إذا امتلك ديناراً؁ و يتميز غيضا إذا فقده! إنما يعيد الإنسان توازنه إذا تصور الاخره و ما أعد فيها من نعيم لا يقاس بما فى الدنيا؁ و ما أعد فيها من عذاب عظيم؁ فأنثذ تتضاءل فى عينه الدنيا و ما فيها؁ و لذلك

أمرنا الإسلام بزياره المقابر عند هجمه المشاكل، فمن تصور الموت و أهواله خفت عنه لسعه المشاكل، أو لم يقل الشاعر العربى: و الجرح يسكنه الذى هو آلم.

من هنا ذكرنا الرب هنا بالرجوع الى الله لأنه العلاج الأمثل لطغيان النفس.

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٩﴾ و عاد السياق الى بعض ممارسات الطغاه.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿١٠﴾ تَفَكَّرْ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ فِطْرَتِهِ لِيَحْكُمَ فِي شُؤْنِ النَّاسِ.

(١٠) أ رأيت كيف يقطع سبيل الخير، و يصد العبد عن التقرب الى الرب.

عَبْدًا إِذَا صَيَّرَ ﴿١١﴾ صَيَّرَ إِلَىٰ إِنْ الصَّلَاةِ وَ التَّعْبُدِ وَ الِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ أَبْطَلَ حَقُوقَ الْإِنْسَانِ، إِنَّهُ كَالْتَنَفَسِ، كَالطَّعَامِ، كَالسَّكَنِ كَيْفَ يَتَجَرَّأُ الْبَعْضُ سَلْبَهُ مِنَ الْبَشَرِ، حَقًّا.. إِنَّهَا جَرِيمَةٌ كَبِيرَةٌ.

و هى تكشف عن مدى الظلال الذى يبلغه الإنسان حينما يستغنى فيطغى.

(١١) قد يبرر الذى ينهى العبد عن صلاه ربه فعلته الشنيعه بأن هذه الصلاه باطله بسبب أو آخر، و لكنه لا يفكر فيما لو كانت صحيحه، و كان العبد على الهدى، فأى جريمه كبرى يكون قد ارتكب.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ كَيْفَ وَ بِأَيِّ مَقْيَاسٍ تَرَىٰ نَفْسَكَ - يَا مَنْ تَنَهَىٰ عِبَادَ اللَّهِ عَنِ صَلَاتِهِمْ - أَفْضَلَ مِنْهُمْ، فَلَعَلَّ هَذَا الَّذِي تَنَاهَا عَنْ صَلَاتِهِ إِمَامُكَ وَ قَائِدُكَ، لِأَنَّهُ يَتَأَمَّرُ

بالتقوى. و أنت تنهاه عن الصلاة؟! أو أمر بالتقوى (١٣) بينما يكون من ينهاه مكذبا بالرساله، كافرا بها.

□
أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى مَا هِيَ تَكُونُ عَاقِبَتُهُ؟ أَلَيْسَتْ النَّارُ يَصْلِيهَا مِذْمُومًا مَدْحُورًا.

(١٤) كيف يجعل نفسه مقياسا للحق و الله سبحانه يراه و يحيط علما به و بما يتعلم و بما يخطر بباله من نيه سوء؟ انه قد يخدم الناس و يبرر لهم عمله بأنه انما نهى عن الصلاة لأنها تضر الناس، أو لأنها غير متكامله أو ما أشبهه، إلا أنه لا يستطيع ان يخفى عن ربه نيته السيئه.

□
أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى □ (١٥) و تتواصل آيات الذكر تفرع هؤلاء الذين يفترون على الله كذبا، و يستكبرون في الأرض بغير الحق بأن الله سبحانه سيأخذهم بشده و عنف من نواصيهم.

□
كَلَّا لَيْسَ كَمَا يَزْعُمُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَرَاهُ. انه سبحانه يراه، و يحصى عليه ذنوبه، فيأخذه ان لم يتب أخذا شديدا.

□
لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ قَالُوا: إِذَا قَبِضْتَ عَلَيَّ شَيْءٍ وَ جَذْبَتَهُ جَذْبًا شَدِيدًا يَسْمَى سَفْعًا، و يقال: سفع

بناصيه فرسه، و انشدوا:

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم من بين ملجم مهرة أو سافع

و لعل اختيار الناصيه لأنها واجهه الإنسان و أعز ما فيه.

حينما تدخل قوه الغيب فى معادله صراع الإنسان مع نظيره تتغير المعادله كلياً، أ فليس فى ذلك ظلم؟ كلا.. لان الله سبحانه لا يفعل ذلك عبثاً، إنما بعد إنذار من عنده و تحدّ من قبل الفرد.

نَاصِيَهُ كَاذِبِهِ خَاطِئِهِ كَذَبَتْ بِالْحَقِّ، و افترت على الله، و أخطأت بالعمد فى اختيار طريقه، و تنسجم هذه الأوصاف مع علماء السوء الذين يصدون عن سبيل الله باسم الدين.

(١٧) إنهم يزعمون أن الأنداد ينفعونهم شيئاً فى ذلك اليوم الرهيب كما فى الدنيا. و يتهربون- بهذا الزعم الساذج- من شدة وقع الإنذار. كلا.. دعهم يجمعون كل من يحضر ناديتهم، و لينظروا كيف يدعو الله زبانيه العذاب! فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ يَبْدُو لِي أَنْ اسْتِخْدَام كَلِمَةِ النَّادَى الَّتِي هِيَ اسْمٌ لِمَحَلِّ الْاجْتِمَاعِ-مكان أهل النادى- للإشارة الى كل أهل النادى، كما قال سبحانه: وَ سِئَلِ الْقَرْيَةَ أَيُّ كَلِمَةٍ مِنَ الْقَرْيَةِ.

(١٨) سَدَّعُ الزُّبَانِيَّةَ قالوا: العرب تسمى الشرطه بالزبانيه، المأخوذه من كلمه زين، بمعنى الدفع،

ص: ٢٢٨

و انشدوا:

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى زبانيه غلب عظام حلومها

و فى نزول الايه

ورد عن ابن عباس قال: لما أتى أبو جهل رسول الله انتهره رسول الله، فقال أبو جهل: أنت تنتهرنى يا محمد! فوالله لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا منى، فانزل الله سبحانه: فليدع ناديه (١).

و

قد روى عن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى أبى جهل حينما صفع ابن مسعود عند ما تلا على قريش سورة الرحمن، فعاد ابن مسعود الى النبى باكيا، فنزل جبرئيل يبشر الرسول-صلى الله عليه و آله- بالفتح، و كان من أمر ابن مسعود أنه مر فى يوم بدر على أبى جهل ينازع الموت فجلس على صدره ليحز رأسه، فقال له: لقد جلست مجلسا عاليا، فنهره ابن مسعود قائلا: الإسلام يعلو و لا يعلو عليه، فلما قطع رأسه أخذ يجره على الأرض من ناصيته، و هكذا تحققت بشاره جبرئيل، و تؤولت الايه فى الدنيا قبل الاخره.

(١٩) و فى ختام السوره ينهى القرآن من طاعه أولئك الطغاه الذين استغنوا بما لديهم من مال أو معرفه، لان طاعتهم عصيان لله، و قد يكون شركا ظاهرا أو خفيا، و هو- بذلك- يحرم الإنسان من التقرب الى الله سبحانه.

كَلَّا لَا تُطْعِيهِ وَاشِـئْ جُدْ وَ أَفْتَرِبْ وَ حِينَ يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ بِطَغَاهِ الْمَالِ وَ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ بِالرَّغْمِ مِمَّا لَهُمْ مِنْ إِغْرَاءٍ وَ تَضْلِيلٍ وَ إِرْهَابٍ، يستعيد استقلاله الذى هو جوهر إنسانيته، و يستعدّ نفسيا للسجود، و من خلال السجود للتقرب الى الله.

ص: ٢٢٩

و الايه تهدينا: إلى أن السجود معراج البشر إلى الله، فإذا سجدت اقتربت الى الله، بلى. أليس ذات الإنسان فقر و عجز و ذلّه، أو ليس يتحسس البشر هذه الحقيقه عند السجود، عند ما يضع ناصيته فوق التراب تذللًا؟ وإذا عرف الإنسان حقيقه نفسه رفع حجاب الكبير الذي يفصله عن معرفه ربه، و استشعر بفيض نوره يغمر فؤاده، من هنا

جاء في الأثر المروى عن النبي -صلى الله عليه و آله- «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا كان ساجدا» (١).

و

روى عن الامام الرضا-عليه السلام-: «أقرب ما يكون العبد من الله و هو ساجد، و ذلك قوله: عز و جل: وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (٢).

و قد أوجب فقهاء الإسلام السجده عند تلاوه هذه الايه، و اعتبروا سجده سورہ العلق من العزائم الأربع التي يفرض فيها السجود، و الثلاثه الاخرى: الم السجده و «فصلت» و «النجم».

و هكذا

روى عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام انه قال: عزائم السجود أربع: الم و حم تنزيل من الرحمن الرحيم و النجم و اقرأ باسم ربك.

اما ذكر السجده

فقد روى ان الامام الصادق عليه السلام يقول في سجده العزائم: «لا إله إلا الله حقًا حقًا، لا إله إلا الله ايمانًا و تصديقًا، لا إله إلا الله عبوديه و رقًا، سجدت لك يا رب! تعبدًا و رقًا، لا مستكفًا و لا مستكبرًا بل أنا عبد ذليل خائف مستجير، ثم يرفع رأسه و يكبر» (٣).

ص: ٢٣٠

١-١) المصدر ص ٦١٢.

٢-٢) المصدر ص ٦١١.

٣-٣) المصدر.

سوره القدر

اشاره

ص: ۲۳۱

فضل السوره

-١-

في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن سيف بن عميره عن أبي جعفر -عليه السلام-: «من قرأ أنا أنزلناه في ليله القدر فجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله عز و جل، و من قرأها سرًا كان كالمشحط بدمه في سبيل الله، و من قرأها عشر مرات محى الله عنه ألف ذنب من ذنوبه. « ٢-و

باسناده عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال: «من قرأ أنا أنزلناه في ليله القدر في فريضه من فرائض الله نادى مناد: يا عبد الله! اغفر الله لك ما مضى فاستأنف العمل. «

ص: ٢٣٣

فى مهج الدعوات لابن طاوس رحمه الله انه قيل للصادق -عليه السلام-: بما احترست من المنصور عند دخولك عليه؟ فقال: «بالله وبقراءه إنا أنزلناه ثم قلت: يا الله يا الله سبعا، إني أتشفع إليك بمحمد و آله -صلى الله عليه و آله- من أن تقلبه لى، فمن ابتلى بذلك فليصنع مثل صنعى، و لولا أننا نقرؤها و نأمر بقراءتها شيعتنا لتخطفهم الناس و لكن هى و الله لهم كهف».

تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٦١٢

ص: ٢٣٤

لأنَّ الحقيقه واحده تنبسط فتصبح مفضّلات، و تتركز فتكون هدى و بينات، فإنَّ القرآن قد يبسطها عبر آياته كما فى سورة البقره، و قد يجملها فى سورة قصيره كما فى سورة القدر التى لو تدبرنا فيها بعمق لقرأنا فيها آيات الكتاب جميعا.

لقد أنزل الله كتابه فى ليله القدر التى هى ليله عظيمه لا- يكاد يحيط العقل بأبعادها، لأنها خير من ألف شهر. لماذا؟ لأنها ميعاد الإنسان الصالح مع ملائكه الله و أعظم منهم مع الروح.. و هم حين يهبطون ينزلون بما يقدر الله من كل أمر.

فى هذه الليله التى تتواصل ملائكه الله و الروح مع عباد الله الصالحين فى الأرض تتجلى رحمه الله و بركاته و مغفرته التى تتمثل فى كمله (السلام) و تستمر الليله حتى مطلع الفجر.

و هكذا بيّنت هذه السوره كيف يتمّ الاتصال بين الإنسان و بين ملائكه الله و الروح.. و هذه الصله التي تتجلّى في القرآن كما في الأقدار الحكيمه و البركات هي من أعظم الحقائق القرآنيه.

ص: ٢٣٦

[سوره القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَهُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَهُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

بينات من الآيات:

(١) عند ما انهمر فيض الوحي على قلب الرسول-صلى الله عليه وآله- في ليله القدر في شهر رمضان، وتنزلت ملائكة الرحمه و الروح بالقرآن، رساله السلام، و بشير الرحمه، عندئذ خلد الله هذه المناسبه المباركه التي عظمت في السموات و الأرض، و جعلها ليله مباركه خيرا من ألف شهر.

انها حقا عيد الرحمه، فمن تعرض لها فقد حظى بأجر عظيم!! فقال الله سبحانه:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (١).

ص: ٢٣٨

كذلك نزل القرآن كله على قلب الرسول في تلك الليلة، ثم نزل بصورة تدريجية طيله ثلاث و عشرين عاما، لتأخذ موقعها من النفوس، و ليكون كتاب تغيير بينى الرسول به أمه و حضاره، و مستقبلا مشرقا للانسانيه.

و كذلك قال ربنا سبحانه: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ (١).

و معروف أن القرآن تنزل بصورته المعهوده فى أيام السنه جميعا، فله إذا نزله أخرى جمله واحده.

و السؤال: لماذا سميت هذه الليلة بليله القدر؟ يبدو أن أهم ما فى هذه الليلة المباركه تقدير شؤون الخلائق، و قد استنبط اللفظ منه، فهى ليله الأقدار المقدره، كما قال ربنا: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ».

و قال بعضهم: بل لأنها ليله جليله القدر، قد أنزل الله فيها كتابا قديرا، و لان الذى يحييها يكون عند الله ذا قدر عظيم.

(٢) من ذا الذى يستطيع أن يدرك أبعاد تلك الليلة التى باركها الله لخلقها بالوحى، و جعلها زمانا لتقدير شؤون العالمين، من ذا الذى يدرك عظمه الوحى، و جلال الملائكه، و معانى السلام الالهى. إنها ليست فوق الإدراك بصورة مطلقه، و لكنها فوق استيعاب الإنسان لجميع أبعادها، و على الإنسان ألا يتصور أنه قد بلغ علم ليله القدر بمجرد معرفه بعض أبعادها، بل يسعى و يسعى حتى يبلغ المزيد من معانيها، و كلما تقدم فى معرفتها كلما استطاع الحصول على مغانم أكبر منها.

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ

ص: ٢٣٩

سبق القول من البعض: أن هذه الجملة وردت في القرآن لبيان أهميه الحقيقه التي تذكر بعدها.

بينما تترك الحقيقه مجمله إذا ذكرت عباره و ما يدريك.. هكذا قالوا، و اعتقد أنّ كلنا الجملتين تفيدان تعظيم الحقيقه التي تذكر بعدها.

(٣) كيف نعرف أهميه الزمان؟ أليس عند ما يختصر المسافه بيننا و بين أهدافنا، فإذا حصلت في يوم على مليون دينار، و كنت تحصل عليه خلال عام أليس هذا اليوم خير لك من عام كامل؟ كذلك ليله القدر تهب للإنسان الذي يعرف قدرها ما يساوى عمرا مديدا: ثلاثا و ثمانين سنه و أربعه أشهر، و بتعبير أبلغ: ألف شهر.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ أَجَلُ الْوَاحِدِ مِنْهُ مَسْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ قَدْ يَكُونُ قَصِيرًا، قَدْ لَا يَبْلُغُ الْوَاحِدُ مِنْهُ مَعِشَارَ أَهْدَافِهِ فِيهِ، فَهَلْ يُمْكِنُ تَحَدُّي هَذَا الْوَاقِعِ؟ بَلَى. وَ لَكِنْ لَيْسَ بِالصُّورَةِ الَّتِي يَتَخَيَّلُهَا الْكَثِيرُ، حَيْثُ يَتَمَنُّونَ تَطْوِيلَ عُمْرِهِمْ، وَ قَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ يَحْقُقُونَ هَذِهِ الْأَمْنِيَةَ، لِأَنَّ عَوَامِلَ الْوَفَاءِ عَدِيدَةٌ وَ أَكْثَرُهَا خَارِجٌ عَنِ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ، فَمَا هُوَ إِذَا السَّبِيلُ إِلَى تَمْدِيدِ الْعُمُرِ؟ إِنَّمَا بِتَعْمِيقِهِ، وَ مَدَى الْإِنْتِفَاعِ بِكُلِّ لِحْظَةٍ لِحْظَةٍ مِنْهُ، تَصَوُّرَ لَوْ كُنْتَ تَمْلِكُ قِطْعَةً صَغِيرَةً مِنَ الْأَرْضِ، وَ لَا تَسْتَطِيعُ تَوْسِيعَهَا فَكَيْفَ تَصْنَعُ؟ إِنَّكَ سَوْفَ تَبْنِي طَوَابِقَ فِيهَا بَعْضُهَا تَحْتَ الْأَرْضِ وَ بَعْضُهَا يَضْرِبُ فِي الْفِضَاءِ وَ قَدْ تَنَاطَحَ السَّحْبُ، كَذَلِكَ عَاشَ بَعْضُ النَّاسِ سِنِينَ مَعْدُودَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَكِنْهُمْ صَنَعُوا عِبْرَهَا مَا يَعَادِلُ قُرُونًا مَتَطَاوَلَهُ، مِثْلًا عُمُرَ رَسُولِنَا الْكَرِيمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - لَا يَتَجَاوَزُ الثَّلَاثَ وَ السِّتِينَ، وَ أَيَّامَ دَعْوَتِهِ ثَلَاثَ وَ عِشْرُونَ عَامًا مِنْهَا، وَ لَكِنْهَا أَبْعَدُ أَثْرًا مِنْ عُمُرِ نُوحٍ الْمَدِيدِ، بَلْ مِنْ سَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا وَ هَكَذَا خَصَّ اللَّهُ أُمَّتَهُ بِمَوْهَبِهِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ،

التي جعلها خيرا من الف شهر، ليقدروا على تمديد أعمارهم في البعد الثالث (أى بعد العمق) و لعل الخبر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه و آله يشير إلى ذلك،

فقد روى أن رسول الله -صلى الله عليه و آله و سلم- أرى أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمر مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليله القدر، و جعلها خيرا من ألف شهر. (١)

و

في حديث آخر: أنه ذكر لرسول الله رجل من بنى إسرائيل أنه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب من ذلك رسول الله عجبا شديدا، و تمنى أن يكون ذلك في أمته، فقال: «يا رب! جعلت أمتي أقصر الناس أعمارا، و أقلها أعمالا، فأعطاه الله ليله القدر، و قال: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ الَّذِي حَمَلَ الْإِسْرَائِيلِيُّ السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَكَ وَ لَامْتِكَ مِنْ بَعْدِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي كُلِّ رَمَضَانَ» (٢) إنك قد تحيي ليله القدر بالطاعة فيكتب الله اسمك في السعداء، و يحرم جسدك على نار جهنم أبدا، و ذلك بما يوفقك له من إصلاح الذات إصلاحا شاملا، من هنا

جاء في الدعاء المأثور في ليالي شهر رمضان مجموعه من البصائر التي تتحول بتكرار تلاوتها إلى أهداف و تطلعات يسعى نحوها المؤمن بجد و مثابره، و يجتهد في طلبها من ربه.

«اللهم أعطني السعه في الرزق، و الأمن في الوطن، و قره العين في الأهل و المال و الولد، و المقام في نعمك عندي و الصحه في الجسم، و القوه في البدن، و السلامه في الدين، و استعملني بطاعتك و طاعه رسولك محمد -صلى الله عليه و آله- أبدا ما استعمرتني، و اجعلني من أوفر عبادك عندك نصيبا

ص: ٢٤١

١-١ (١) القرطبي/ج ٢٠-ص ١٣٣

٢-٢ (٢) نور الثقلين/ج ٥-ص ٦١٥

فى كل خير أنزلته و تنزله فى شهر رمضان فى ليله القدر» (١) و هكذا ينبغى أن يكون هدفك فى ليله القدر تحقيق تحوّل جذرى فى نفسك، تحاسب نفسك بل تحاكمها أمام قاضى العقل، و تسجل ثغراتها السابقه، و انحرافات الراهنه، و تعقد العزم على تجاوز كل ذلك بالندم من ارتكاب الاخطاء، و العزم على تركها و الالتجاء الى الله ليغفر لك ما مضى و يوفقك فيما يأتى.

و قد جاء فى تأويل هذه الايه: انها نزلت فى دوله الرسول التى كانت خير من دول الظالمين من بنى أميه، حيث

نقل الترمذى عن الحسن بن على عليهما السلام:

«أن رسول الله-صلى الله عليه و آله-أرى بنى أميه على منبره فساءه ذلك، فنزلت إِذَا أُعْطِيَ آكَ الْكَوْثَرَ يَعْنِي نَهْرًا فِي الْجَنَّةِ، وَ نَزَلَتْ إِذَا أُنزِلَتْ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يَمْلِكُهَا بَعْدَكَ بَنُو أَمِيهِ» (٢) و كانت حكمومه بنى أميه الف شهر لا تزيد و لا تنقص.

و هكذا فضيله حكمومه العدل و أثرها العظيم فى مستقبل البشريه أكثر من ألف شهر من حكمومه الجور.

(٤) لماذا أمست ليله القدر خيرا من ألف شهر؟ لأنها ملقى أهل السماء بأهل الأرض، حيث يجددون ذكرى الوحي، و يستعرضون ما قدر الله للناس فى كل أمر.

تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَ الْكَلِمَةُ أَصْلُهَا تَنْزَلُ، وَ صِيغَتُهَا مُضَارِعٌ تَدُلُّ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ، فَتَسْتَوْحِي مِنْهَا:

ص: ٢٤٢

١- ١) كلمات من دعاء أبى حمزه الثمالى المأثور لاسحار شهر رمضان/انظر مفاتيح الجنان-ص ١٩٦

٢- ٢) القرطبي/ج ٢٠-ص ١٣٣

أن ليله القدر لم تكن ليله واحده فى الدهر، وإنما هى فى كل عام مره واحده، و لذلك أمرنا النبى -صلى الله عليه و آله- بإحيائها.

فقد جاء فى الأثر عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنه لما حضر شهر رمضان -و ذلك فى ثلاث بقين من شعبان- قال لبلال: «ناد فى الناس» فجمع الناس، ثم صعد المنبر، فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس! إن هذا الشهر قد خصكم الله به، و حضركم، و هو سيد الشهور، ليله فيه خير من ألف شهر» (١) و

روى عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لابن العباس: «ان ليله القدر فى كل سنه و انه ينزل فى تلك الليله أمر السنه، و لذلك الأمر و لانه بعد رسول الله» فقال ابن عباس من هم؟ قال (عليه السلام) «أنا و أحد عشر من صلبى» (٢) و الرُّوحُ ما هو الروح؟ هل هو جبرائيل -عليه السلام- أم هم أشراف الملائكه؟ أم هم صنف أعلى منهم و هم من خلق الله، أم هو ملك عظيم يؤيد به أنبياءه؟ استفاد بعضهم من الايه التاليه: أن الروح هو جبرئيل -عليه السلام- حيث قال نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (٣) و استظهر البعض من الايه التاليه: أن الروح هى الوحي، فان الملائكه يهبطون

ص: ٢٤٣

١- ١) نور الثقلين / ج ٥- ص ٦١٨

٢- ٢) المصدر / ص ٦١٩

٣- ٣) الشعراء / ١٩٣

فى ليله القدر به قال الله تعالى: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (١) و جاء فى حديث شريف ما يدل على أن الروح أعظم من الملائكة،

فقد روى عن الامام الصادق-عليه السلام- أنه سئل هل الروح جبرئيل عليه السلام؟ فقال:

جبرئيل من الملائكة، و الروح أعظم من الملائكة، أليس أن الله عز و جل يقول:

تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ (٢) و قد قال ربنا سبحانه: وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ مما يدل على أن الروح هو ما يؤيد الله به أنبياءه.

و يبدو أن الروح خلق نورانى عظيم الشأن عند الله، و أن الله ليس يؤيد أنبياءه -عليهم السلام- به فقط، و إنما حتى الملائكة و منهم جبرائيل يؤيدهم به، و بهذا نجمع بين مختلف الاحتمالات و الادله، و الله العالم.

فِيهَا يَا ذَنْ رَبِّهِمْ عَظِيمَةٌ تَلِكِ اللَّيْلَةَ الَّتِي تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ فِيهَا، و عظيمه لان الأعظم منهم و هو الروح يتنزل أيضا، و لكن لا ينبغي أن نتوجه الى عظمه الروح بعيدا عن عظمه الخالق سبحانه، فإنهم عباد مكرمون، مخلوقون مربوبون، و ليسوا أبدا بأنصاف آلهه، و ليس لهم من الأمر أى شىء و لذلك فإن تنزلهم ليس باختيارهم و إنما بإذن ربهم.

مِنْ كُلِّ أَمْرٍ قَالُوا: مَعْنَاهُ لِأَجْلِ كُلِّ أَمْرٍ، أَوْ بِكُلِّ أَمْرٍ، فَاَلْمَلَائِكَةُ -حسب هذا التفسير- يأتون لتقدير كل أمر، و لكن أليس الله قد قدر لكل أمر منذ خلق اللوح و أجرى عليه

ص: ٢٤٤

١- ١) الشورى ٥٢/

٢- ٢) تفسير نمونه/ ج ٢٦- ص ١٨٤ نقلا عن تفسير البرهان/ ج ٤- ص ٤١٨

و ماذا تفعل غدا، و كم حال القضاء بينك و بين ما كنت تتمناه، و كم حجزك القدر عن خططك التي عقدت العزمات على تطبيقها؟ بلى. إن الله منح الإنسان قدرا من المشيئة لكي يكون مصيره بيده، إما إلى الجنة و إما إلى النار، و لكن ذلك لا يعنى أنه سيدخل الجنة بقوته الذاتية أو النار بأقدامه، و إنما الله سبحانه هو الذى يدخله الجنة بأفعاله الصالحة، أو يدخله النار بأفعاله الطالحة.

□ □ □
إذا الإنسان يختار، و لكن الله سبحانه هو الذى يحقق ما اختاره من سعادته و شقاءه، و أن الله لا يُعَيِّرُ ما يَقُومُ حَتَّى يُعَيِّرُوا ما بَأَنفُسِهِمْ، و هاهنا تتركز أهمية الدعاء و بالذات فى ليله القدر التي هى ربيع الدعاء، و قد تتغير حياة الإنسان فى تلك الليلة تماما، فكم يكون الإنسان محروما و شقيا إن مرت عليه هذه الليلة دون أن يستفيد منها شيئا.

و يتساءل البعض: أليس هذا يعنى الجبر بذاته؟ فإذا كانت ليله تحدد مصير الإنسان فلما ذا العزم و السعى و الاجتهاد فى سائر أيام السنة؟! كلا.. ليس هذا من الجبر فى شيء، و نعرف ذلك جيّدا إذا و عينا البصائر التالية:

البصيره الاولى: يبدو أن التقدير فى هذه الليلة لا يطال كل جوانب الحياه، فهناك ثلاثه أنواع من القضايا: نوع قدر فى ليله واحده فى تاريخ الكون،

فقد روى عن الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- قال: «قال رسول الله -صلى الله عليه و آله و سلم-: أ تدرى ما معنى ليله القدر؟ فقلت: لا يا رسول الله! فقال: إن الله تبارك و تعالى قدّر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكان فيما

قَدْر-عَزَّ و جَل-ولايتك و ولايه الائمه من ولدك الى يوم القيامة» (١) و النوع الثانى: تقديرات تتم فى السنه التى يعيشها الإنسان، بينما النوع الثالث: تبقى مفتوحه تخضع لمشيئه الإنسان و هى الفتنه، مثلا: إن الله يقدر للإنسان فى ليله القدر الشروه، أما كيف يتعامل الإنسان مع الشروه هل ينفق منها أم يبخل بها و يطغى، فان ذلك يخضع لمشيئه الإنسان و به يتم الابتلاء، كذلك يقدر الله للإنسان المرض أما صبر المريض أو جزعه فانه يتصل بإرادته.

و مع ذلك فإن لله البدء، إذ لا شىء يحتم على ربنا سبحانه، و قد قال سبحانه:

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٢) و

قد جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام قال: «إذا كانت ليله القدر نزلت الملائكه و الروح و الكتبه الى السماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من قضاء الله فى تلك السنه، فإذا أراد الله أن يقدم شيئا أو يؤخره، أو ينقص أمر الملك أن يمحو ما شاء، ثم أثبت الذى أراد» قلت: و كل شىء هو عنده و مثبت فى كتاب؟ قال: «نعم» قلت فأى شىء يكون بعده؟ قال: «سبحان الله! ثم يحدث الله أيضا ما يشاء تبارك و تعالى» (٣).

هكذا تبقى كلمه الله هى العليا، و مشيئته هى النافذه، و لكن الاتكال على البدء، و تفويت فرصه ليله القدر نوع من السداجه، بل من السفه و الخسران.

البصيره الثانیه: أن الله يقدر لعباده تبعا لحكمته البالغه و لقضائه العدل، فلا يقضى لمؤمن صالح متبتل ما يقدر لكافر طالح، و ما ربك بظلام للعبيد. و هكذا

ص: ٢٤٧

١-١ (١) المصدر/ص ٦٢٩

٢-٢ (٢) الرعد ٣٩

٣-٣ (٣) تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٣١

يؤثر الإنسان في مصير نفسه بما فعله خلال العام الماضي، و ما يفعله عند التقدير في ليله القدر، و ما يعلمه الله من سوء اختياره خلال السنه، مثلاً: يقدر الله لطاغوت يعلم أن لا يتوب بالعذاب في هذه السنه لأنه سوف يظلم الناس خلالها، و لو افترضنا أنه وفق للتوبه و لم يظلم الناس خلالها، فان لله البدء في أمره، و يمحو عنه السقوط و يمد في ملكه، و قد قال ربنا سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١) البصيره الثالثه: أن الناس يزعمون أن هناك احداثا تجري عليهم، لا صنع لهم فيها كموت عزيز، و الاصابه بمرض عضال، و الابتلاء بسطان جائر، أو بالتخلف، أو بالجفاف، و لكن الأمر ليس كذلك إذ أن حتى هذه الظواهر التي تبدو أنها خارج إطار مشيئه الإنسان انما تقع بإذن الله و تقديره و قضائه، و أن الله لا يقضى بشيء إلا حسبما تقتضيه حكمته و عدالته، و من عدله أن يكون قضاؤه و تقديره حسب ما يكسبه العباد، أو لم يقل ربنا سبحانه: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (٢) و ان في ذلك لكرامه بالغه لمشيئه الإنسان أن يجعل الله تقديره وفق قرار ما، أ ليس كذلك.

(٥) السلام كلمه مضيئه تغمر الفؤاد نورا و بهجه، لأنها تتسع لما تصبو إليه النفس، و تتطلع نحوه الروح، و يبتغيه العقل، فلا يكون الإنسان في سلام عند ما يشكو من نقص في أعضاء بدنه، أو شروط معيشته، أو تطلعات روحه، فهل للمريض سلام، أم للمسكين عافيه، أم للحسود أمن؟ كلاً.. إنما السلام يتحقق

ص: ٢٤٨

١-١) الرعد ١١/

٢-٢) الروم ٤١/

بتوافر الكثير الكثير من نعم الله التي لو افتقرنا إلى واحده منها فقدنا السلام. أو لم تعلم كم مليون نعمه تتزاحم على بدنك حتى يكون في عافيه، و كم مليون نعمه تحيط بمجمل حياتك و تشكلان معا سلامتها، و ليله القدر ليله السلام، حيث يقول ربنا سبحانه:

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ حينما تنسب هذه الموهبه الالهيه الى الزمن نعرف أنها تستوعبه حتى لتكاد تفيض منه، فالليل السلام كل لحظاته سلام لكل الأنام، كما اليوم السعيد كله هناء و فلاح، بينما اليوم النحس تتفجر النحوسه من أطرافه.

فما ذا يجرى في ليله القدر حتى تصبح سلاما الى مطلع الفجر؟ لا- ريب أن الله سبحانه يغفر في تلك الليله لفئام من المستغفرين، و ينقذهم -بذلك- من نار جهنم، و أى سلام أعظم من سلامه الإنسان من عواقب ذنوبه في الدنيا و الاخره.

من هنا يجتهد المؤمنون في هذه الليله لبلوغ هذه الامنيه و هى العتق من نار جهنم، و يقولون بعد ان ينشروا المصحف أمامهم:

«اللهم إني أسألك بكتابك المنزل و ما فيه، و فيه أسمك الأ-كبر، و أسماؤك الحسنى و ما يخاف و يرجى أن تجعلنى من عتقائك من النار» (١) كذلك يقدر الله للإنسان العافيه فيها، و إتمام نعم الله عليه، و

قد سأل أحدهم النبى -صلى الله عليه و آله-: أى شىء يطلبه من الله فى هذه الليله فأجابه -حسب الروايه- «العافيه» (٢)

ص: ٢٤٩

١- (١) مفاتيح الجنان/ص ٢٢٥

٢- (٢) المصدر/ص ٢٢٦

وقد تدخل على فرد هذه الليلة و هو من الأشقياء فيخرج منها سعيدا، أو ليست الليلة سلاما؟ من هنا ينبغي للإنسان أن يدعو فيها بهذه الكلمات الشريفة:

اللهم امدد لي في عمري، و أوسع لي في رزقي، و أصح لي جسمي، و بلّغني أمني، و إن كنت من الأشقياء فامحني من الأشقياء، و اكتبني من السعداء، فانك قلت في كتابك المنزل على نبيك المرسل -صلواتك عليه و آله-: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» (١) و في هذه الليلة يقدر الله الرزق لعباده، و هو جزء من السلام و الأمن، و على الإنسان أن يطلب منه سبحانه التوسعة في رزقه.

كما يقدر الأمن و العافية و الصحة و الذرية و كلها من شروط السلام.

حقا.. إن المحروم هو الذي يحرم خيرها كما

جاء في حديث مأثور عن فاطمة الزهراء -عليها السلام- أنها كانت تأمر أهلها بالاستعداد، لاستقبال ليله ثلاث و عشرين من شهر رمضان المبارك بأن يناموا في النهار لئلا يغلب عليهم النعاس ليلا و تقول: «محروم من حرم خيرها» (٢) و قال البعض: أن معنى السلام في هذه الآية: أن الملائكة يسلمون فيها على المؤمنين و المتجهدين في المساجد، و أن بعضهم يسلم على البعض، و قيل: لأنهم يسلمون على إمام العصر -عليه السلام- و هم يهبطون عليه.

ليله القدر متى هي؟

إذا كان القرآن قد نزل في شهر رمضان و في ليله القدر حسب آيتين في القرآن،

ص: ٢٥٠

١-١ المصدر/ص ٢٣٥

٢-٢ المصدر/ص ٢٣٦

فإن ليله القدر تقع في هذا الشهر الكريم، و لكن متى؟

جاء في بعض الأحاديث:

«التمسوها في العشر الأواخر» (١) و

روى عن الامام الباقر-عليه السلام- أنه قال في تفسير **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ** قال: «نعم. ليله القدر و هي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلا- في ليله القدر» (٢) و جاء في حديث آخر تحديد واحده من ليلتين: إحدى و عشرين و ثلاث و عشرين،

فقد روى ابو حمزه الثمالى، قال: كنت عند أبى عبد الله الامام الصادق -عليه السلام- فقال له أبو بصير: جعلت فداك! الليله التى يرجى فيها ما يرجى؟ فقال: «فى إحدى و عشرين أو ثلاث و عشرين» قال: فإن لم أقو على كليهما؟ فقال: «ما أيسر ليلتين فيما تطلب؟» قلت فربما رأينا الهلال عندنا و جاءنا من يخبرنا بخلاف ذلك من أرض أخرى؟ قال: «ما أيسر أربع ليال تطلبها فيها؟» قلت: جعلت فداك! ليله ثلاث و عشرين ليله الجهني؟ (٣) فقال:

«ان ذلك ليقال» ثم قال: «فاطلبها فى ليله إحدى و عشرين و ثلاث و عشرين، و صلّ فى كلّ واحده منهما مائه ركعه، و أحيهما- إن استطعت- إلى النور، و اغتسل فيهما» قال قلت: فان لم أقدر على ذلك و أنا قائم، قال: «فصل و أنت جالس» قال قلت فان لم أستطع، قال: «فعلى فراشك، و لا عليك أن تكحل أول الليل بشيء من النوم، إن أبواب السماء تفتح فى رمضان، و تصفد الشياطين، و تقبل أعمال المؤمنين، نعم الشهر رمضان كان يسمى على عهد رسول الله:

المرزوق» (٤)

ص: ٢٥١

١- ١) حسب روايه عن رسول الله صلى الله عليه و آله تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٦٢٩

٢- ٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٢٥.

٣- ٣) سوف نذكره إنشاء الله.

٤- ٤) المصدر/ص ٦٢٥.

وقد استفاضت أحاديث النبي و أهل بيته في إحياء هاتين الليلتين، إلا أن حديثا يروى عن رسول الله يحدده في ليله ثلاث و عشرين، حيث يرجى أن تكون هي ليله القدر حيث

قال عبد الله بن أنيس الانصارى المعروف بالجهنى لرسول الله -صلى الله عليه و آله-: أن منزلى ناء عن المدينة فمرنى بليله أدخل فيها فأمره بليله ثلاث و عشرين. (١)

و يبدو من بعض الأحاديث: أن ليله القدر الحقيقه هي ليله ثلاث و عشرين، بينما ليله التاسع عشر و واحد و عشرين هما وسيلتان إليها، من وفق للعباده فيهما نشط في الثالثه، و كان أقرب الى رحمه الله فيها.

هكذا

روى عن الامام الصادق-عليه السلام- أنه قال لمن سأله عن ليله القدر: «اطلبها في تسع عشر و إحدى و عشرين، و ثلاث و عشرين» (٢) و

جاء في حديث آخر: أن لكل ليله من هذه الثلاث فضيله و قدرا،

فقد روى عن الامام الصادق-عليه السلام- أنه قال: «التقدير في ليله القدر تسعه عشر، و الإبرام في ليله إحدى و عشرين، و الإمضاء في ليله ثلاث و عشرين» (٣) و

جاء في علامات ليله القدر: «أن تطيب ريحها، و ان كانت في برد دفئت، و إن كانت في حرّ بردت فطابت» (٤) و

عن النبي -صلى الله عليه و آله-: «أنها ليله سمحه، لا حاره و لا بارده، تطلع الشمس في صبيحتها ليس لها شعاع» (٥) نسأل الله أن يوفقنا لهذه الليله الكريمه و يقدر لنا السعاده فيها.

ص: ٢٥٢

١- (١) تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٦٢٦.

٢- (٢) المصدر/ ص ٦٢٨.

٣- (٣) المصدر/ ٦٢٧.

٤- (٤) المصدر/ ٦٢٣.

٥- (٥) المصدر.

سوره البينه

اشاره

ص: ۲۵۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله الصادق-عليه السلام-قال: «من قرأ سوره لم يكن الذين كان بريئا من الشرك، و أدخل في دين محمد-صلّى الله عليه وآله- و بعثه الله-عز و جل-مؤمنا، و حاسبه حسابا يسيرا» و

عن أبي الدرداء قال:قال رسول الله-صلّى الله عليه وآله-: «لو يعلم الناس ما فى لم يكن الذين كفروا لعطّلوا الأهل و المال و تعلموها»فقال رجل

ص: ٢٥٥

من خزاعه: ما فيها من الأجر يا رسول الله؟ قال: «لا يقرأها منافق أبدا، ولا عبد في قلبه شك في الله عز وجل، والله إن الملائكة المقربين ليقرونها منذ خلق الله السموات والأرض لا يفترون من قراءتها، وما من عبد يقرأها بليل إلا بعث الله ملائكة يحفظونه في دينه ودينه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإن قرأها نهارا أعطى عليها من الثواب مثل ما أضاء عليها النهار، وأظلم عليه الليل».

تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٦٤٢

ص: ٢٥٦

كلا..لن يقدر الإنسان الخروج من نفق الضلال بغير هدى من الله(البته)، و لا يكره الله الناس على اتباع البيئه حينما تأتيهم،فترى بعضهم يهتدون بها، و أكثرهم يضلون عنها بأهوائهم و هكذا اختلفوا.

كلا..ليست خلافاتهم فى البيئه،لان البيئه قد أمرتهم بعباده الله وحده بعيدا عن أى خلاف.

حول هذه المحاور الثلاث جاءت آيات سوره البيئه التى خصت بصائر كثيره فصلت فى الكتاب الكريم،و أوضحت كذلك صفات البيئه:انها تتمثل فى رسول يحمل من الله كتابا طاهرا من أى زيف أو باطل،و هو يدعو الى توحيد الله الخالص من أى شائبه مادّيه.

و هذا الخلاف الذى انتشر بينهم يرجع الى القرآن،و هو يحكم بأن شر البريه الذى يكفر برسالات الله،سواء كان من أهل الكتاب أو من المشركين،و أن خير

البريه هم المؤمنون الذين يجزيهم الله بجنات عدن، و يرضى عنهم، و يرزقهم الرضا عنه، كل ذلك لخشيتهم من الله.

ص: ٢٥٨

[سوره البينه (٩٨): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

بينات من الآيات:

(١) لقد أنعم الله على الإنسان بالعقل، و فطر نفسه على الايمان، بيد أنه ينفلت عن ظلال و غي، و لا يكفيه ما لديه من فطره و عقل، بل يحتاج الى تذكره الوحي و دعوه الرسول، و أنى له ذلك و هو يتعرض لتيار عنيف من شهوات نفسه، و وساوس شيطانه، و تضليل أدياء الدين، و قمع أولى السلطه و الثروه. ألا ترى كيف لا يؤمن إلا نفر قليل بالرغم من أن الله ينزل الوحي، و يدعوهم إليه داعى الفلاح، و يخوض الرسول و المؤمنون صراعا شاملا فى سبيل الدعوه.

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَ يبدو أن الايه هذه التى صعبت على فهم بعض المفسرين حتى اعتبرها أعتد آيه، إنما تذكرنا و بعبارات بسيطه و بينه بضروره الرساله الالهيه، فمن دون رساله

الإسلام هل كان من الممكن إزاله تلك الحجب الكثيفه التي تراكمت عبر عصور الظلمات فوق بعضها، و منعت إناره العقل و هدى الفطره، و حرفت تعاليم الدين، و مسخت شخصيه الإنسان.

كلا.. لان الفساد كان قد أطبق على البشريه، فلم يعد أحد بقادر على مقاومته بسهوله، فبعث الله النبي برساله طاهره من دنس ضلالتهم و خبث ثقافتهم.

(٢) لقد تنازع خطن قياده الإنسان عبر العصور: خط الوحي المتمثل فى أنبياء الله-عليهم السلام-و المؤمنون بهم، و خط الجاهليه المتمثله فى الطغاه و المترفين، و ثقافه الخط الاول كانت نابعه من الوحي، بينما ثقافه الجاهليه قائمه على أساس الضلاله.

و كلما انحسر الوحي أو ضعف دعائه استشرت الجاهليه، و كانت المشكله العاتيه عند ما يستسلم المؤمنون بالوحي تحت ضغط الجاهليه، كما حدث قبيل بعثه النبي إذ لم يعد اتباع آخر الأنبياء عيسى-عليه السلام-يشكلون قوه تذكر، لا بسبب قله عددهم بل لأنهم بايعوا القياصره فى حقل السلطه، و اتبعوا الفلاسفه فى الحقل الثقافى، و داهنوا المترفين و المستكبرين فى المجتمع، و لم يبق من الدين عندهم إلا- طقوس فارغه، فبدل ان يناهضوا سلطات الجور، و يدافعوا عن المظلومين و المحرومين التهوا بمحاربه بعضهم، و خلق عداوات جانبيه بين مذهب و مذهب، حقا..أصبحوا كما كانت اليهود من قبل، و تفسى فيهم ذات الأخلاق الفاسده التى بعث عيسى بن مريم-عليه السلام-لاصلاحها، و كذلك فى حقل الثقافه فلم يدافعوا عن قيم الوحي فى مقابل مفاهيم الفلاسفه الضاله، بل تراهم يلهثون وراء التوفيق بينهما، حتى و لو كان ذلك على حساب صفاء الوحي و نقائه. أ رأيت كيف ذهبوا الى فكره التثليث اتباعا للافلاطونيه الجديده، و من هنا أصبحت الرساله الالهيه أشد ضروره

من أى وقت مضى، ليس فقط لاصلاح البشريه من الفساد العريض الذى أحاط بها، وإنما أيضا لتطهير رساله مما لحق بها من زيغ و انحراف على أيدي أهل الكتاب الكافرين، و لاضاءه تلك المشاعل التى انطفأت أو كادت بسبب عصف الشهوات العاتيه، فلم تعد تنير طريق السالكين، و لكى يكون للناس على الله حجه بعد الرسل.

و هكذا بعث الله رسوله الخاتم بصحف طاهره من دنس الانحرافات الثقافيه التى حرفت الديانات، و طاهره من تأثير الحكام الظلمه و المترفين الأشقياء.

□
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً وَ هَكَذَا تَمَّ الْبَيِّنَةُ بِالرَّسَالَةِ وَ الرَّسُولُ مَعًا، إِذِ الرَّسُولُ يَدْعُو إِلَيْهَا بِحُكْمِهِ، وَ يَمْتَلِئُ فِي سُلُوكِهِ لَتَجْلَى لِلنَّاسِ رُوعَتُهَا، وَ يَدْفَعُ عَنْهَا بِصَبْرٍ وَ اسْتِقَامَةٍ، ثُمَّ إِنْ الرَّسَالَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا مَطْهَرَةٌ مِنْ شَوَائِبِ الزَّيْغِ وَ الْإِنْحِرَافِ، فَتَقْبَلُهَا الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وَ الْعَقْلُ الرَّشِيدُ.

(٣) ماذا نقرأ فى تلك الأوراق الطاهره؟ نقرأ كتباً أحكمت آياتها و فصلت، لا تجد فيها عوجاً و لا زيغاً.

□
فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ يَبْدُو أَنْ مَعْنَاهَا: الْحَقَائِقُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي لَا شَبَهَ فِيهَا وَ لَا رَيْبَ، وَ هِيَ وَاضِحَةٌ لَا لَبْسَ فِيهَا وَ لَا غَمُوضَ، مُسْتَقِيمَةٌ لَا زَيْغَ فِيهَا وَ لَا تَحْرِيفَ، وَ عَلَى هَذَا فَالْكَلِمَةُ أُشَارَتْ إِلَى الْآيَاتِ الْمَحْكُمَةِ الَّتِي هِيَ تَكْفِي الْإِنْسَانَ هَدًى وَ نُورًا، وَ الَّتِي إِلَيْهَا يَرْجِعُ مَا تَشَابَهَ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ بِسَبَبِ تَسَامِيحِهَا عَنْ مَسْتَوَى كُلِّ النَّاسِ، وَ تَخْصِصِهَا بِالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ فَقَطْ.

(٤) ولعل البعض يتشابه عليه الأمر، فيظن أن تفرق أهل الكتاب و اختلافهم في الدين كان من نقص في الحجّة، فإذا تمت الحجّه و اكتملت البيئه فلا أحد يختلف مستقبلا في الدين، كلا.. ان الكتاب يوفر للناس فرصه الهدايه، و لكنه لا يفرضها عليهم فرضا، فإن آمنوا به فقد اهدوا، و إلا فهم المسؤولون عن ضلالهم و شقائهم.

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ يَبْدُو أَنْ أَشَدَّ الضَّلَالِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ تَفَرُّقَهُمْ، أَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ شَرَائِعِهِ يُوحَّدُ أَهْلَهُ فِي إِطَارِ الْغَايَاتِ الَّتِي يَرَسِمُهَا، وَ الْمَنَاهِجِ الَّتِي يَفْرُضُهَا، وَ السُّلُوكِ الَّتِي يُوَصِّي بِهَا؟ لَقَدْ تَفَرَّقَ الْيَهُودُ إِلَى اثْنَيْنِ وَ سَبْعِينَ فِرْقَةً، أَبْرَزَهُمْ طَوَائِفُ الصَّدُوقِيِّينَ وَ الْفَرِيسِيِّينَ، وَ الْأَسِيِّينَ، وَ الْغَلَاءِ، وَ السَّامِرِيِّينَ، وَ كَانَ لِكُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ مِيزَاتُهُمْ فِي الْفِكْرِ وَ السُّلُوكِ (١).

و بذات العدد تفرق النصرارى و كان أبرز طائفتين منهم (الملكانيه) الذين ذهبوا الى عقيدته ازدواج الطبيعه عند السيد المسيح -عليه السلام- و (المنوفوسيه) الذين زعموا أن طبيعته واحده هي الالوهيه، و حاول الامبراطور الرومانى (٦١٠/٦٤١ م) ان يجمع مذاهب الدوله بالمنع عن الخوض فى القضايا الكلاميه، إلا أن القبط فى مصر نابذوه العدا، و وقع -جرا ذلك- اضطهاد فظيع على يد قيصر مصر استمر عشر سنين، فكانوا يعذبون الرجال ثم يقتلونهم غرقا، و توقد المشاعل على الضحايا حتى يسيل دهنهم، و قد يوضع الضحيه فى كيس رمل و يلقى حيا فى البحر (٢).

ص: ٢٤٣

١- ١) فى ضلال القرآن/ ص ٣٩٥٠.

٢- ٢) المصدر/ ص ٣٩٥١.

و اختلاف الأمم بعد رسل الله و تمام الحججه عليهم دليل على مدى حاجه البشر الى الوحي، حيث تراهم يختلفون حتى بعد تنزل الوحي بينهم، و بمجرد ان يخبو ضوءه عنهم، فكيف بهم إذا حرموه رأساً؟! (٥) من أين يشجر الخلاف بين البشر؟ من الشرك بالله، حيث يقَدِّس كل حزب شيئاً لم يأذن الله به، فتختلف المقدسات، و تتفاوت القيم، و يقع الخلاف، بينما إذا كانوا جميعاً يرجعون إلى تلك البصائر التي جاء بها الوحي، و لم يقدسوا مصلحه أو أرضاً أو عشيره أو أشخاصاً من دون الله إذا توحدت كلمتهم، و صلحت أمورهم.

وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ دُونَ الْأَنْدَادِ وَ الشُّرَكَاءَ الْمُوْهُومِينَ، وَ لَا تَتِمُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَ نَبْذِ الْخُضُوعَ لِأَيِّهِ قِيمَهُ أَوْ سُلْطَنَهُ مِنْ دُونِهِ.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً يبدو أن معنى الدين هو: ما يخضع له الإنسان من تلقاء نفسه من شريعته أو نظام، و خلوصه رفض ازدواجيه الولاء بين الله و الرسل و الأولياء، و بين سائر السلطات الماديه، و هذا ما لم يستقم عليه أهل الكتاب، إذ تراهم ابتدعوا الكلمه الشائعه: ما لله لله، و ما لقيصر لقيصر، و من اتبع هوى قيصر كيف يخلص دينه لله؟! و قد سبق منا اختيار معنى الطهر لكلمه الحنيف، فلما ذا تأتي الكلمه بعد بيان الإخلاص في الدين؟ لعل التوحيد درجات: أولها الشهاده به لساناً، و عقد القلب به مجملاً، و ثانيها: رفض الأنداد، و مواجهتهم، و التمرد ضد سلطانهم، و الثالثه: تطهير القلب من حبههم أو الميل إليهم، و تطهير الفكر من روايب ثقافتهم، و تطهير السلوك

من آدابهم و أخلاقهم. و هذه درجة الحنيفيه و الله العالم، و من أبعادها الالتزام بشرائع الله: من اقامه الصلاه على وجهها، الى الخضوع فيها و تعاهدها دائما، و كذلك إيتاء الزكاه.

وَ يُتِمُّوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكُمْ دِينُ الْقِيَمَةِ قَالُوا: دِينَ الْكُتُبِ الْقِيَمَةِ، بدلاله قوله: أَنفَا: «فِيهَا كُتُبٌ قِيَمَةٌ» بلى. انها كتب لا عوج فيها و لا تعقيد، و لا تفاوت و لا اختلاف. و لا نشوز عن فطره البشر أو حقائق الخلق.

(٦) لا يجوز الاختلاف بين اتباع دين واحد، كما لا يمكن توحيد دين الحق و مذهب الباطل، بل لا بد ان يبقى الخلاف ماثلا بين الحق و الباطل و هو أساس توحيد الله، و حينما ينمات الخلاف بينهما هنالك يغلب الباطل و يهزم أهل الحق، و هكذا يذكرنا السياق هنا بأن الكفار هم شرّ البريه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ لَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ أَحْبَارِ النَّصَارَى الْأَسْبِقُونَ أَنَّهُمْ يَخْدُمُونَ دِينَ اللَّهِ لَوْ أُدْخِلُوا فِيهِ بَعْضَ التَّعْذِيلَاتِ، و استخدموا كلمات الفلسفه لبيان مقاصده، حتى استقرضوا من الثقافات الشركيه بعض مفاهيمها و ألفوها مع حقائق الوحي، ثم داهنوا القياصره و المترفين فتنازلوا لهم عن الدنيا ليسمحوا لهم بممارسه طقوسهم الدينيه الفارغه.

كلا.. إن المشركين هم شرّ البريه، و من كفر من أهل الكتاب بقيم الدين

الحق و داهن المشركين فهو مثلهم تماما شر البريه، و فى ذلك إنذار بالغ الوضوح لنا -نحن المؤمنين بالقرآن- ألا نحذو حذو علماء اليهود و النصرى فنهادن الطغاه، و نصانع المستكبرين طمعا فى اعترافهم ببعض الدين.

و شرّ البريّه تعبير بالغ الحده لأنه يعنى أنهم أضل سبيلا من كل ما خلق الله و برأه، و لكن لماذا؟ لأنهم رفضوا الحق بعد البينه، و كفروا بأعظم رسول، الذى جاء بأفصح حجه و أبلغ إنذار.

(٧) و حتى لو كانوا مستضعفين فى الأرض يأوون الى رؤوس الجبال، و غور كهوفها، و يسيحون فى الأرض فرارا بدينهم، فان المؤمنين هم خير البريّه.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ لَأَنَّهُمْ آمَنُوا بِأَفْضَلِ نَبِيٍّ، و اتبعوا أكمل منهج، و اهدوا بأبلغ نور.

لقد خلق الله كل شىء فى الأرض للإنسان، و لكن أى إنسان، هل الذى يغتال كرامه نفسه، و يدسها فى و حل الجهل و الغرور؟ كلا.. انه لا يساوى عند الله شيئا، بل الذى يؤمن بالله و رسالاته، و يعمل صالحا، فيصبح أكرم خلق الله جميعا.

و

جاء فى الأثر فى تأويل هذه الايه عن ابن عباس: لما نزلت قال النبى -صلى الله عليه و آله- لعلى (عليه السلام): «هو أنت و شيعتك، تأتى أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، و يأتى عدوك عقبانا مقمحين» (١).

و

ذكر الدر المنثور للسيوطى طائفه من الأحاديث المماثله نذكر منها ما يلى:

ص: ٢٦٦

١- ١) شواهد التنزيل/ ج ٢- ص ٣٥٧ عن تفسير نمونه/ ج ٢٧- ص ٢١١.

١- أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله، قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وآله- فأقبل عليّ، فقال النبي -صلى الله عليه وآله-:
آله-:

«و الذى نفسى بيده إن هذا و شيعته لهم الفائزون يوم القيامة» و نزلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، فكان أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله- إذا أقبل عليّ قالوا: جاء خير البرية.

٢-و

أخرج ابن عدوى و ابن عساكر، عن أبى سعيد مرفوعا: عليّ خير البرية.

٣-و

أخرج ابن عدى عن ابن عباس، قال: لما نزلت «الايه» قال رسول الله -صلى الله عليه وآله- لعلّى: «هو أنت و شيعتك يوم القيامة راضين مرضيين.» ٤-و

أخرج ابن مردويه، عن عليّ، قال: «قال لى رسول الله -صلى الله عليه وآله-: ألم تسمع قول الله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أنت و شيعتك، و موعدى و موعدكم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غزّا محجلين» (١).

(٨) ما هو المقياس لخير البرية، هل كثره الأموال و الأنصار؟ كلا.. بل رضوان الله و الجنة، اما الثروات و الأولاد فإنها فتنة و ابتلاء يقدرهما الله للناس جميعا.

جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا أَلَيْسَ قَدْ صَلَحَتْ طِينَتُهُمْ فَأَصْبَحُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ دَائِمِينَ فِيهَا، لان الجنة هى ذاتها

ص: ٢٦٧

الصلاح، وقد أعدت لأهل الصلاح، وأعظم من الجنة رضوان الله الذي يغمر قلوبهم رضا وسكينه ونورا.

□
رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ كَيْفَ يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ دَرَجَةَ الرِّضْوَانِ؟ إِنَّمَا بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَخَشِيَّتِهِ، الَّتِي هِيَ مِيرَاثُ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَعَلَامَةُ الْقُرْبِ مِنْهُ، وَشَهَادَةُ رَفْعِ حُجْبِ الذُّنُوبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

□
ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ لِذَلِكَ

جاء في الدعاء المأثور عن النبي -صلى الله عليه وآله-: «اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك و أسعدني بتقواك.» وجاء في الآية الكريمة: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (١).

فالأخشية هي زينة العلماء بالله، وهكذا

جاء في دعاء الصباح المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لا اله الا أنت سبحانك اللهم و بحمدك، من ذا يعرف قدرك فلا يخافك، و من ذا يعلم ما أنت فلا يهابك.» « نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمَلَأَ قُلُوبَنَا خَشِيَةً وَفِرْقَانَهُ، وَشَوْقًا إِلَيْهِ، حَتَّى نَكُونَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، وَ مِنْ شِيَعَةِ عَلِيِّ التَّابِعِينَ لِنَهْجِهِ حَقًّا. آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

ص: ٢٤٨

سوره الزلزله

اشاره

ص: ۲۶۹

فضل السوره

فى أصول الكافى بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال: «لا تملّوا من قراءه إذا زلزلت الأرض زلزالها فإنه من كانت قراءته بها فى نوافله لم يصبه الله -عز و جل- بزلزله أبدا، و لم يمت بها، و لا بصاعقه و لا بآفه من آفات الدنيا حتى يموت، فإذا مات نزل عليه ملك كريم من عند ربّه، فيقعد عند رأسه، فيقول: يا ملك الموت! رفق بولى الله، فإنه كان كثيرا ما يذكرنى و يذكر تلاوه هذه السوره،

و تقول له السوره مثل ذلك، و يقول ملك الموت: قد أمرنى ربى أن اسمع له و أطيع، و لا أخرج روحه حتى يأمرنى بذلك، فاذا أمرنى أخرجت روحه، و لا- يزال ملك الموت عنده حتى يأمره بقبض روحه، و إذا كشف له الغطاء فىرى منازلها فى الجنه فيخرج روحه فى ألين ما يكون من العلاج، ثم يشيع روحه إلى الجنه سبعون ألف ملك يتدرون بها إلى الجنه. » و

عن أنس: أنه سأل النبى-صلى الله عليه و آله-رجلا من أصحابه، فقال:

«يا فلان هلا- تزوجت؟» قال: لا و ليس عندى ما أتزوج به، قال: أليس معك قل هو الله أحد؟ قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: أليس معك قل يا أيها الكافرون قال: بلى. قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك إذا زلزلت؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» ثم قال: «تزوج تزوج تزوج».

تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٦٤٧

ص: ٢٧٢

سنة الله في الجزاء تتجلى في البصيره التي تبينها سوره الزلزله: إن من يعمل مثقال ذره خيرا يره، وإن من يعمل مثقال ذره شرا يره، لكي لا يستهين الإنسان بأعماله التي تتجسد له يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل الذي تزلزل الأرض زلزالها، و تخرج الأرض ما في جوفها من أجساد و معادن و أجسام مختلفه، و يستبد بالإنسان حيره و يتساءل: ما لها؟ و ترى الناس يصدرون في مذاهب شتى، حسب أفعالهم و حسب درجاتهم.

[سوره الزلزله (٩٩): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

بينات من الآيات:

(١) ليست الحياه الاولى التى تملا أعيننا و قلوبنا بخيرها و شرها، بأنظمتها و احداثها و ظواهرها سوى ظلال باهته، لذلك الحيوان العريض الواسع و الخالد، و انما جىء بنا إليها لنستعد و لنتزود، وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

و نحن فى الدنيا نشهد أهوالا- تفرعنا و تكاد تقتلع أفئدتنا، و منها الزلازل العظيمة التى قد تبتلع فى لحظات مدينه كبيره بناها الإنسان عبر قرون متماديه، و انها- على ذلك- ليست سوى زلزال محدود يضرب ناحيه من الأرض، فيكف إذا كان شاملا للأرض كلها؟! أى منظر رهيب، أم أى فرع عظيم، أم أى داهيه كبرى يكون ذلك الزلزال! إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا و لعل ضمير «ها» العائد إلى الأرض يوحى بأنّ الزلزال لا يخص منطقه، و انه

يكون كأشد ما يقع في الأرض من زلزال.

(٢) ماذا يحدث عندئذ؟ هل تفور النواه المركزيه للكوره الارضيه بعوامل غير معروفه لدينا فتهتز القشره الفوقيه للأرض هزّات عنيفه و متتاليه، ثم تقذف فوقها المواد التي احتسبت فيها منذ ملايين السنين؟ هكذا يبدو من الآيات التي تصرح بأن الأرض تلقى أثقالها.

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَ هَكَذَا قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (١).

و قال بعضهم: الأثقال هي كنوز الأرض و معادنها، و قال آخرون بل هي الأموات التي تخرجهم الأرض في النفخه الثانيه، فاذا هم قيام ينظرون.

و يبدو أن الكلمه تتسع لكل هذه التطبيقات، على أن إخراج المواد الكامنه في مركز الأرض أقرب إلى ما نعرفه من سبب الزلزال، أليس سببه الغازات الارضيه المحتبسه في النواه المركزيه. الا ترى ان بعض الزلازل يكون من البراكين التي تخرج المواد الذائبه؟ و يؤيد ذلك ما

جاء في حديث:

«تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب و الفضة» (٢).

(٣) و يبقى الإنسان حائراً مدهوشاً! ماذا حدث للأرض حتى تزلزلت، و أخرجت ما في أحشائها، و لماذا و ما هي الغايه؟ وَ قَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا

ص: ٢٧٧

١- (١) الانشقاق ٤.

٢- (٢) القرطبي/ ج ٢٠- ص ١٤٧.

قال بعضهم: هذا هو الكافر الذي جحد بالآخره، فتساءل مع بروز أشراتها عنها و قال: ماذا حدث؟ و لكن يبدو أن تلك الحوادث المروعه تحمل كل إنسان على التساؤل.

(٤) و لن يطول التعجب لان الأرض تشرع بالإجابته، مما يشهد بتحوّل عظيم في عالم الطبيعه، لا- يختص بمظاهرها فقط و إنما يجرى على طبائعها، فكيف تتحدث الأرض، و كيف يلتقط سمع الإنسان حديثها، لو لا تغيير كبير يحصل فيها.

يَوْمَئِذٍ تُجَدِّثُ أَخْبَارَهَا و أول خبر تنطق به الأرض و بحوادثها أو بلسانها: ان الساعه قد قامت، و أن الدنيا قد أدبرت، و لعل الخبر الثانى لها بيان حكمه الفزع الأكبر الذى يجرى على ظهرها، أما أهم الاخبار فهى شهادتها على أفعال الناس فوق ظهرها،

فقد جاء فى حديث مأثور عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنه قرء هذه السوره فقال:

«أ تدرّون ما أخبارها؟».

قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمه بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا و كذا و كذا» قال: «هذه أخبارها» (١).

و

فى حديث آخر: روى عن رسول الله -صلى الله عليه و آله-: «حافظوا على الوضوء و خير أعمالكم الصلاه، فتحفظوا من الأرض فانها أمكم، و ليس فيها أحد يعمل خيرا أو شرا إلا و هى مخبره به» (٢).

(٥) و لعل الأرض تحدث الناس بأخبار أخرى أيضا، أما كيف تتحدث، هل

ص: ٢٧٨

١- (١) المصدر ١٤٨.

٢- (٢) تفسير نمونه نقلا عن مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٥٢٦.

بكلام يخلق فيها، أم بما ينعكس عليها من آثار أعمال الإنسان فتظهر يومئذ كما الشريط الصوتي أو المصور، أم بأن الله يؤتى الإنسان ما يلتقط به إشارات الأرض؟ المهم انها تتحدث بإيحاء الله لها.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٦) يبدو ان الأرض التي انعكست عليها أقوال الناس و أفعالهم منذ أن عاشوا عليها تبدأ بإعادة تمثيلها لهم كما الشريط المصور الذي تنعكس عليه صور الحوادث، ثم يعرض علينا لنراها من جديد، و لذلك قال ربنا سبحانه:

يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ اننا نعرف كيف تنعكس ذبذبات الصوت على شريط الكاسيت، و لكن لا نعرف كيف تنعكس أيضا على ذرات التراب التي تحيط بنا، و لعل الإنسان يتقدم علميًا حتى يبلغ هذا السير في يوم ما، إنما علينا الآن ان نبقي حذرين من كل شيء محيط بنا، فانه يسجل أفعالنا التي تحفظ إلى يوم القيامة لنراها، فإى يوم رهيب ذلك اليوم، حيث يرى الإنسان ما عمله خلال حياته محضرا. ان الإنسان قد يرتكب جريمة أو يقترب إثما، فيلاحقه ضميره بالتأنيب، فيحاول جهده تناسي الأمر حتى لا- يصاب بوخز الضمير فيما بينه و بين نفسه، فكيف إذا جىء به على رؤوس الاشهاد، و صوّرت له أفعاله! أى خزي يلحق المجرمين فى ذلك اليوم، أم أى عار عظيم؟! قالوا: صدور الناس: نشورهم من قبورهم، و حركتهم باتجاه محكمه الرب، و قيل: انه مستوحى من صدور الإبل من الماء، اما الاشتات فإنه يعنى متفرقين، و أعظم ما يفرقهم الايمان و الكفر، فمن آمن اتخذ سيلا مختلفا عن الكفار، كما قال

ربنا سبحانه: يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ.. و الايه التاليه تشهد بهذا المعنى.

وقال بعضهم: بل معنى الاشتات: انهم يصدرون من مقابرهم و هى مبعوثه فى أنحاء مختلفه من الأرض، كما انهم مختلفون فى المذاهب و النحل، و يبعث كل أمه منهم بإمامهم.

(٧) و ليست الأعمال الكبيره وحدها التى تتجسد ذلك اليوم، بل حتى أصغر ما يتصوره الإنسان من عمل، من وسوسه الصدر، حتى لمحه بصر، و نصف كلمه، و نفضه من حركه كلها مسجله.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ قَالُوا: عَنْ الذره انها النمله أو ما يلصق باليد من تراب إذا وضعها على الأرض، فكل حبه ذره، أو ما يرى فى شعاع الشمس إذا دخل من كوه صغيره، و نقل

نص مأثور يقول: «الذره لا زنه لها» (١).

و اليوم حيث عرف البشر الذره و عرف أنها أصغر مما كان يتصوره الأقدمون، فأى حساب دقيق ينتظرنا يومئذ، فما لنا نغفل عما يراد بنا.

(٨) و إذا كانت كل ذره من خير تؤثر فى مصيرنا، فعلينا أن نزداد منها أتى استطعنا، و إذا كانت كل ذره من شر نحاسب عليها، فعلينا أن نتحذر منها.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ وَ لَذَلِكَ

جاء فى الحديث المأثور عن الرسول -صلى الله عليه و آله-: «ما من أحد يوم القيامة إلا و يلوم نفسه، فإن كان محسناً، فيقول: لم لا ازددت إحساناً،

ص: ٢٨٠

و إن كان غير ذلك يقول: لم لا نزعتم عن المعاصي» (١).

بلى. و الإنسان يزداد حسره يوم القيامة إذا رأى من أعماله الصالحه مثقال ذره قد عمله لغير الله كما الكفار و المنافقون، هكذا نقرأ

في نصّ مأثور عن الامام الباقر -عليه السلام- في تفسير قوله: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** قال: ان كان من أهل النار و قد كان عمل في الدنيا مثقال ذره خيرا يره يوم القيامة حسره انه كان عمله لغير الله **وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** يقول: «ان كان من أهل الجنة رأى ذلك الشرّ يوم القيامة ثم غفر له» (٢).

و

جاء في حديث آخر عن الامام الصادق -عليه السلام- قال: «قال رسول الله -صلّى الله عليه و آله-: ان العبد ليحبس عن ذنب من ذنوبه مائه عام، و إنّه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن» (٣).

حقاً.. إذا وعى الإنسان هذه الايه من القرآن كفته وعظا و زكاه و طهرا، لأنه سوف يقيس من أفكاره و أقواله و أعماله كل صغيره و كبيره، و من ضبط صغائره هانت عليه الكبائر، أو ليست الكبائر تبدأ بسلسله من الصغائر، أ رأيت الذى يزنى لا يرتكب الفاحشه إلا بعد ان يوسوس له الشيطان بفكره الزنا، فإذا لم يردع نفسه عنها، فتش عن زانيه و سعى إليها، ثم نظر إليها، ثم تحدث معها ثم لامس و زنى. إنّها خطوات متدرجه، كلّ واحده أنكى من سابقتها، و هى صغائر تنتهى الى كبيره، أو تصبح بمجموعها كبيره. أ ليس كذلك؟ من هنا رأى ابن مسعود هذه الايه احكم آيه فى القرآن و

روى المطلب بن خطب أن إعرابينا سمع النبي -صلّى الله عليه و آله- يقرؤها، فقال: يا رسول الله!

ص: ٢٨١

١-١) المصدر/ص ١٥٠.

٢-٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٥١.

٣-٣) المصدر.

أ مثقال ذره؟ قال: «نعم» فقال الاعرابي: وا سواتاه مرارا، ثم قام و هو يقولها فقال النبي -صلى الله عليه و آله- «لقد دخل قلب الاعرابي الايمان» (١).

و

روى أن رجلا جاء إلى النبي -صلى الله عليه و آله- فقال: علّمني ممّا علّمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمه، فعلمه: إذا زُلزِلتِ -حتى إذا بلغ- فَمِنْ يَعْْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَ مِنْ يَعْْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ قال: حسبي، فأخبر النبي -صلى الله عليه و آله- فقال: «دعوه فإنه قد فقه» (٢).

ص: ٢٨٢

١-١) القرطبي/ج ٢٠ ص ١٥٣.

٢-٢) المصدر.

سوره العاديات

اشاره

ص: ۲۸۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال: «من قرأ سورة العاديات، و أدمن قراءتها، بعثه الله عزّ و جل مع أمير المؤمنين-عليه السلام-يوم القيامة خاصة، و كان في حجره و رفقائه».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٥١

ص: ٢٨٥

بعد أن يصور السياق ببلاغه نافذه معركه منتصره، يمتطى المجاهدون فيها الخيول التي تعدو و تحمحم، و تنقذح من حوافرها الشرار، ثم تغير مع بواكير الصباح على العدو، مثيره غبارا كثيفا، ثم تبلغ وسط الهدف.

بعد أن يصور السياق ذلك و يقسم به إكراما له (لأنه غايه الجود و الشهامه و الإيثار) يبين أن الطبيعه الاوليه للإنسان (قبل ان يتربى و يتزكى) هو الكند، و البخل، و حب الخير لنفسه، و الاستثثار به، و لكن متى يفقه حقا خطأه؟ عند ما تتكشف القبور عما سترتها من أجساد، و تتكشف الصدور عما خبأتها من أسرار..

يومئذ يعرف الإنسان أن ربه خبير به.

هكذا تربى هذه السوره الكريمه التي جاء في بعض الأحاديث أنها بمثابة نصف القرآن، تربى الإنسان على الإيثار و التضحيه في سبيل الله.

[سوره العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَنْزَنَ بِهِ نَعْمًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذِكْرَكَ لِشَهِيدٌ (٧) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَ فَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

بينات من الآيات:

(١) لكى نفقه كرامه المجاهدين على الله، وعظمه دور خيلهم العاديات فى سبيله، يقسم القرآن بها، لأنها تحمل نور الإسلام إلى الافاق، و تحمل صفوه عباد الله الذين نذروا أنفسهم فى سبيل نشر دعوته.

وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا يَبْدُوْنَ أَنَّهُنَّ الْعَدُوّ فِي الْأَصْلِ تَجَاوَزَ الْحَدَّ، وَيَسْمَى الْعَدُوّ عَدَا لَأَنَّهُ يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي مَعَامَلَتِهِ، وَمِنْهُ الْعَدْوَانُ لِأَنَّهُ تَجَاوَزَ لِلْحَقِّ، وَالسَّرْعَةُ الْقَصْوَى فِي الْمَشْيِ تَسْمَى عَدَا لِأَنَّهُ أَيْضًا تَجَاوَزَ لِلْحَدِّ.

و هكذا قالوا فى الخيل سميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل فى سرعه المشى، و انشدوا لصفية بنت عبد
المطلب:

فلا و العاديات غداه جمع بأيديها إذا سطع الغبار

اما الضَّبْح، فقالوا: انه التنفس بقوه، و قيل: انه حمحمه الخيل، و الأقرب عندي: تغير الحال أو تغير اللون، و يقال: انضبح لونه إذا تغير، و لعله لذلك يسمى الرماد ضبحا لأنه يتغير لونه من أصله، و إنما تسمى الخيل ضابحه إذا تغير من العدو حالها مما ظهر على لونها و تنفسها و حمحمه صوتها، و قد استخدمت الكلمه فى الثعلب، و قيل فى الایه: ان الخيل كانت تكعم (و الكعم شىء يوضع فى فم البعير) لثلا تصهل فيعلم العدو بهم، فكانت تنفس فى هذه الحال بقوه و انشدوا:

و الخيل تعلم حين تض بح فى حياض الموت ضبحا

(٢) كانت الخيل تعدو بسرعه، و لكن من دون سهيل، و كانت الحرکه فى الليل -فيما يبدو- حيث تتطير الشرر من حوافرها التى تحتك بالحصى، مما يظهر أن الأرض كانت و عره، فجاء السياق يقسم بها و هى تناسب بين الصخور فى رحم الظلام.

فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا و الإبراء: الاشعال، و القدح: ضرب الحجاره ببعضها طلبا للنار.

(٣) و تقترب خيل المجاهدين العاديه من أرض العدو، و تنتظر انبلاج الفجر فتفاجئ العدو بغارتها الخاطفه.

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا و هكذا كانت الغارات الناجحه، فاذا أرادوا العدو ساروا إلى أرضه ليلا، و انتظروا الصباح للبدء بالهجوم، حيث لا تزال العيون نائمه، و الاعصاب مخدره.

(٤) وعند الهجوم المباغت تثير الخيل بحوافرها الغبار، وكلما ازداد الغبار كشف عن شدة المعركة.

فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا و لعل النقع: الغبار الغليظ الذى يشمل الأرض، ذلك لان أصل النقع - كما قيل - الغور فى الماء أو غور الماء - و لهذا يسمى الماء الراكد بالنقع، لأنه يغور فى الأرض أو يغور فيه الغاطس، قالوا: لذلك سمي الغبار نقيعا فكأنه يغور فيه الإنسان.

و تساءلوا عن ضمير «به» أين مرجعه، فقال البعض: انه يعود الى العدو المفهوم من العاديات، و قال آخر: بل يعود إلى المكان الذى تقع فيه المعركة، و المفهوم من السياق، و أظن انه يعود إلى قوله «صبحا» لأنه الأقرب، و إذا نسب الى الزمان شىء كان أبلغ فى معنى الشده، كما نقول يوم نحس أو يوم سعيد، أى كَلَّه سعادته أو نحوسه.

بلى. قد أثارت الخيول نقعا جعل الصباح مغبرا.

(٥) الغاره القايره هى التى تقع مفاجئه، و صباحا، و تبلغ أهدافها بسرعه خاطفه، و هكذا كانت تلك الغاره التى اخترقت قلب العدو.

فَوَسَّيَطْنَ بِهِ جَمْعًا يقال: وسطت القوم أى صرت فى وسطهم، و الجمع بمعنى: تجمع العدو، و هو كناية عن قلب جيشهم، و مركز قوتهم، و ضمير «به» يعود إلى العدو أو إلى المكان أو الصباح حسبما سبق فى الايه الماضيه.

ص: ٢٩٠

كان ذلك التأويل الأقرب إلى ظاهر الآيات، وهناك تأويل آخر ذكره طائفه من المفسرين، حيث قالوا: تعنى الآيات خيل الحجيج أو إبلهم، حيث يفوضون إلى عرفات ثم مزدلفه فمنى و يكون معنى الإبراء إشعال النيران لطعامهم، ومعنى الجمع:

مزدلفه، أما معنى المغيرات صبحا-حسب التفسير-فهي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من منى إلى جمع، والسنة الا تدفع حتى تصبح.

و يبدو أن تأويل الآيات فى الحج و مناسكه و مشاعره لا يتنافى مع تأويلها فى الجهاد، أليس الحج جهاد المستضعفين؟ و يشبه مناسكهم و حركتهم، و هكذا نجد الروايه التاليه المأثوره عن الامام أمير المؤمنين-عليه السلام-تجمع بين التأويلين، تدبر قليلا فيها:

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: بينما أنا فى الحجر جالس، إذ أتانى رجل فسأل عن الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فقلت له: الخيل حين تغزو فى سبيل الله، ثم تأوى إلى الليل، فيضعون طعامهم، و يورون نارهم، فانفتل عني و ذهب إلى على بن أبى طالب عليه السلام-و هو تحت سقايه زمزم-فسأله عن الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فقال: «سألت عنها أحدا قبلى» قال: نعم، سألت عنها ابن عباس، فقال: الخيل حين تغزو فى سبيل الله، قال: «فاذهب فادعه لى» فلما وقف على رأسه قال: «أ تفتى الناس بما لا علم لك به، و الله إن كانت لاول غزوه فى الإسلام بدر، و ما كان معنا إلا- فرسان: فرس للزبير، و فرس للمقداد بن الأسود، فكيف يكون العاديات الخيل؟ بل العاديات ضبحا الإبل من عرفه إلى المزدلفه، و من مزدلفه إلى منى» قال ابن عباس: فرغبت عن قولى و رجعت إلى الذى قاله على (١).

و يؤيد الجمع بين التأويلين ما

جاء فى سبب نزول السوره: أنه كان فى سرّيه

ص: ٢٩١

قادها الامام عليّ عليه السلام- حيث أخبر جبرئيل عليه السلام- النبي -صلى الله عليه وآله-: أن أهل وادي الياض قد اجتمعوا في اثني عشر ألف فارس، و تعاقبوا و تواتقوا أن لا يتخلف رجل عن رجل. و لا يخذل أحد أحدا حتى يقتلوا محمدا و عليا، فبعث رسول الله إليهم بسريه يقودها أبو بكر في أربعة آلاف رجل، فلما رأى بأسهم و بعد ديارهم لم يحاربهم، فأرسل رسول الله عمرا بالمهمه، فعاد هو الآخر لذات السبب، فلما بعث إليهم عليا مشى إليهم من غير الجاده، و اعنف في السير، فلما أحاط بأرضهم، أغار عليهم صباحا و هم غافلون، فلما يعلموا حتى وطأتهم الخيل، و أقبل بالأسارى و الأموال إلى رسول الله فنزلت السوره (١).

(٦)قسما بكل ذلك الإيثار العظيم الذى يتجلى فى معارك المجاهدين، قسما بتلك القمم السامقه التى بلغوها بإيمانهم و يقين قلوبهم: إن الإنسان قد طبع على كفران النعمه، و لن يتسامى إلى أفق الإيثار من دون جهاد نفسه و تزكيتها.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ كلما ذكرت كلمه (الإنسان) أريد بها- فيما يبدو- طبيعه الإنسان الاولى قبل التزكيه و التعليم، و قد ذكروا تفسيرات شتى للفظه «لكنود» أبرزها: الكفور، العاصى، البخيل، السىء الملكه، و قال بعضهم: هو الذى يكفر باليسير و لا يشكر الكثير، و قيل: انه الجاحد للحق، و انشدوا:

كنود لنعماء الرجال و من يكن كنودا لنعماء الرجال يبغد

و يبدو ان الصفات السيئه يتسع بعضها، مما يجعل المعنى الاصلى للكلمه الداله على واحده منها ضائعا فيختلف فيه الناس، و قد تكون الكلمه موضوعه كشخصيه

ص: ٢٩٢

١- (١) المصدر ص ٦٥٢ بتصريف و اختصار، و راجع أيضا موسوعه بحار الأنوار ج ٢١ ص ٦٦، و كذلك مجمع البيان ج ١٠ ص

٥٢٨.

متّصفه بها جميعا، كما سبق في معنى كلمه «عتل» و إذا قلنا بان لكلمه (كنود) معنى واحدا، فليكن البخيل الذى يحس دائما بأن حقه أعظم مما أوتى فلا يشكر نعم الله عليه بالإنفاق، و من هنا

جاء فى الحديث المأثور عن رسول الله -صلى الله عليه و آله-:

«الكنود هو الذى يأكل وحده، و يمنع رفته، و يضرب عبده» (١).

و قال الشاعر:

دع البخلاء ان شمشخوا و صدّوا و ذكرى بخل غانيه كنود

و هكذا يكون معنى «لربه» لفضل ربه و نعمه.

(٧) و الكفران و الجحود و البخل و سائر الصفات السيئه التى تجمعها كلمه كنود حقائق يعترف الإنسان بوجودها فى نفسه، فعليه مسئوليته تخليص نفسه منها، و لا يمكنه التملص عن المسئوليته بأنه كان جاهلا:

وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ أَوْ لَمْ يَقُلْ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ أُخْرَىٰ: بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ* وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (٢) و قال بعضهم معنى الايه: أن الله على ذلك لشهيد و هو بصير، لان السياق يحدث عن الإنسان فالاولى عوده الضمير اليه.

(٨) و لكن لماذا لم يتخلص من كند نفسه؟ لأنه شديد الحب للخير، و من شدة حبه له تراه يبخل به و لا يشكر ربه عليه بإنفاقه.

ص: ٢٩٣

١-١ (١) القرطبي/ج ٢٠ ص ١٦٠.

٢-٢ (٢) القيامه ١٤-١٥.

وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ و حب الخير بذاته فضيله، و لكنه يصيح رذيله إذا اشتد في الإنسان، و طغى على حبه لله و للرساله، و فضله الإنسان على الاخره التي هي الخير حقًا.

و لكن اى خير هذا الذى يهدده الموت فى ايه لحظه، قال الشاعر:

ارى الموت يعتام الكرام و يصطفى عقيله مال الفاحش المتشدد

(٩) و لا يتخلص الإنسان من حب الدنيا إلا بذكر الاخره فمن اشتاق إلى الجنه سلا عن شهوات الدنيا، و من أشفق من النار هانت عليه مصيبات الحياه.

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ أَى اثير و قلب، من قولهم: بعثت المتاع أى جعلت أسفله أعلاه، و يبدو أن ذلك إشارة إلى البعث و النشور، حيث تثار القبور لاستخراج ما فيها.

(١٠) هنالك يحشر الناس للحساب، و تشهد عليهم جوارحهم، و تظهر ما فى جوانحهم، من نكد و حبّ للدنيا.

وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ حيث تلبو يومئذ السرائر، و تسقط الاقنعه، و يعرف الإنسان مدى خسارته للفرصه إذ لم يزك نفسه.

(١١) هنالك يعلم الناس يقينا ان الله محيط بهم، ذلك لأنهم يرون كيف يجازيهم بأفعالهم، بل و يسأل عن سرائرهم، و ما أضمرُوا فيها من خير أو شر، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ .

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ وَيَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَشَاءُ بِحُكْمِهِ، فلذلك اليوم فليستعد الإنسان و ليزك نفسه، و ينمى فيها الفضائل، و من أبرزها الجهاد فى سبيل الله. وفقنا الله له.

ص: ٢٩٥

سوره القارعه

اشاره

ص: ۲۹۶

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

فى كتاب الأعمال للصدوق بإسناده عن أبى جعفر-عليه السلام-قال:

«من قرأ و أكثر من قراءه القارعه آمنه الله-عز و جل-من فتنه الدجال أن يؤمن به و من قيح جهنم يوم القيامه، إنشاء الله».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٥٨

ص: ٢٩٩

خلق الله كل شيء بمقدار، كلما حولك موزون بدقه، فهل يسمح للإنسان أن يعبث بحياته بلا نظام و لا حساب. كلا.. إن حياته هي الأخرى محسوبه عليه، كل وسوسه و فكره و عزم، كل كلمه و كل حركه مسجله عليه، و عليه أن يزيد من صالح أعماله ما يثقل ميزانه، و إلا فإن مصيره الى نار حامية، متى؟ عند ما تفرع ساعه القيامة، و عندها يكون الناس كالفراش المبتوث، و كالجراد المنتشر، و تكون الجبال كما الصوف المنفوش.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْقَارِعَةُ (١) مَيَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَيَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَ
تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبًا (٧) وَمَا مِنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ
(٩) وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

بينات من الآيات:

(١) الْقَارِعَةُ تلك هي الساعة تفرع الخلائق بأهوالها، و تقول العرب قرعتهم القارعه، إذا نزل بهم أمر فظيع.

(٢) و كل داهيه قارعه و لكن قارعه الساعه أمر عظيم، لا يبلغ وعى الإنسان مدى فظاعتها.

مَا الْقَارِعَةُ (٣) و انى كانت عظمتها فعلينا أن نقرب من وعيها، لاننا بذلك نستطيع مقاومه لغفله و الجهاله و الفوضى فى أنفسنا.

وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ

ان النفس البشريه شديده الميل إلى الانفلات و التحلل و الفوضى، لو لا قرعها بنصائح الاخره، و ما فيها من أهوال تجعل الولدان شيئا، و لذلك جاءت آيات الذكر شديده الإنذار، بالغه التحذير، لعلنا نعقل أو نسمع، و نوقظ عقولنا من السبات العميق.

(٤) الألقاب التى نخدع أنفسنا بها اليوم، و الأسماء العريضه، و المفخر و الأمجاد تتلاشى ذلك اليوم، و يحشر عشرات الألوف من بلايين البشر كما الهمج الطائر، الذى يكثر أيام الصيف، فتراه كالسحابه من شده تراكمها فوق بعضها، أو الجراد الكثيف الذى يتداخل فى بعضه كأنه غبار كثيف، فما قيمه بعوضه فى الهمج، أو جراده فى سيل الجراد، انا و أنت نصبح هكذا بين من يحشر من أبناء آدم، منذ كان آدم و إلى قيام الساعه.

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ قَالُوا: الْفَرَاشِ: الطير الذى يتساقط فى النار و السراج، و قيل: كل همج طائر يسمى فراشا، و منه الجراد، و

روى عن رسول الله -صلى الله عليه و آله-: «مثلى و مثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب و الفراش يقعن فيها، و هو يذبهن عنها، و أنا آخذ بحجركم عن النار، و أنتم تفلتون من يدى» (١).

حالات مختلفه و متدرجه فى ذلك يذكرنا السياق بواحد منها، كما سبق فى آيات مشابهه.

قالوا: المبثوث المنتشر المتفرق.

(٥) أكثر ما فى الدنيا وهم، و يتلاشى الوهم فى الاخره، بل حتى حقائق الدنيا تتلاشى يومئذ، فترى الجبال التى تحسبها قوه ثابتة كما الصوف المتفرق، تحركها

ص: ٣٠٣

الرياح.

وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ قالوا: أى الصوف الذى ينفش باليد، أى نعيدها هباء، و يبدو أن للجبال حالات مختلفه و متدرجه فى ذلك يذكركنا السياق بواحد منها، كما سبق فى آيات مشابهه.

(٦) بلى. ينتفع الإنسان يومئذ بشيء واحد، يعطيه قيمه بين الناس، إنه عمله الصالح الذى لو رجحت كفته فى الميزان حسنت عيشته.

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ يبدو ان الموازين تعنى الأفعال التى توزن و ليست ذات الكفتين و اللسان، و قال بعضهم: الموازين: الحجج، و استشهدوا بقول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مره عندى لكل مخاصم ميزانه

و

قد سبق الحديث فى سورة الرحمن: أن الميزان هو الامام الناطق، الذى جسد قيم الوحي فى حياته، و كان حجه على عباد الله.

(٧) و إذا كانت عاقبه الإنسان رهينه رجحان حسناته، و إذا كان حتى مثقال ذره من أفعاله محسوبه له أو عليه، فينبغى ألا يقصر الإنسان فيها، فلعل حسنه واحده ترجح كفه الحسنات، و تجعلك من أهل الجنة حيث العيشه التى ترضاها.

فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاضِيٌّ و حين تكون العيشه راضيه، فإن كل جوانب حياتك تجلب رضاك و تكون فى

ص: ٣٠٤

مستوى طموحك، و قالوا: معناها عيشه مرضيه، و قيل: بل عيشه لئنه منقاده.

(٨) و الويل لمن أضاع فرصه العمر، و قصير في استغلال فرص الخير، و استهان بالذنوب حتى تراكمت في ميزانه، و استخف بالحسنات حتى خفت موازينها عنده.

وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٩) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ أَى مصيره الجحيم، قالوا: الام ما يأوى إليها الإنسان، كما يأوى إلى الام و انشدوا:

فالأرض معقلنا و كانت أمانا فيها مقابرنا و فيها نولد

و لكن يبدو أن كمله الام من أم أى قصد، و الام هو المقصد الذى يعيد اليه الإنسان باختياره و قيل الام: هى أم الرأس، من قولهم: سقط على أم رأسه و قالوا عن الهاويه: انها المهواه، أو الوادى بين جبلين، لان قعر جهنم بعيد، قد يهون فيها مئات السنين.

(١٠-١١) أو تدرى ما الهاويه، انها ليست مجرد مهواه يسقط الإنسان فيها فيموت، و ينتهى كل شىء، كالا.. انها النار المشتعله.

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا هَيْئَةٌ * نَارٌ حَامِيَةٌ انها شديده الحراره، حتى أن نار الدنيا جزء من سبعين جزء منها، نستجير بالله منها.

سوره التكاثر

اشاره

ص: ٣٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله-عليه السلام-: «من قرأ سورة التكاثر في فريضة كتب الله له ثواب أجر مائه شهيد، و من قرأها في نافله كتب له ثواب خمسين شهيدا، و صَلَّى معه في فريضه أربعون صفًا من الملائكة إنشاء الله.» و

في أصول الكافي باسناده عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال:«قال رسول الله-صَلَّى الله عليه وآله وسلم- من قرأ ألهاكم التكاثر عند النوم وقى فتنه القبر.».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٦٠

ص:٣٠٩

بين حاجه الإنسان و حرصه مسافه كبيره، و ما يلهيه عن ذكر الله و عن المكارم ليست حاجته، بل حرصه الذى يبعثه يحرضه على التكاثر فى الأموال و الأولاد، حتى إذا زار قبره لم ينفعه ماله و ولده شيئاً، و حوسب على نعيم الله، و تلاشى عنه ما يلهيه، لأنه سوف يرى الجحيم عين اليقين. و هكذا تعالج السوره حاله التلهى بالدنيا عبر التذكرة بالموت ثم العقاب و الحساب

[سوره التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اللَّهُمَّ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

بينات من الآيات:

(١)

جاء في حديث شريف: «يا ابن آدم! إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فأيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت تريد ما لا يكفيك فكل ما فيها لا يكفيك»، و

جاء في حديث آخر عن النبي -صلى الله عليه وآله-: «يقول ابن آدم: مالي مالي، و مالك من مالك إلا ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» (١).

و هكذا الذى يسعى نحو إشباع حرصه و طموحه يزور قبره قبل أن يحقق معشار حرصه، هل سمعت بقصه أصحاب البلايين؟ ألا فكرت فى سبب اجتهادهم فى الحصول على المزيد من حطام الدنيا و هم يملكون أضعاف ما قد يحتاجونه؟! انهم لا يزالون - حسب ظنهم فى وسط الطريق، لأنهم يبحثون دوما عن أعلى رقم، و الأرقام لا - تنتهى، و قد قال لى أحدهم: انه لا - يحصى ما يملك، و قال آخر: ان سبب

ص: ٣١٢

جهده البالغ ليس الحصول على الثروه، بل استباق غيره فيها، ولما سألته: و الى متى؟ قال هناك دائما من هو أغنى منى، فأنا فى بحث دائم! وهذا هو التكاثر الذى يستبد بمشاعر الإنسان و لا يدع متسعا للتفكير فى الاخره.

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ أَى شغلكم الاهتمام بالتكاثر فأنساكم الاخره، و قد اختلف المفسرون فى الذى ألهاهم هل هو المفاخره و المباهاه حسبما يأتى فى بيان شأن النزول، أم التجاره و التشاغل بأمر المعاش حسبما

جاء فى روايه ابن عباس عن النبى -صلى الله عليه و آله- انه قرأ: أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ و قال: «التكاثر: الأموال التى جمعها من غير حقها، و منعها من حقها، و شدّها فى الاوعيه» (١).

يبدو ان الدافع النفسى إلى التكاثر، و التنافس فى الأموال و الأولاد هو الذى ألهاهم، سواء تجسد فى السعى نحوهما أو فى المباهاه بهما، لان هذا الدافع موجود بالتالى هنا و هناك.

و لذلك لا- أجد تناقضا بين ما يظهر من معنى اللفظ من التشاغل بالتجاره و بشؤون الأولاد، و ما ذكر فى قصه نزول السوره من المباهاه و المفاخره بذلك، لأنهما يدخلان تحت عموم اللفظ، و ينتهيان إلى الدافع ذاته.

اما شأن النزول فإن المفسرين اختلفوا فيه كثيرا، مما يدل على أن مراد السابقين من شأن النزول أن السوره تنطبق على ما يقولون، و لا- تدل بالضروره أنها نزلت فيهم حقًا، و هكذا قال بعضهم: إنها نزلت فى اليهود، حيث تفاخرت قبائلهم على بعضهم، و قال البعض: بل فى قبيلتين من الأنصار، و قال ابن عباس: بل فى حيين

ص: ٣١٣

من قريش و هما بنو عبد مناف و بنو سهم. و أضاف: تعادوا و تكاثروا بالساده و الاشراف فى الإسلام، فقال: كل حى منهم: نحن أكثر سيّدا، و أعزّ عزيزا، فكثرت بنو عبد مناف سهما، ثم تكاثروا بالأموال فكثرتهم سهم، فنزلت أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ بِأَحْيَائِكُمْ، فلم ترضوا حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ مفتخرين بالأموال.

بلى. لا- يزال الناس يفتخرون بأمجاد الغابرين، و يتكاثرون بمن أمسوا ترابا، و كأنهم يغنون عنهم شيئا من أمور دينهم أو دنياهم، هيهات.

يقول الامام أمير المؤمنين-عليه السلام- و قد تلا هذه الآيات:

«يا له مراما ما أبعداه! و زورا ما أغفله! و خطرا ما أفضعه! لقد استخلوا منهم أى مدّكر، و تناوشوهم من مكان بعيد! أ فبمصارع آبائهم يفتخرون، أم بعديد الهلكى يتكاثرون! يرتجعون منهم أجسادا خوت، و حركات سكنت، و لا-ن يكونوا عبرا أحق من أن يكونوا مفتخرا، و لا-ن يهبطونهم جناب ذلّه أحجى من ان يقوموا بهم مقام عزّه لقد نظروا إليهم بأبصار العشوه، و ضربوا منهم فى غمره جهاله» (١).

من عبر التاريخ ما ينقله الرواه عن مصير هؤلاء المتكاثرين المتفاخرين، يقول قتاده: كانوا يقولون نحن أكثر من بنى فلان، و نحن أعز من بنى فلان، و هم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، و الله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم (٢).

و كلمه أخيره: إنّ الإنسان لا ينى يكافح حتى يزداد مالا و ولدا، حتى إذا انهارت قواه، و لما يبلغ مناه تراه يتفاخر بالغايرين، و يتكاثر بأهل القبور الباليه. ما أكفر الإنسان، و ما أبعداه فى الضلال! أ فلا يعتبر بمن هلك من قومه، و يقول: انى من

ص: ٣١٤

١- (١) المصدر/ص ٦٦١ نقلا عن نهج البلاغه.

٢- (٢) القرطبي/ج ١٠ ص ١٦٩.

بعدهم لهالك، أفلا ارتدع عن التلهي بالدنيا، وأنا وارد موردهم، و نازل بمنازلهم.

(٢) و يبقى الإنسان سادرا فى غفلته، لاهيا بالتنافس على حطام الدنيا، حتى يزور المقابر، ليرى بيت الوحشه مظلما لم ينوره بمصايح الصلاح، و لم يمهدده بحميد الفعال، فلا ينفعه يومئذ مال و لا بنون، و لا يغنيه مجد و لا فخر.

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق -عليه السلام-: «إذا وضع الميت فى قبره مثل له شخص، فقال له: يا هذا! كنا ثلاثة: كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، و كان أهلك فحلفوك و انصرفوا عنك، و كنت عملك فبقيت معك، أما إنى كنت أهون الثلاثة عليك» (١).

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ و لعل التعبير ب«حتى» للدلاله على ان التكاثر الذى يضر بصاحبه هو الذى يتصل بالموت فلو تاب صاحبه من قبل نفعته توبته، و للدلاله أيضا على أن التكاثر يبقى يلهى صاحبه حتى الموت، فعلينا ألا نسترسل معه، و لا ينظر بعضنا إلى ما أنعم الله على الآخر من أزواج و اموال و أولاد، بل ينظر فى أمور الدنيا إلى من دونه، و فى شؤون الآخره إلى من هو فوقه، قال تعالى: وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ .

و السؤال: لماذا قال: زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ أجابوا: لان العرب يقولون لمن مات قد زار قبره، و يبدو أن التعبير يوحى أيضا بأن من يموت لا يفنى، إنما ينتقل من عالم لآخر فهو كالزائر.

ص: ٣١٥

(١ - ١) بحار الأنوار/ ج ٦ ص ٢٦٥.

وقيل: ان معنى زياره المقابر: التفاخر بالأموات، والتكاثر بعددهم، حسيما سبق في بيان نزول السوره، وقلنا هناك: أن الايه تتسع لهذا المعنى أيضا، و لذلك ذكر بعض المفسرين أهميه زياره القبور و انها تذكر الإنسان بالموت، و تزهده في الدنيا، و ذكروا

نصا مأثورا عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنه قال:

«كنت نهيتكم عن زياره القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، و تذكر الآخرة» (١).

و قد حث الإسلام على ذكر الموت، و الذى يتم بعضه بزياره القبور، حتى

جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر -عليه السلام-: «ما أكثر ذكر الموت إنسان الا زهد في الدنيا» (٢) و

حينما سئل النبي -صلى الله عليه و آله- عن أكيس المؤمنين من هو؟ قال -صلى الله عليه و آله-: «أكثرهم ذكرا للموت، و أشدهم استعدادا» (٣).

(٣) و الذى يردع النفس من التلهي بالتكاثر خشيته من لقاء ربه عند ما يزور قبره، و يواجه عمله.

□
كَلَّا- سَوْفَ تَعْلَمُونَ و العلم ينقض الشك، كما ينقض الإنذار التلهي، و هذه الايه إنذار من رب العالمين بأن هذا التكاثر سوف يعلم ان من جمعه لم ينفعه.

(٤) و لا ينزعه التكاثر عميقه النفاذ في النفس، بالغه الأثر في قرار الإنسان، و ما أهلك الإنسان مثل الفخر، و لا- أضله مثل التكاثر، لذلك عاد السياق و أكد

ص: ٣١٦

١-١ (١) القرطبي/ج ٢٠ ص ١٧٠.

٢-٢ (٢) بحار الأنوار/ج ١٢٦.

٣-٣ (٣) المصدر.

الإندار تلو الإنذار.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ و على الإنسان ان يشتغل بإصلاح نفسه عن لهو التكاثر بذكر الموت هادم اللذات و مفرق الجماعات، حتى لا يفاجئه ملك الموت و هو لاه ساه.

و قد ذكر البعض: ان هذه الايه مجرد تأكيد للآيه السابقه، بينما ذهب البعض الى أن هذه الايه تذكرنا بعذاب الاخره، بينما الاولى تنذر بعذاب الدنيا الذى يجرى حين الموت و بعده فى القبر على امتداد أيام البرزخ و إلى حين يبعثون، و

قد ورد نصٌّ مأثور عن الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- فى ذلك، حيث روى زر بن حبیش عنه، قال: «ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت أَلِهَاتِكُمُ التَّكَاثُرُ الى قوله كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ يريد فى القبر ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ بعد البعث» (١).

و هكذا حذرنا أولياء الله من فتنه القبر و عذابه،

فهذا الامام على بن أبى طالب -عليه السلام- يكتب لمحمد بن أبى بكر: «يا عباد الله! ما بعد الموت -لمن لا يغفر له- أشد من الموت، القبر فاحذروا ضيقه و ضنكه و ظلمته و غربته، إن القبر يقول كل يوم: أنا بيت الغربه، أنا بيت التراب، أنا بيت الوحشه، أنا بيت الدود و الهوام. و القبر روضه من رياض الجنه أو حفره من حفر النار. إن العبد المؤمن إذا دفن قالت له الأرض: مرحبا و أهلا، قد كنت ممن أحب أن تمشى على ظهرى فاذا وليتكم فستعلم كيف صنيعى بك، فيتسع له مد البصر، و أن الكافر إذا دفن قالت له الأرض: لا- مرحبا بك و لا- أهلا، لقد كنت من أبغض من يمشى على ظهرى فاذا وليتكم فستعلم كيف صنيعى بك، فتضمه حتى تلتقى

ص: ٣١٧

(١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٦١.

(٥) لو علم الإنسان ما يصير إليه لما ألهاه التكاثر لان المعرفة تورث الخشيه، هكذا قال ربنا سبحانه: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** و لكن حجب الشك و الغفله و الشهوات تمنع عنه بصائر العلم و اليقين.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ إذا أسلمت النفس البشرية لهدى الله آمنت، و إذا طهرت من الشكوك و الظنون أوتيت اليقين، و لليقين درجات، و ما أوتى الإنسان أشرف من اليقين، هكذا

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الباقر-عليه السلام- حيث قال: «إنما هو الإسلام، و الايمان فوقه بدرجه، و التقوى فوق الايمان بدرجه، و اليقين فوق التقوى بدرجه، و لم يقسم بين الناس شىء أقل من اليقين» قال الراوى: قلت:

فأى شىء اليقين؟ قال: «التوكل على الله، و التسليم لله، و الرضا بقضاء الله، و التفويض إلى الله» (٢).

هكذا جعل الامام أسمى درجات الايمان و أشرفها اليقين، مما يدل على أن اليقين هو: طهاره القلب من دنس الشرك و الشك و الظنون، و سائر وساوس إبليس و همزاته.

و

جاء فى حديث آخر تفسير اليقين بالتغلب على خوف المخلوق، قال الامام الصادق-عليه السلام-: «ليس شىء إلا و له حد» فقال الراوى: فما حد التوكل؟ قال الامام-عليه السلام-: «اليقين» فقال السائل: فما حد اليقين؟

ص: ٣١٨

١-١) بحار الأنوار/ج ٦ ص ٢١٩.

٢-٢) بحار الأنوار/ج ٦ ص ٢١٨.

قال الامام-عليه السلام-: «ألا تخاف مع الله شيئاً» (١).

و اليقين يجعل عمل المؤمن مقبولاً، بل و يعظم ثوابه،

يقول الامام الصادق -عليه السلام-: «ان العمل الدائم القليل مع اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير اليقين» (٢).

أ رأيت الذى يصلى و قلبه متصل بنور الله، و نفسه طاهره من الرياء، و العجب، و الاستكبار، و يجاهد، و نيته لله و حده، كمن يصلى و قلبه ملىء بالوسواس، و يزكى رياء، و يجاهد للاستعلاء فى الأرض؟! لذلك كان أئمة الهدى -عليهم السلام- يجأرون إلى الله فى طلب الزيادة من اليقين، و يحثون اتباعهم على مثل ذلك، هكذا

جاء فى الحديث: كان على بن الحسين (الامام زين العابدين عليه السلام) يطيل القعود بعد المغرب يسأل الله اليقين. (٣)

و

روى عن الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- انه قال فى خطبه له: «أيها الناس! سلوا الله اليقين، و ارغبوا اليه فى العافيه، فإن أجل النعمه العافيه، و خير ما دام فى القلب اليقين، و المغبون من غبن دينه، و المغبوط من غبط يقينه» (٤).

و لا يبلغ الإنسان درجه اليقين الا بعد العروج فى درجات التسليم و الايمان و التقوى و كلها تقتضى المزيد من العمل الصالح و الخالص لوجه الله و المنبث على سائر جوارح البدن، و جوانح النفس، و حتى بعد الحصول على اليقين عليه ان يسعى جاهدا حتى يتجاوز عقد الشك و الارتياب بالتفكر و التعلم و الدعاء. الا ترى كيف

ص: ٣١٩

١-١) المصدر/ج ٧٠ ص ١٤٢.

٢-٢) المصدر/ص ١٤٧.

٣-٣) المصدر/ص ١٧٦.

٤-٤) المصدر.

سعى إبراهيم نحو اليقين حين سأله ربه سبحانه قائلا: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ» فلما قال له ربه: «أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي» و لم يكن فى قلبه ذره شك و لكنه حسب

حديث مأثور عن الامام الرضا-عليه السلام- «أراد من الله الزيادة فى يقينه» (١).

و علامه صدق اليقين دوام الاستقامه على صراط الحق، و ألا يتخذ الإنسان وليجه من دون الله و رسوله، و يكون مستعدًا لكل تضحيه و فى كل موقع. اولا سمعت قصه

الاعرابى الذى جاء إلى رسول الله و قال: يا رسول الله بايعنى على الإسلام فقال له الرسول-صلى الله عليه و آله-: «على ان تقتل أباك».

فكفّ الاعرابى يده، و اقبل رسول الله-صلى الله عليه و آله- على القوم يحدثهم.

و قد بين بعضهم درجات اليقين حسب فهمه بثلاث:

(الف): علم اليقين، و ضرب مثلا له كمن يعلم بوجود النار لما يراه من ضوئها أو دخانها.

(باء): حق اليقين و مثله كمن يرى النار بعينه مشاهده.

(جيم): عين اليقين مثل الذى يلامس النار فيحس حرارتها.

و هذا-حسبما يبدو لى-مجرد أمثله، و إلا فقد يكون يقين من يعلم بوجود النار بسبب علائمها أشد من الذى يلامسها؛ لان قلبه أوعى لحقيقتها من صاحبه. أ رأيت

ص: ٣٢٠

الطبيب قد يكون أفقه بحاله المريض و خصائص دائه من المريض ذاته، و لذلك

جاء فى الحديث: «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» (١) و لا ريب ان هناك فى المسلمين الأواخر من كان أشد يقينا بصدق الرساله من بعض الذين عاصروا النبى و صاحبوه، كل ذلك لان اليقين ليس مجرد علم بل روح فى القلب، تجعله يطمئن الى العلم و يسكن اليه، كما الايمان و التقوى، و بتعبير آخر: ان اليقين - كما قلنا فى بدايه الحديث - نقطه التقاء العلم بالإراداه، كما أن الايمان: التسليم و الإذعان للعلم، و عزم و عقد عزمات القلب على قبول مشاهدات العلم مهما بلغ الثمن، و هذا لا يكون بمجرد ظهور آيات الحقيقه للنفس، بل و أيضا بتصديق النفس لها، و السكون إليها، و لذلك يكون يقين المؤمن بالغيب أشد من علم الكافر بالشهود، و يبلغ اليقين بعضهم حدًا يعايشون الغيب بكل جوارحهم، و

يقول أميرهم الامام على - عليه السلام -: «و الله لو كشف الغطاء لما ازددت يقينا» (٢) و

يقول فى صفه المؤمنين:

«فهم و الجنة كمن قد راها فهم فيها منعمون، و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون» (٣).

جاء فى الكافى، عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد؛ و على، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن أبى محمّد الوابشى و إبراهيم بن مهزم، عن إسحاق بن عمّار قال:

سمعت أبا عبد الله - عليه السلام - يقول: «إن رسول الله - صلى الله عليه و آله - صلى بالناس الصبح فنظر إلى شاب فى المسجد و هو يخفق و يهوى برأسه، مصفرا لونه، قد نحف جسمه، و غارت عيناه فى رأسه، فقال له رسول الله - صلى الله عليه و آله - كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله! موقنا، فعجب رسول الله من قوله، و قال له: إن لكل يقين حقيقه فما حقيقه يقينك؟

ص: ٣٢١

١- ١) أصول الكافى ج ١ ص ٤٠٣.

٢- ٢) غرر الحكم و درر الكلم ص ٦٠٣.

٣- ٣) نهج البلاغه خ ١٩٣ ص ٣٠٣.

فقال: إنَّ يقينى يا رسول الله هو الذى أحزنى، وأسهر ليلى و أظمأ هو اجرى، فعزفت نفسى عن الدنيا و ما فيها حتى كأتى أنظر إلى عرش ربى و قد نصب للحساب، و حشر الخلايق لذلك، و أنا فيهم، و كأتى أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون فى الجنة و يتعارفون على الأرائك متكئون، و كأتى أنظر إلى أهل النار و هم فيها معذبون مصطرخون، و كأتى الآن أسمع زفير النار يدور فى مسامعى.

فقال رسول الله -صلى الله عليه و آله- هذا عبد نور الله قلبه بالايمن، ثم قال له: الزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لى يا رسول الله أن ارزق الشهاده معك، فدعا له رسول الله -صلى الله عليه و آله- فلم يلبث أن خرج فى بعض غزوات النبى -صلى الله عليه و آله- فاستشهد بعد تسعه نفر و كان هو العاشر» (١) (٦) ان الكافر ليرى الجحيم بعينه، يلامسها بجوارحه، فيعلم يقينا أنه واقعها، و أنه كان فى ضلال عنها مبین، بينما المؤمن يعى وجود النار، و يشاهدها ببصائر قلبه، فيعلم يقينا بها.

لَتَرُونَ الْجَحِيمَ (٧) أو ليس الاحجى بنا و الأخرى أن نؤمن بها و نحن بعيدون عنها، و قبل أن نردها ثم لا نصدر منها؟! ثم لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ قالوا: ان الايه تشير إلى أن كل البشر يردون النار أو يمرون عليها. لقوله سبحانه: وَ إِنَّ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا .

ص: ٣٢٢

فيمر عليها بعضهم كالبرق، وبعضهم كالريح و بعضهم كالطير، و يتباطأ بعضهم بذنوبه حتى يحترق بنارها قليلا، و بينما يغط بعضهم فيها و يمكث المذنب فيها بقدر ذنبه، قبل ان يتطهر كلياً و يدخل الجنة، و منهم الخالدون فيها أبداً و العياذ بالله.

(٨) لكي لا يلهينا عن الآخرة التكاثر بحطام الدنيا لا بد ان نعرف أننا مسئولون يومئذ عن النعيم، و كلما زادت نعم الله علينا طال وقوفنا للحساب عند ربنا، فهل نملك الجواب الصواب؟! يقال: ان النبي سليمان يختلف عن إخوانه الأنبياء الف عام يوقف للحساب، يسأل عن ملكه و نعيمه بينما هم يتنعمون في الجنة.

قالت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين -صلوات الله عليه-: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَهُ تِسْعَ عَشْرَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ قَدَّمَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ طَبَقًا فِيهِ قُرْصَانِ مِنْ خَبِزِ الشَّعِيرِ، وَ قَصَعَةٍ فِيهَا لَبَنٌ وَ مِلْحٌ جَرِيشٌ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ أَقْبَلَ عَلَى فِطْوَرِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ وَ تَأَمَّلَهُ حَرَّكَ رَأْسَهُ وَ بَكَى بِكَاءٍ شَدِيدًا عَالِيًا، وَ قَالَ: «يَا بَنِيَّ! مَا ظَنَنْتُ أَنْ بِنْتًا تَسُوءُ أَبَاهَا كَمَا قَدْ أَسَأْتَ أَنْتَ إِلَيَّ» قَالَتْ: وَ مَاذَا يَا أَبَاهُ؟ قَالَ: «يَا بَنِيَّ! أَ تَقْدِّمِينَ إِلَيَّ أَبِيكَ إِدَامِينَ فِي فِرْدِ طَبَقٍ وَاحِدٍ؟ أَمْ تَرِيدِينَ أَنْ يَطُولَ وَقُوفِي غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَّبِعَ أَخِي وَ ابْنَ عَمِّي رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- مَا قَدَّمْتُ إِلَيْهِ إِدَامَانَ فِي طَبَقٍ وَاحِدٍ إِلَى أَنْ قَبَضَهُ اللَّهُ، يَا بَنِيَّ! مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَ مَشْرَبُهُ وَ مَلْبَسُهُ إِلَّا طَالَ وَقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَا بَنِيَّ إِنَّ الدُّنْيَا فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَ فِي حَرَامِهَا عِقَابٌ وَ قَدْ أَخْبَرَنِي حَبِيبِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- أَنَّ جِبْرَائِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- نَزَلَ إِلَيْهِ وَ مَعَهُ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! السَّلَامُ يَقْرُوكَ السَّلَامُ وَ يَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ صَيَّرْتُ مَعَكَ جِبَالَ تَهَامِهِ ذَهَبًا وَ فِضَّةً، وَ خَذْ هَذِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَ لَا

ينقص ذلك من حظك يوم القيامة، قال: يا جبرئيل و ما يكون بعد ذلك؟ قال:

الموت، فقال: إذا لا حاجة لي في الدنيا، دعني أجوع يوما و أشبع يوما، فاليوم الذي أجوع فيه أتضرع إلى ربي و أسأله، و اليوم الذي أشبع فيه أشكر ربي و أحمده، فقال له جبرئيل: و فقت لكل خير يا محمد.

ثم قال عليه السلام: «يا بني! الدنيا دار غرور و دار هوان، فمن قدم شيئا و جده، يا بني! أو الله لا - آكل شيئا حتى ترفعين أحد الإدامين» فلما رفعته تقدم إلى الطعام فأكل قرصا واحدا بالملح الجريش، ثم حمد الله و أثنى عليه، ثم قام إلى صلاته فصلى... (١).

و لو وعى الإنسان هذه الحقيقة كبح شهوه التكاثر في نفسه، و لم يدع هذه الحالة تلهيه عن ذكر الله.

ثم لئسئ لئن يومئذ عن النعيم ما هو النعيم؟ اختلف المفسرون، بل و اختلفت النصوص، و يبدو أن الكلمة تتسع لكل الأقوال و لو بدرجات مختلفة، فقد ينفي نص أن يكون طعام الإنسان و شرابه مما يسئل عنه يوم القيامة،

فقد جاء في مجادله الامام الصادق عليه السلام مع أبي حنيفة:

قال أبو حنيفة: أخبرني جعلت فداك عن قول الله عز و جل: ثُمَّ لَنَسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قال «فما هو عندك يا أبا حنيفة؟» قال: الأمن في السرب، و صحه البدن، و القوت الحاضر. (٢) فقال: «يا أبا حنيفة! لئن وقفك الله أو أوقفك يوم القيامة حتى يسألك عن كل أكله أكلتها و شربه شربتها ليطولن و قوفك».

قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال: النعيم: «نحن الذين أنقذ الله الناس بنا

ص: ٣٢٤

١-١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٤٢ ص ٢٧٦.

٢-٢) المصدر ج ١٠ ص ٢٠٩.

من الضلالة، و بصرهم بنا من العمى، و علمهم بنا من الجهل» قال: جعلت فداك فكيف كان القرآن جديدا أبدا؟ قال: «لأنه لم يجعل لزمان دون زمان فتخلقه الأيام، و لو كان كذلك لفنى القرآن قبل فناء العالم»، بينما يثبت ذلك نص آخر، فما هو تفسير اختلاف النصين؟ يبدو ان أحدهما ينفي المسؤولية بمعنى العقاب بينما يثبت الثاني السؤال. أو ان الاول ينفي التشديد فى السؤال، بينما الثاني يثبت السؤال. و يدل على ذلك ما

جاء فى الحديث المأثور عن النبى-صلى الله عليه و آله-: «كل نعيم مسئول عنه صاحبه إلا ما كان فى غزو أو حج» (١).

و نعود و نتساءل: عما إذا يسأل العبد يوم القيامة؟ بلى. انه يسأل عن طعامه من اين اكتسبه و كيف صرفه، و

فى حديث مفصل قال النبى-صلى الله عليه و آله- لابي بكر و عمر «و الذى نفسى بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم. يوم القيامة» و كانا قد خرجا جائعين فصاحبا رسول الله الى ضيافته مالك بن التيهان-أحد الأنصار- فأكرمهم بقراه فقال لهما الرسول ذلك، و أضاف: «أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» (٢).

و

روى عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام فى تفسير النعيم، أنه قال: «النعيم:

الرطب و الماء البارد» (٣).

كما يسأل المرء عن مجمل ماله من اين اكتسبه و فيم صرفه، هكذا فى الأحاديث المأثوره: يسأله عن شبابه فيما أفناه، و ماله فيما أنفقه، و عن أمنه و عافيته. أ ليست الصحة نعمه كبيره و

جاء فى الحديث عن النبى-صلى الله عليه و آله-: «نعمتان

ص: ٣٢٥

١-١ (١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٦٥.

٢-٢ (٢) القرطبي/ج ٢٠ ص ١٧٥.

٣-٣ (٣) تفسير نمونه/ج ٢٧ ص ٢٨٦.

مغبون فيهما كثير من الناس الصحه و الفراغ» (١).

و

فى نص معروف: «نعمتان مجهولتان الصحه و الامان.» و عن جاهه عند الناس:

فقد جاء فى الحديث عن رسول الله-صلى الله عليه و آله-: «إذا كان يوم القيامة دعا الله بعباده فيوقفه بين يديه، فيسأله عن جاهه، كما يسأل عن ماله» (٢).

و لكن أعظم نعمه يسأل العبد عنها يوم القيامة هى نعمه الهدايه و التى تتجلى فى الرساله و فى الرسول و فيمن استخلفه الرسول من أئمه الهدى، أو ليست نعمه الرساله هى التى من الله بها على عباده إذ قال: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

و قال: «يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ».

و هكذا كانت ولايه أئمه الهدى أعظم مصداق للنعيم المسؤول عنها يوم القيامة، و بذلك استفاضت النصوص-مثل الحديث المأثور عن الامام الرضا عليه السلام- قال له بعض الفقهاء: يقول الله عز و جل: ثُمَّ لَتَسْتَبْلُغَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ أما هذه النعيم فى الدنيا و هو الماء البارد.

فقال له الرضا(عليه السلام) و علا صوته: «كذا فسرتموه أنتم، و جعلتموه على ضروب، فقالت طائفه: هو الماء البارد، و قال غيرهم: هو الطعام الطيب، و قال آخرون: هو طيب النوم» ثم نقل الامام الرضا عليه السلام حديثا عن آبائه، جاء فيه: «ان الله عز و جل لا يسأل عباده عما تفضل عليهم به» ثم قال: «و لكن

ص: ٣٢٤

١-١) القرطبي/ج ٢٠ ص ١٧٧.

٢-٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٦٤ و هناك نصوص اخرى فى هذا الحقل

النعميم حَبْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، وَمَوَالِئَنَا يَسْأَلُ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَفَى بِذَلِكَ أَذَاهُ إِلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَا يَزُولُ» ثُمَّ نَقَلَ الْإِمَامَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ -حَدِيثًا عَنْ آبَائِهِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- صَرِيحًا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ.

ص: ٣٢٧

سوره العصر

اشاره

ص: ۳۲۹

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله الصادق-عليه السلام-قال: «من قرأ و العصر في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقا وجهه، ضاحكا سنّه، قريرا عينه، حتى يدخل الجنّه».

تفسير نور الثقلين/ ج ٥/ ص ٦٦٦

ص: ٣٣١

لكى يتبصر الإنسان واقع الزمن، و كيف يهدم عمره لحظه بلحظه، ثم لكى يعرف بماذا يقاوم خسارته، جاءت سوره العصر عصاره لبصائر الذكر فى هذا الموضوع الاساسى، الذى لو وعاه الإنسان وعى حقيقه عمره، و حقائق العالم المحيط به.

قسما بالزمن، إنك لو لا الايمان فى خسران، و كل لحظه لا إيمان فيها و لا عمل صالح جزء ضائع من كيانك، و لكن الإنسان فى غفله عن هذا العدو الخطير، بيد أن المؤمنين يدكر بعضهم بعضا و يوصى بعضهم بعضا.

[سوره العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالْعَصِيرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا
بِالصَّبْرِ (٣)

بينات من الآيات:

(١) يزعم الإنسان أنه كلما طال عمره كبر و زاد، بينما الحقيقة عكس ذلك تماما، فكلما مضى من عمره شطر اقترب منه أجله، و تناقص رأسمال حياته، و نقص ما تبقى منه، فزياده المرء - إذا - في دنياه نقصان، و هو كبائع الثلج في يوم قائض يفقد رأسماله كل لحظة.

هكذا يحلف القرآن بالعصر و يقول:

وَ الْعَصْرِ قَالَ ابْن عَبَّاسٍ: إِنَّهُ قَسَمٌ بِالذَّهْرِ، وَ يَبْدُو لِي: أَنَّ أَقْرَبَ الْعَصُورِ هُوَ عَصْرُ أَنْتَ فِيهِ، وَ أَشْرَفُهَا عَصْرُ الرَّسَالَةِ حِينَ أُنْبِئْتَ النَّبِيَّ بِهِ، وَ عَصْرُ الْعَدَالَةِ حِينَ يَقُومُ الْحُجَّجُ الْقَائِمُ بِهِ.

ص: ٣٣٤

و قال بعضهم: إنما سمي الزمن بالعصر لأنه يعتصر الإنسان كما يعصر المرء غسيله، و أن القسم بالدهر إنما كان بلحاظ عصره للإنسان، و أتى كان فإن الحلف به يتناسب و الموضوع التالي: أي خساره الإنسان لعمره، أو ليس الزمن هو سبب الخساره؟ (٢) لو عرف الإنسان كيف تتبدل خلايا جسده، و كيف يستهلك كل يوم آلاف الخلايا من مخه، دون ان يستعيض عنها شيئاً، و كيف تتسارع ما حوله من أشياء في سبيل الفناء، حتى البيت الذي يسكنه يستهلك بسرعته لا يتصورها.

لو عرف الإنسان أن عمره بالقياس إلى عمر الأرض التي يعيش اليوم عليها ثم ينام في رحمها يكاد لا يكون شيئاً مذكوراً. إنه أقصر من نسيم يهب عليه في يوم قائف، و أسرع من سحابه في يوم عاصف، بل انه كالبرق الخاطف أو كخيال عابر.

لو عرف ان كل لحظه من عمره مسئوليته كبيره، فإما هي خطوه الى الجنه أو سقطه في النار.

لو عرف ذلك كله لاصح نفسه. و لما ضييع نفسه. و لما ضييع من عمره شيئاً.

لأنه في خساره لولا الايمان.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ يحيط به الخسر كما تحيط بالإنسان الدار. و أيه خساره أعظم من أن يفقد كل يوم جزء من عمره و جزء من رأسماله، و بالتالي جزء من ذاته. أ ليست ذاته ممتده على أيام حياته، فاذا مضى يوم فقد انقضى بعض ذاته.

يقول الامام على عليه السلام:

«من كانت مطيته الليل و النهار يسار به و إن كان واقفا» (١).

و لذلك يقول الشاعر:

و لن يلبث العصران يوم و ليله إذا طلبا ان يدركا ما تيمّها

(٣) حينما يعى المؤمن هذه الحقيقه يبادر بالعمل الصالح حتى يستوعب كل لحظه و كل لمحاه و كل سعره حيايته من حياته بما يحول الخسار فلاحا و أملا، فان أتعبه الكفاح من أجل العيش استراح الى الصلاه ليتزود منها الحيويه، و إذا ارهق عضلاته الجهد البدنى اشغل لسانه بالشكر، و قلبه بالفكر، و نفسه بالحب و الشوق الى لقاء ربه، و قد ترى أعضائه غارقه فى جهد بدنى يفلح الأرض، أو يسعى على مناكبها طلبا للرزق، أو يسخر ما فيها لتوفير العيش و فى ذات الوقت تجد قلبه فى ذكر الله، و التدبر فى آياته، و لسانه يلهج بحبّ الله.

انه متعدد الابعاد، واسع النشاط، عريض الطموح، سامى الهمه؛ لأنه قد وعى حقيقه الزمن، و تزود بسلاح تحدّيه عبر العمل الصالح.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ و لكن تيار الزمن، و شهوات النفس، و عادات المجتمع يضغط عليهم باتجاه الغفله و الكسل، فكيف يعالج المؤمنون هذه الظاهره؟ انما بتكوين بيئه رشيده تحيط بهم؟ و لا تدعهم يخلدون الى الراحة و الكسل. أو تدرى كيف؟ بتطبيق التواصى.

و تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ان الكبير يوصى الصغير، و الصغير بدوره يوصى الكبير، و العالم يوصى الجاهل،

ص: ٣٣٤

١- ١) نهج البلاغه/ ك ٣١ ص ٤٠٠.

و الجاهل أيضا يوصى العالم..و هذا المبدء يتسع لفريضه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، كما يتسع لواجب الدعوه الى الله،و تبليغ رسالاته،و إرشاد الجاهل..و يتسع للمزيد.

ذلك أن التواصى:ومضه روح،و اشراقه أمل،و عتاب لطيف.إنه يصنع جوا إيمانيا يساعدك على ممارسه واجباتك.انه يوجه حس التوافق الاجتماعى فى الاتجاه الصحيح.

و التواصى يكون بالحق و بالصبر،فما هما؟ ان معرفه الحق بحاجه الى مساعده الصالحين فهم يرشدونك اليه،و يرفعون الغموض الذى يسببه دعايات الضالين.و إذا تناقضت المذاهب،و اختلفت الآراء، و تشابهت عليك الأفكار هناك لا بد من إرشاد العلماء الصالحين و المؤمنين الواعين و تواصيهم بالحق.

فاذا عرفت الحق،كان الوقوف الى جانبه و الدفاع عنه و الاستقامه عليه بحاجه الى صبر عظيم،يتواصى به المؤمنون حتى لا ينهار بعضهم أمام شدائد الزمن.

ص: ٣٣٧

سوره الهمزه

اشاره

ص: ۳۳۹

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال: «من قرأ ويل لكل همزه في فريضه من فرائض الله بعد عنه الفقر، و جلب عليه الرزق، و يدفع عنه ميتة السوء».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٦٧

ص: ٣٤١

فى تسع آيات مباركات تبين سوره الهمزه حاله المتكبر الخاسر التى تخالف المؤمن المتواصى بالحق و الصبر، حيث تتجلى صفه الخساره، فمن يزعم أنه قد ربح الدنيا يجمع مالها و تعدادها. و الاستكبار على الناس بهمزهم و لمزهم، و أيه خساره أعظم من نبذه فى النار تحطم عظامه، أو ليست تتقد و تتطلع على الافئده؟ إنها حقًا سجن مغلق فى صوره أعمده ممدده.

[سوره الهمزه (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَيُلِي لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا - وَعَيْدَدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبِتَنَّ فِي
الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفْنِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ
(٩)

بيانات من الآيات:

(١) كما صفات الخير تتداعى صفات السوء فى أصحابها، لأنها تنبعث من جذر واحد، وهكذا ترى القرآن الكريم يذكرها معاً، لكى نعرف الناس و نقيمهم على مجمل سلوكهم و ليس ببعض ما تبدر منهم من صفات شاردة و شاذة.

إنه الويل و اللعنه لكل أولئك الذين يهزمون الناس فى وجوههم علواً فى الأرض و استكباراً، و يلمزونهم -إذا غابوا عنهم- إفساداً فى الأرض و فتنه، لا فرق بين من يتجاهر منهم بالكفر أو يدعى الايمان، فليست هذه صفات المؤمنين، و ليست بين الله و بين أحد من خلقه صلة قرابه أو رحم يمنع عن عقابه بمثل هذه الأفعال الاجرامية.

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ قالوا: معنى الويل الخزى و العار، و قالوا: إنه واد فى جهنم، و لا تناقض بينهما.

و قالوا: أصل الهمز الدفع أو الكسر، يقال: همزت الجوز بكفى أى كسرتة،

وقيل لـاعرابي: أ تهمزون(الفاره)اي هل تجعلون فوق ألف لفظه الفاره همزه و تقرأونها فأره.فقال:إنما تهمزها الهزه،اي الهزه تكسر الفأره و تأكلها،و من هنا انشدوا لشاعر قوله:

و من همزنا رأسه تهشما و انه هنا يعنى أن يطعن المرء فى وجهه،و انشدوا لحسان قوله:

همزتك فاختضعت بذلّ نفس بقافيه تأجج كالشواظ

و قال بعضهم:ان الهمز هو الاغتياب بالقول،بينما اللّمز:هو الاغتياب بالاشاره، و انهما معا بالتالى نوع من الحديث عن غائب،و انشدوا لشاعر قوله:

تدلّى بودى إذا لاقيتنى كذبا و إن أغيب فأنت الهامز اللّمزه

اما اللّمز فقال بعضهم:إنه الاغتياب،أو ذكر معايب الناس،و المشىء بالنميمة.

و يبدو أن الهمز أشد من اللّمز،فاذا كان الهمز بالوجه فاللّمز بالغيبه،و ان كان الهمز بالنطق فاللّمز بالاشاره،و إذا كان الهمز يهدف العلو فى الأرض،فان اللّمز يبقى الفساد فيها.الاول سمه التكبر و التجبر،و الثانى علامه المكر و الاحتيال،و قطع الأرحام،و اثاره الفتن.

و

جاء فى الحديث المأثور عن النبي -صلى الله عليه و آله-: «شرار عباد الله:

المشّاءون بالنميمة،المفسدون بين الأحبه،الباغون للبراء العيب»(١).

(٢)هؤلاء الهمازون للمازون يحسون بنقص فى أنفسهم،حيث

جاء فى

ص:٣٤٥

الحديث المأثور عن النبي-صلى الله عليه وآله-: «أذل الناس من أهان الناس» (١).

و هذا الاحساس يجعلهم يستكبرون على الناس، و يبحثون عما يجبر نقص أنفسهم بجمع المال و تعداده، و الافتخار به، و التعالى على الناس بسببه.

اللَّذِي جَمَعَ مَالًا - وَ عَدَّدَهُ يَبْدُو ان معنى «عَدَّدَهُ» أحصاه و عدَّده المره بعد الاخرى مباحاه به، و اعتمادا عليه، و لكى يرى هل بلغ مستوى طموحه أم لا؟ أرايت الأطفال كيف يحسبون دراهمهم باستمرار فرحا و فخرا.

(٣) ما الذى يبعثه نحو جمع المال وعده؟ هل مجرد المباحاه به. و الاستكبار عبره على الآخريين؟ لا بل و أيضا رغبه جامحه فى الخلود، تلك الرغبه التى كانت وراء أكل أبينا آدم-عليه السلام- من الشجره المحرمه، تلك الرغبه التى تدفع الملوكة لبسط سلطانهم و البطش بمن يخالفهم، و تلك الرغبه التى تبعثنا نحو أكثر أفعالنا و أعمالنا.

و لكن هل المال يخلد الإنسان فى الدنيا؟ هيهات.

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ فَأَيْنَ قَارُونَ بكنوزه التى أرهقت مفاتحه الأشداء من الرجال؟! و أين فرعون الذى استبد بملك مصر، و افتخر بالانهر التى تجرى من تحته؟! و أين القياصره و الاكاسره؟! أين من ملك مليارات الدولارات؟! كلهم أحبوا البقاء و ولهوا

ص: ٣٤٦

(١-١) تفسير نمونه نقلا عن موسوعه البحار ج ٧ ص ١٤٢.

بالخلود، و لكنهم لم يحملوا معهم الى قبورهم سوى الكفن، و ذهبوا الى غير رجعه.

(٤) تنعم الآخرون بجهدهم، بينما هم يعودون إلى ربهم محاسبون على كل درهم درهم من أموالهم، من اين اكتسبوه و فيم صرفوه.

□
كَلَّا لَا يَخْلَمُ الْمَالُ أَحَدًا، بَلْ قَدْ يَعَجَلُ فِي وَفَاتِهِ، وَ إِنَّا نَسْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ عَنْ بَعْضِ الْمَعْمَرِينَ الَّذِينَ تَجَاوَزَا الْمِائَةَ عَامَ فَلَا نَجِدُ فِيهِمْ إِلَّا عَادَةَ الْبُسْطَاءِ مِنَ النَّاسِ، وَ لَوْ كَانَتْ الثَّرْوَةُ سَبَبًا لِلْخُلُودِ لَكَانَتْ أَعْمَارُ النَّاسِ تَقَاسِمًا بِقَدْرِ أَمْوَالِهِمْ بَيْنَمَا قَدْ نَجِدُ الْعَكْسَ.

ثم إن جمع المال بكميّه كبيره لا يكون الا بالحرام مما يجعل صاحبه أكبر خاسر، يجمع المال بكدح بالغ ثم يكون وبالا عليه،

جاء في الحديث المأثور عن الامام على بن موسى الرضا-عليه السلام-: «لا يجتمع المال الا بخمس خصال: بخل شديد. و أمل طويل، و حرص غالب، و قطيعه رحم، و إثارة الدنيا على الآخرة» (١).

لَيُبَدَنَّ فِي الْحُطْمَةِ لَقَدْ أَهَانُوا النَّاسَ بِهِمْ، وَ سَخَرُوا مِنْهُمْ بِلَمْزِهِمْ، فَالْيَوْمَ يَلْقَوْنَ نَبْذًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي تَحْطُمُهُمْ.

(٥) و هل تدري ما هي الحطمة؟ اننا نعرف أن التحطيم من شأن ارتطام شيء خشن بمثله، بينما النار سياله فكيف تحطم؟

ص: ٣٤٧

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ ان علم البشر بحقائق الاخره محدود جدًا، و عليه ان يتزود بمقاييس جديده ليعرف ابعاد الحقائق فيها.

(٦) مثلا النار ذات طبيعه سياله فى الدنيا لأنها هنا مخففة سبعين مره عنها هناك، أما نار الله التى أوقدها جبار السموات و الأرض تجليا لغضبه فانها -حسبما يبدو- تتفجر و تفجر مما تجعل كل شىء فيها عظيما.

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ و كفى بك أن تعرف أنها نار الله بعظمته و جلاله، و شديد سطواته، و عريض كبريائه، و نسبتها الى الله بسبب أن ربها هو الذى أوقدها، و لعل إيقاد النار غير إشعالها، بل الهابها و تشديدها، قالوا: ان الله عز اسمه قد أوقد عليها ألف عام، و ألف عام، و ألف عام حتى اسودت، انتظارا لأعداء الله. أعاذنا الله منها.

(٧) و لشده النار تراها تطلع على الافنده أن تحرق الجلود و اللحم و العظام، قالوا: فاذا بلغت الفؤاد عاد إليهم جلودهم و اللحم و العظام، فيعذبون من جديد.

الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ قال بعضهم: ان نار جهنم تتجه رأسا الى لب الإنسان فتحرقه، و قال بعضهم:

بل انها شاعره، تعرف ماذا فى قلوب المجرمين فتعذبهم بقدر ما فيها من كفر و نكد.

(٨) و بعد ان ينبذوا فى نار جهنم تطبق عليهم، و توصل أبوابها، فلا روح، و لا نسيم، و لا شكوى، و لا كلام. انما هى شهيق، و زفير، و آهات، و أنات، و عذاب شديد.

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ أَي مَطْبِقُهُ عَلَيْهِمْ مَغْلَقُهُ أَبْوَابِهَا.

(٩)

جاء في الحديث المأثور عن رسول الله-صلى الله عليه و آله-: ثم إن الله يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار، و مسامير من نار، و عمد من نار، فتطبق عليهم بتلك الاطباق، و تشدّ عليهم بتلك المسامير، و تمد بتلك العمدة، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح، و لا يخرج منه غم، و ينسأهم الرحمن على عرشه، و يتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، و لا يستغيثون بعدها أبداً، و ينقطع الكلام، فيكون كلامهم زفيرا و شهيقا، فذلك قوله تعالى: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (١).

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ اختلفوا في هذه العمدة الممددة ماذا تكون؟ هل هي أغلال في أعناقهم، أم قيود في أرجلهم، أم هي الأوتاد التي تشد الاطباق بها أم ماذا؟ و قال بعضهم: انها كناية عن الدهر. فهي في دهور متطاولة و قال ابو عبيدة: العمود كل مستطيل من خشب أو حديد، و هو أصل للبناء مثل العماد.

و يحتمل ان تكون في النار أسطوانات يدخل أهلها فيها، فهم في هذه العمدة أي وسطها و الله العالم.

و انى كان فان نهايه فظيحه تنتظر كل مستكبر في الأرض، هماز لماز، و لكى لا يغرنا الشيطان بما نملك من أموال و بنين نقرأ معا حديثا مفصلا عن الامام الباقر -عليه السلام- يحذرنا بما في النار من عذاب رهيب، و نكتفى بذكر بعض مقاطع

ص: ٣٤٩

(١-١) القرطبي ج ٢٠ ص ١٨٦.

و يغضب الحى القيوم فيقول: يا مالِك! اقل لهم: ذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا، يا ملك! اسعّر سعّر فقد اشتد غضبى على من شتمنى على عرشى، و استخف بحقى، و انا الملك الجبار، فينادى مالِك: يا أهل الضلال و الاستكبار و النعمه فى دار الدنيا! كيف تجدون مس سقر؟! فيقولون: قد أنضجت قلوبنا، و أكلت لحومنا، و حطمت عظامنا، فليس لنا مستغيث، و لا لنا معين، فيقول مالِك: و عزه ربي لا أزيدكم الا عذابا، فيقولون: إن عذبنا ربنا لم يظلمنا شيئا، فيقول مالِك:

« فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَيَحْقَأُ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ » يعنى بعدا لأصحاب السعير، ثم يغضب الجبار فيقول: يا مالِك! اسعّر سعّر، فيغضب مالِك، فيبعث عليهم سحابه سوداء يظل أهل النار كلهم، ثم يناديهم فيسمعونها أولهم و آخرهم، و أفضلهم و أدناهم فيقول: ماذا تريدون ان أمطر كم؟ فيقولون: الماء البارد، و اعطشاه! و أطول هواناه! فيمطرهم حجاره و كلاليا و خطاطيفا، و غسلينا، و ديدانا من نار، فينضج و جوههم و جباههم، و يغض أبصارهم، و يحطم عظامهم، فعند ذلك ينادون: و اثوراه! اذا بقيت العظام عوارى من اللحم اشتد غضب الله، فيقول: يا مالِك! اسجرها عليهم كالحطب فى النار، ثم يضرب أمواجها أرواحهم سبعين خريفا فى النار، ثم يطبق عليهم أبوابها من الباب الى الباب مسيره خمسمائه عام، و غلظ الباب مسيره خمسمائه عام، ثم يجعل كل رجل منهم فى ثلاث توابيت من حديد من نار بعضها فى بعض، فلا يسمع لهم كلام أبدا إلا ان لهم شهيق كشهيق البغال، و زفير مثل نهيق الحمير، و عواء كعواء الكلاب، صم بكم عمى فليس لهم فيها كلام إلا - أنين، فيطبق عليهم أبوابها، و يسد (يمدّد خ ل) عليهم عمدها، فلا يدخل عليهم روح أبدا، و لا يخرج منهم الغم أبدا، فهى « عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ » يعنى مطبقه، ليس لهم من الملائكه شافعون، و لا من أهل الجنة صديق حميم، و ينساهم الرب، و يمحو ذكركم من قلوب العباد، فلا يذكرن أبدا (1).

سوره الفيل

اشاره

ص: ۳۵۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال: «من قرأ في فرائضه أ لم تر كيف فعل ربك شهد له يوم القيامة كل سهل و جبل و مدر بأنه كان من المصلين، و ينادى له يوم القيامة مناد: صدقتم على عبدى، شهدتكم له و عليه، أدخلوه الجنة و لا تحاسبوه، فإنه ممن أحبّه الله و أحبّ عمله» نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٤٨ و

فى بحار الأنوار، بخط الشهيد رحمه الله: ان الصادق-عليه السلام-يقرأ فى وجه العدو سورة الفيل.

موسوعه بحار الأنوار/٩٢ ص ٣٣٨

ص: ٣٥٣

تموجت الجزيره العربيه بالصراعات الدمويه و بقيت مكه بلدا آمنا كمثل جزيره ساكنه في بحر هائج،حتى أنّ ملك اليمن (أبرهه) عند ما سعى إلى غزوها ردّ على أعقابه بفعل طير غريب رمت جيشه بحجاره من سجيل.

أليس في ذلك دليلا على حرمة البيت، و آيه لاكرام الله لأهله، و نعمه عظيمه ينبغي أن يشكروا الله عليها بالايمان به و برسالاته؟.

[سوره الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا
أَبَابِيلَ (٣) تَزْمِيهِمْ بِحِجَارِهِ مِنْ سَجِيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

بِأَصْحَابِ الْفِيلِ

بينات من الآيات:

(١) كثيره عبر التاريخ التي لا- تزال آياتها مرسومه على صفحات الزمن و في ذاكره الأجيال، و لكن قليل هم الذين ينسلون من ضوضاء حاضرهم الى كهف التاريخ ليدرسوه بإمعان، و يعتبروا بحوادثه، و كانت قصه الفيل الذي أناخ بالمغمس من أطراف مكه ففزعت منه قريش، و لاذت بالجبال فرارا، كانت لا- تزال عالقه في أذهان أهل مكه، حتى قيل: ان بعض من رافقوا حمله أبرهه المشؤوم كانوا لا- يزالون أحياء، بيد أن قريشا التي أمنها الله من تلك الداهيه كفرت بأنعم الله، و جحدت آياته، و جاء الوحي يذكرهم قائلا:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ قَدْ تَكُونُ الْحَادِثَةُ التَّارِيخِيَّةُ شَدِيدَهُ الْوُضُوحِ إِلَى دَرَجَةِ تَكَادُ تَرَى، وَ لَا تَحْتَاجُ مِنَّا إِلَى أَنْ نَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا بِأَعْيُنِ بَصِيرَةٍ، وَ هَكَذَا يَبْدُو أَنَّ الرَّؤْيِيَةَ هُنَا جَاءَتْ بِمَعْنَى الْعِلْمِ

بها، والنظر الى آثارها، و سماع أنبائها مما يجعلك كأنك قد رأيتها.

و قد تجلت عظمه الله في ردع أكبر حملته قادها الأعداء ضد مكة، و بفعل خارج عن ظاهر السنن الجارية، حيث دمرهم بطير أباييل.

(٢) لقد عبثوا طاقاتهم، و جندوا اثني عشر ألفاً بأفضل عتادهم -حسب التواريخ- و كان الفيل الذي استقدموه لاثاره الهيبه سلاحاً جديداً في محيط الجزيره العربيه. زعمت العرب الا- قبل لهم به، و لكن الله أضل كيدهم، و أفضل خطتهم، فلم يحققوا به الغايه المطلوبه.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ قَالَ بَعْضُهُمْ: تَضْلِيلٌ كَيْدُهُمْ بِمَعْنَى فَشْلُهُمْ فِي هَدْمِ الْكَعْبَةِ، وَ تَصْفِيهِ آثَارِ الْحَنْفِيهِ الْإِبْرَاهِيمِيهِ، وَ تَوْجِيهِ الْعَرَبِ إِلَى بَيْتٍ جَدِيدٍ كَانَ أْبْرَهُهُ قَدْ بَنَاهُ فِي الْيَمَنِ.

و لكن السؤال: كيف أضل الله كيدهم؟ هل بفعل طير الأباييل فقط أم بأمر آخر؟ يبدو ان الايه تشير الى حادثه أخرى لم يذكرها المفسرون، و لعلهم ابتلوا بأمراض فتاكه كالجدري، أو وقعت بينهم الفتنه، أو ضلوا السبل أو ما أشبه، أو أصيب فيلهم بعاهه بسبب اختلاف المناخ، و قد أشارت الروايات التاريخيه الى بعض هذه القضايا.

(٣) و لا ريب أن اخطر ما أصابهم و قضى على حملتهم، كانت الطير التي قدمت عليهم -حسب التاريخ- من ناحيه البحر لم تعرفها المنطقه، فرمتهم بحجاره قاتله.

وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ

ص: ٣٥٧

لم تخطأهم الطير بل اتجهت مباشرة إليهم، و كانت تتلاحق عليهم أسرابا فأسرابا، و هذا ما فسرت به كلمه أباييل، قالوا: تعنى مجتمعه، و قيل: متتابعه، و قيل: متفرقه، تأتي من كل ناحيه، و أصل الكلمه من قولهم: فلان يؤيل على فلان أى يعظم عليه و يكثر، و اشتقاقها من الإيل.

(٤) بعد ان انتشرت فوقهم الطير كسحابه سوداء، أخذت تمطرهم بحجاره قاتله، قالوا: كان كل طير يحمل ثلاث أحجار: واحده فى منقاره و اثنتان بين أرجلها، و كانت الحجاره إذا أصابت جانبا من أبدانهم فرقته و خرجت من الطرف الاخر، فإذا أصابت بيضه الرأس اخترقت الدماغ و خرجت من الدبر، و قال بعضهم: إذا أصاب الحجر أحدهم خرج من الجدرى لم ير قبل ذلك، و قال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفض جلدته، فكان ذلك أول الجدرى.

تَزْمِيهِمْ بِحِجَارِهِ مِنْ سِيَّجِيلٍ قالوا: حجاره من طين، طبخت بنار جهنم، و قال بعضهم: السجيل: أصله السجين، و أبدلت النون لاما، و لا يبعد ذلك إذا كانت الكلمه معرّبه للتساهل فيما عربت من الكلمات، و قال بعضهم: بل السجيل من السجل حيث كتب عليهم ذلك، و الاول أقرب.

و لعل الحجاره كانت مسمومه أو تحمل جراثيم أمراض فتاكه كالجدرى، حسبما نقرء فى التفاسير كما

جاء فى حديث مأثور عن الامام الباقر -عليه السلام- عن قوم كانوا يقطعون السبيل، و يأتون المنكر: «...مع كل طير ثلاثه أحجار: حجران فى مخالبه، و حجر فى منقاره، فجعلت ترميهم بها حتى جدرت أجسادهم، فقتلهم الله عزّ و جلّ بها، و ما كانوا قبل ذلك رأوا شيئا من

ذلك الطير و لا من الجدر» (١).

(٥) يبدو ان مرض الجدرى قضى على خلايا جسداهم، حتى غدوا كالفقشور الباليه.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مِّمَّا كُؤِلِ قَالُوا: جعلهم الله كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل، ذلك أن العصف عندهم: ورق الزرع، كجلب القمح و الشعير، و قال بعضهم: العصف المأكول: الورق الذى أكل لبه و رمى قشره.

قصه أصحاب الفيل:

اهتمت قريش بقصه أصحاب الفيل، حيث أنها كانت تتخذ من هذه الواقعة ذريعه لسيطرتها على أهل الجزيره، و لذلك جعلوها بدايه لتاريخهم، و قد كانت ولاده النبي -صلى الله عليه و آله- فى ذات السنه حسب أشهر الروايات، فأضفى عليها صبغه شرعيه، و قد ذكروا تفاصيل كثيره فيها اختلافا و اسعا، و نذكرها: جاء فى مجمع البيان ما نصفه:

أجمعت الرواه على أن ملك اليمن الذى قصد هدم الكعبه هو أبرهه بن الصباح الاشرم، و قيل: أن كنيته ابو يكسوم، ثم ان أبرهه بنى كعبه باليمن، و جعل فيها قبابا من ذهب، فأمر أهل مملكته بالحجر إليها يضاهى بذلك البيت الحرام، و أن رجلا من بنى كنانه خرج، حتى قدم اليمن، فنظر إليها، ثم قعد فيها -يعنى لحاجه الإنسان- فدخلها أبرهه فوجد تلك العذره فيها، فقال: من اجترأ على بهذا و نصرانيتى، لأهدم من ذلك البيت حتى لا يحجه حاج أبدا، و دعا بالفيل، و أذن قومه

ص: ٣٥٩

بالخروج و من اتبعه من أهل اليمن، و كان أكثر من اتبعه منهم عكّ و الأشعرون و خثعم، ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلا من بنى سليم ليدعو الناس الى حج الذى بناه، فتلقاه أيضا رجل من الحمس من بنى كنانة فقتله، فزاد بذلك حنقا، و حث السير و الانطلاق، و طلب من أهل الطائف دليلا، فبعثوا معه رجلا من هذيل يقال له: نفيل: فخرج بهم يهديهم، حتى إذا كانوا بالمغمس نزلوه و هو من مكه على سته أميال، فبعثوا مقدماتهم الى مكه، فخرجت قريش عباديد فى رؤوس الجبال، و قالوا: لا طاقه لنا بقتال هؤلاء، و لم يبق بمكه غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته، و غير شبيهه بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجاب البيت، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول:

لاهمّ ان المرء يمنع رحله فامنع حلالك لا يغلبو بصليبيهم و محالهم عدوا محالك (1)

لا- يدخلوا البلد الحرام إذا فأمر ما بدا لك ثم ان مقدمات أبرهه أصابت نعما لقريش فأصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، فلما بلغه ذلك خرج حتى أتى القوم- و كان حاجب أبرهه رجلا من الاشعريين و كانت له بعبد المطلب معرفه- فاستأذن له على الملك، و قال له: إيها الملك! جاءك سيد قريش الذى يطعم إنسها فى الحى و وحشها فى الجبل، فقال له: ائذن له- و كان عبد المطلب رجلا- جسيما جميلا- فلما رآه أبو يكسوم أعظمه ان يجلسه تحته، و كره ان يجلسه معه على سريره، فنزل من سريره، فجلس على الأرض، و أجلس عبد المطلب معه، ثم قال: ما حاجتك، قال: حاجتى مائتا بعير لى أصابتها مقدمتك، فقال أبو يكسوم: و الله لقد رأيتك فاعجبتنى، ثم تكلمت فزهدت فيك، فقال: و لم أيها الملك؟ قال: لانى جئت الى بيت عزكم و منعتكم

ص: ٣٦٠

(١- ١) الحلال: القوم الحالون فى المكان و المحال: التدبير و القوه.

من العرب وفضلكم فى الناس، و شرفكم عليهم، و دينكم الذى تعبدون فجت لأكسره و أصيبت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتنى فى إبلك و لم تطلب الى فى بيتكم! فقال له عبد المطلب: ايها الملك! أنا أكلمك فى مالى و لهذا البيت ربّ هو يمنعه، لست انا منه فى شىء، فراع ذلك أبا يكسوم، و أمر برد إبل عبد المطلب عليه، ثم رجع و امست ليلتهم تلك الليله كالحه نجومها، كأنها تكلمهم كلاما لاقترابها منهم، فأحست نفوسهم بالعذاب، و خرج دليلهم حتى دخل الحرم و تركهم، و قام الأشعرون و خثعم فكسروا رماحهم و سيوفهم، و برؤا الى الله ان يعينوا على هدم البيت، فباتوا كذلك بأخبث ليله، ثم أدلجوا بسحر، فبعثوا فيلهم يريدون أن يصبحوا بمكه، فوجهوه الى مكه، فربض، فضربوه، فتمرغ، فلم يزالوا كذلك حتى كادوا أن يصبحوا، ثم إنهم أقبلوا على الفيل، فقالوا: لك الله أن لا نوجهك الى مكه، فانبعث فوجهوه الى اليمن راجعا، فتوجه يهرول، فعطفوه حين رأوه منطلقا، حتى إذا رده الى مكانه الاول ربض، فلما رأوا ذلك عادوا الى القسم، فلم يزالوا كذلك يعالجونه حتى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجاره، فجعلت ترميهم و كل طائر فى منقاره حجر، و فى رجليه حجران، و إذا رمت بذلك مضت و طلعت أخرى، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه، و لا عظم إلا أوهاه و ثقبه، و تاب أبو يكسوم راجعا قد أصابته بعض الحجاره، فجعل كلما قدم أرضا انقطع له فيها أرب، حتى إذا انتهى الى اليمن لم يبق شىء إلا باده، فلما قدمها تصدع صدره و انشق بطنه فهلك، و لم يصب من الاشعرين و خثعم أحد، و كان عبد المطلب يرتجز و يدعو على الحبشه يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا

ان عدو البيت من عاداكا انهم لم يقهروا قواكا (١)

ص: ٣٤١

سوره قريش

اشاره

ص: ۳۶۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره:

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أكثر من قراءه لإيلاف قريش بعثه الله يوم القيامة على مركب من مركب الجنّه، حتى يقعد على موائد النور يوم القيامة» موسوعه بحار الأنوار/ج ٩٢ ص ٣٣٧

ص: ٣٦٥

انها حقا إرهابيات رساله، و بشائر حضاره، حيث كانت فى قريش بقيه من آثار الحنفيه الإبراهيميه. ألم يحتفوا ببيت الله الحرام الذى آمنه الله من الدواهي، ألم يقدر الله ان يبعث فيهم رسول الله فيكونوا حملة رسالاته الى الافاق، ألم يجعل أئمه المسلمين من صفوه قريش بنى هاشم، و صفوه الصفوه أولاد محمد و على عليهما السلام.

بلى. لقد آلفهم الله حول بيته، و آلفهم لرحله الشتاء و الصيف، و هيا لهم مدينه راقيه بين مثيلاتها فى الجزيره، إذا ليعبدوا رب هذا البيت، و يتعالوا عن خرافات الجاهليه التى لا تتناسب و مستوى حضارتهم، أو ليس رب هذا البيت قد أطعمهم من جوع، و آمنهم من خوف؟ فلما ذا البقاء مع أساطير التخلف و الخوف؟ و تأتى السوره متممه لبصائر سوره الفيل السابقه حتى قيل: انهما معا سوره واحده.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ
جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

بينات من الآيات:

(١) هل هما سورتان أم سوره واحده تفصل بينهما البسملة، أم البسملة هي الاخرى محذوفه؟ كما نقل عن مصحف أبي، فيه أقوال مختلفات، أقربها انهما - كما في عامه المصاحف - سورتان متقاربتان المحتوى، وإن جاز - حسب بعض النصوص - الجمع بينهما في الفريضة،

فقد روى عن الامام الصادق - عليه السلام - انه قال: «لا تجمع بين سورتين في ركعه واحده إلا الضحى و ألم نشرح، و ألم تر كيف و لإيلاف قريش» (١).

ذلك ان ما فعله الله بأصحاب الفيل كان مثلاً واضحاً لكرامه البيت الحرام عند الله سبحانه، و أنه قد استجاب فيه لدعوه مجدد بنائه إبراهيم الخليل - عليه السلام - فجعله بيتاً آمناً، و رزق أهله من الثمرات، و كل ذلك وقر شروط المدنيه عنده، حيث بنت قبيله قريش حضارتها و إيلافها، و كانت تمهيدا لحضاره

ص: ٣٦٨

الإسلام المجيده، فقال ربنا سبحانه تعليقاً على قصه أصحاب الفيل:

لِإِيلَافٍ قُرَيْشٍ قَالُوا مَعْنَاهُ: فَعَلْنَا ذَلِكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ لَكِي يَأْلَفُوا مَكَّةَ، وَتَتَوَفَّرَ لَهُمْ شُرُوطُ الرَّحْلَةِ إِلَى الشَّامِ وَالْيَمَنِ.

وقال البعض: بل الحديث في هذه السورة مستقل مستأنف، وأن كان مكملًا -محتوى و معنى- لما بينه القرآن في السورة السابقة، ومعناه: إن الله وفر الأمن لقريش حتى تتسنى لهم رحله الشتاء و الصيف.

و هكذا فسروا الإيلاف: بإيجاب الالف، و هو الاجتماع المقرون. بالالتئام، و نظيره الإيناس، و نقل عن الازهرى أنه يشبه الاجاره و الخفاره، يقال: أَلَفَ يُولَفُ: إِذَا أَجَارَ الْخِمَائِلَ بِالْخِفَارَةِ (١) حيث أن الله وفر لقريش فرصه التجاره، بما كانت لهم من علاقات حسنه مع سائر العرب، و بما كانت لهم من هيبه في نفوس الناس باعتبارهم في جوار بيت الله.

و أتى كان أصل معنى الإيلاف فإن اللفظ يشير الى معنى المدنيه و الحضاره، لأن كلمه المدنيه مشتقه من المدينه، و الإيلاف بدوره يوحى بالتواجد في مكان واحد، اما الحضاره فهي مشتقه من حضور الناس عند بعضهم، بينما الإيلاف يدل على الحضور و التآلف، و معروف أن التآلف أهم من مجرد الحضور، و قد جعله الله سبحانه نعمه كبرى حين قال سبحانه: وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ (٢).

ص: ٣٦٩

١- (١) القرطبي/ج ٢٠ ص ٢٠٤

٢- (٢) الأنفال/٦٣

وقريش كانت القبيله العربيه التي ظهرت فيها بوادر المدينه باستقرارها في منطقه استراتيجيه، و أمنها، و اشتغالها بالتجاره التي هي أكثر من مجرد علاقات اقتصاديه، لأنها توفر أيضا فرصه التواصل الثقافى.

و لا ريب أن كل هذه الفرص لم تتوفر لقريش الا بفضل ما بقيت لديهم من آثار الوحى، و من تراث الحنفيه الإبراهيميه، و حسب النصوص الشرعيه: كان النبي -صلى الله عليه و آله- من سلاله طاهره موحده، لم تدينسها الجاهليه بشركها و فسوقها.

و كلمه قريش: جاءت من القرش بمعنى المال، باعتبارهم كانوا تجارا، و التقريش بمعنى الاكتساب، و قيل: بل جذر الكلمه من الاجتماع، حيث يقال:

تقرّشوا: أى اجتمعوا، و انما سمّوا بذلك حينما جمع قصى بن كلاب سائر قريش فى الحرم و انشدوا بعضهم:

أبونا قصى كان يدعى تجمعا به جمع الله القبائل من فھر

و يقال: ان الكلمه مأخوذه من سمك القرش، لأنه الأعظم بين احياء البحر، و قريش كانت الأعظم بين احياء العرب.

و أتى كان الاسم و مصدره فان القبائل التي كانت تنتمى الى النضر بن كنانه بن خزيمه كانت تسمى بهذا الاسم.

و قد ذكر بعضهم قصه تعكس بدايه اهتمام هذه القبيله بأمر التجاره فى عهد عمرو بن عبد مناف (1) و هي تدل على أن ذلك كان بسبب مجاعه أصابهم، كما ان تلك المجاعه دعتهم الى تنظيم علاقاتهم الاجتماعيه بصوره أفضل، حتى قال

ص: ٣٧٠

شاعرهم فى صفه التواسى بينهم:

و الخالطون فقيرهم بغيثهم حتى يصير فقيرهم كالكافى.

(٢) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ أَى الفوا هذه الرحله بفعل الله و فضلله، و كانوا يرحلون فى الشتاء الى اليمن لأنها بلاد دافئه، بينما يتجهون صيفا الى الشام لمناخها المعتدل.

و قال بعضهم: بل كانوا يشتون بمكه، و يصيفون بالطائف و انشدوا:

تشتى بمكه نعمه و مصيفها بالطائف

و سواء كانت التشتى و الاضطياف بهذه الأرض أو تلك أو بهدف التجاره أو المتعه، فإن ذلك يعكس مستوى رفيعا من المدنيه و الغنى، أليس الإنسان كلما تحضر أكثر كلما بحث عن وسائل الراحة، حتى و لو اقتضى الأمر الارتحال من بلد لآخر؟ (٣) ما الذى جعلهم فى أمن و غنى، أليس جوارهم لبيت الله؟ فلما ذا الشرك به و التمرد على رسالاته؟! هَيْلُ جَزَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟! و أى انتكاسه كبيره فى فطره الإنسان تلك التى تجعل جزاء الإحسان كفرا و عصيانا؟! فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ فَلَإِجْلِ شُكْرِ نِعْمِهِ إِيْلَافِ اللَّهِ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ لِقَرِيشٍ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الذى كان محور إيلافهم و وحدتهم و حضارتهم، و كلما تفاعل المجتمع مع محور تقدمه و حضارته، و مع أسباب رفاهه و غناه كلما كان ذلك سببا

ص: ٣٧١

لدوام نعم الله عليه وزيادتها وتناميها.

(٤) بسبب الإيلاف الذي كان بدوره نابعا من جوار البيت الحرام، وفر الله لقريش أهم نعمتين: الغنى و الأمن بالرغم من تواجدهم في بلاد قاحله، لا- زرع فيها ولا- ضرع، بلاد قاسيه دعت أهلها المعدودين الى الصراع من أجل البقاء، فكانوا في حروب لا تنتهى، شعارهم الخوف، و دثارهم السيف. فى هذه البيئه القاسيه الفقيره الخطيره وفر الله لقريش الطعام و الأمن. ألا يدعوهم ذلك الى الشكر و الطاعه؟ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ان قريشا نسيت ان كل ذلك كان بفضل آثار الرساله الإبراهيميه التى تجلت فى دعاء مجدد بناء الكعبه المشرفه، الذى جأر الى الله قائلا: قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (١).

لكنهم أخطئوا فى تفسير هذه الظاهره الفريده فى محيط الجزيره العريبه الذى كانت القبيله فى دوامه من الحروب الداميه، و الأزمات الاقتصاديه الخانقه، و كان خطأ قريش فى تفسير ذلك حائلا إذ جعلهم يواجهون رساله الإسلام، مما أزال سيادتهم على الجزيره، و سلب منهم شرف سدانتهم للحرم، و فتح الله مكه لنبيه الكريم محمد-صلى الله عليه و آله- و جعلهم الطلقاء بعد ان كانوا ساده العرب! و يبدو أن هذه السوره الكريمه وفرت فرصه ذهبيه لقريش لكى تصحح نظرتها الى نفسها، حتى لا تفتخر بما تملك من متعه و غنى، و لا تتخذها وسيله للطغيان و العصيان، و نشر الفساد فى الأرض، و الاستكبار على الناس. و لكن قريشا لم

ص: ٣٧٢

(١- ١) إبراهيم ١٣٥

تنتفع بذلك لا- فى عهد هبوط الایه و لا بعدئذ، حیث أنها كادت لرسول الله، و حاربت رسالته، فلما نصره الله علیهم دخلوا فى الإسلام و قلوبهم ملیئه بأحقاد الجاهلیه، ثم انضوا تحت رایه الحزب الاموى الحاقدا على الإسلام، و انتقموا من آل الرسول، و قال شاعرهم یزید بن معاویه بعد قتله للإمام الحسین علیه السلام:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء و لا وحي نزل

لست من خندف ان لم انتقم من بنى هاشم ما كان فعل

و هكذا أذلهم الله و جعلهم عبره لكل معتبر.

و الیوم إذا استمرت العرب تفتخر بثرواتها و بأمجادها بعیده عن رسالات الله فان مصیرها لن یكون أفضل من عاقبه قریش و حزبه الاموى، أما إذا اعتزوا بالإسلام فان الله یرفع شأنهم، و یعیدهم الى شرفهم الأسمى، و مجدهم التلید.

ص: ٣٧٣

سوره الماعون

اشاره

ص: ۳۷۵

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى جعفر-عليه السلام-قال: «من قرأ سوره أ رأيت الذى يكذب بالدين فى فرائضه و نوافله قبل الله عزّ و جلّ صلّاته و صيامه، و لم يحاسبه بما كان معه منه فى الحياه الدنيا» نور الثقلين /ج ٥ ص ٤٧٧

ص: ٣٧٧

القرآن ميزان و من دونه لا يملك الإنسان بصيره بنفسه ليعرف من هو و كيف هو؟ أليس حب الذات يجعله يزعم أبدا أنه على صواب؟ بينما هنالك مقاييس إن طبقت عليه كان صالحا، وإلا لا يغنيه التمني و التظنى و الادعاء شيئا.

و لا يكفي ان يدعى أحد انه مسلم، و انه يؤمن بالآخره، انما يجب ان يصدق عمله قوله. و سوره الماعون تذكرنا بهذه الحقيقه، و تبين صفات المكذب بالدين و إن ادعى التصديق به و هي: طرد اليتيم، الرغبه عن المسكين، الاستهانه بالصلاه و الرياء فيها، و منع الخير عن أهله.

و هكذا تأتي السوره المباركه فرقانا يميز المؤمن حقا بالدين و المكذب به.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

بينات من الآيات:

(١) تلك الصفات التي تسوقها سورة الماعون هل تؤخذ مفردة أم جميعاً؟ نقل عن بعضهم الثاني، فالمكذب بالدين هو الذي يجمع الصفات الثلاث، وهذا هو الظاهر؛ لأن صفات الشر تتداعى كما تتداعى صفات الخير، وهكذا تعرفنا السورة الكريمة بالذين يكذبون بالدين من هم، حتى نتقى تلك الصفات و ما يؤول إليها من التكذيب بالدين.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ هل رأيتَه بشخصه و عرفته بصفاته؟ و الدين هو الجزاء، و قيل: بل الإسلام و القرآن، و لكن محور أى دين هو الايمان بالجزاء، الذي ينعكس على النفس بالإحساس بالمسؤولية، و هو معنى الدين بمعناه الشامل.

(٢) الايمان بالدين يزكى نفس الإنسان، و يخرجها من شحها و ضيقها

و جهلها، و يستثير فيها فطره الحب، و بواعث الخير، و حوافز المعروف، و يجليها بالعواطف الجيِّاشة تجاه المستضعف و المحروم، بينما الذى يكذب بالدين تراه يدعّ اليتيم، ذلك الطفل البريء الذى حرم حب والده (أو والدته) و حنانه و عواطفه.

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ قَالُوا: الدَّعِ: الطرد و الدفع بعنف و قوه، و هو يكشف عن قسوه القلب، و تبدل العاطفه، و قد لا يطلب اليتيم منهم شيئاً سوى الترحم حتى يستعيز به ما فقدته من بركاته والده، و لكن القلب القاسى الذى يتمحور حول المصالح لا يجد باعثاً لاستقبال اليتيم، لأنه لا يتوقع من ورائه مصلحه دنيويه عاجله.

و قد حض الإسلام على احترام اليتيم و ايوائه، حتى

روى عن رسول الله -صلى الله عليه و آله-: «من ضمَّ يتيماً من المسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة» (١) (٣) من أسوء ما يتلى به الذى يكذب بالدين مسخ الشخصية، و انتكاسه الفطره، فتراه لا يتأثر بمنظر المسكين الذى يتضوّر جوعاً، و لا يحض أحداً على توفير نصيبه من الطعام، إنه لم يعد إنساناً ينبض قلبه بحب نظرائه من البشر.

و لا- يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ قَالُوا: الحض بمعنى الترغيب، و قال بعضهم: الطعام هنا بمعنى الإطعام، و قال بعضهم: بل الطعام بمعنى ما يستحقه اليتيم من الطعام، إشاره إلى أنه من حقهم و من مالهم، كما قال ربنا سبحانه: وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢).

ص: ٣٨١

١- (١) القرطبي/ج ٢٠ ص ٢١١

٢- (٢) المعارج/٢٥

و هكذا لا يعتبر إطعام المسكين سوى رد حقه إليه، و على المجتمع أن يكون شاهدا على ذلك و رقيبا، كما يراقب وضع السلطه و الأمن و الاقتصاد، و كما يشهد على سائر الحقوق أن تردّ إلى أهلها، و من لم يقدّم بشهادته، و ترك المسكين يتضور جوعا فإنه يستحق العقاب، لأنه ساهم في إفساد المجتمع، و نشر الفقر في أرجائه، كالذى يرى الطاعون ينتشر بين الناس فلم يمنع و هو قادر على المنع، أو يترك الأسد ينهش طفلا فلا يردعه، أو يترك الصبي يتردى، و الأعمى يصطدم و لا يحرك ساكنا.

و من هنا يصبح الحض على طعام المسكين واجبا بحد ذاته و تركه حراما، و هو واجب يشترك في مسؤوليته القادر على إطعام المسكين و غير القادر عليه.

(٤) و طعام المسكين أبرز مصاديق الزكاه، و الزكاه عدل الصلاه، و عاده ما يذكران معا في القرآن، بيد ان الصلاه ليست مظهرا خارجيا من مظاهر الدين، بل هي قبل ذلك صله العبد بالرب، فالذى يفسد هذه الصله بالرياء، و يستخدم أقدس مقدساته في أمور الدنيا فان له الويل و اللعنه.

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ اتَّخَذُواهَا وَسِيلَ الْدُنْيَا، وَ هِيَ مَعْرَاجُ الْآخِرَةِ، وَ هَكَذَا تَسَاهَلُوا فِيهَا.

(٥) فتراهم ينشطون الى الصلاه فى الملاء و يسهون عنها فى الخلاء، و الصلاه حقا هي التى تبثلك عن الخلق الى الخالق، و عن الدنيا إلى الآخرة، و عن الجسد الى الروح، و المؤمن ينبعث إليها فى الخلوات فى رحم الظلام عند سبات الطبيعه، حينما تحلو المؤانسه مع خير الذاكرين، و المناجاه مع رب العالمين، بينما المنافق يسهو عنها عندئذ و يخلوا الى الغفله و اللذه و وساوس إبليس.

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ و من أبعاد السهو عن الصلاة تأخيرها عن وقتها لغير عذر، هكذا

روى فى حديث مأثور عن الامام الصادق-عليه السلام- قال: «تأخير الصلاة عن أول وقتها لغير عذر» (١) و

روى عن الامام أمير المؤمنين-عليه السلام- «ليس عمل أحب الى الله عزّ و جلّ من الصلاة، فلا يشغلنكم عن أوقاتها شىء من أمور الدنيا، فان الله عزّ و جلّ ذم أقواما فقال: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ يعنى أنهم غافلون، استهانوا بأوقاتها» (٢) (٦) و الصلاة تمد المسلم بزد الايمان الذى يحتاج إليه فى كل شؤون الحياه، و من اتخذها هزوا، أو عملها رياء فقد أفنى زاده و هلك.

الَّذِينَ هُمْ يُرَأُونَ (٧) و الصلاة الحقيقيه تحرر الإنسان من شح ذاته، فتكون يده سخيّه، ينصر المظلوم، و يعين المحروم، بينما الذى يرائى فى صلاته يمنع أبسط الحقوق المفروضه عليه.

و يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ قالوا الماعون: أصله المعنى و هو القليل، و معناه كل ما فيه منفعه، و قالوا: انه ما يتعاوره الناس بينهم من الدلو، و الفاس و القدر، و ما لا يمنع كالماء و الملح (٣).

ص: ٣٨٣

١-١) الميزان/ ج ٢٠ ص ٣٦٨

٢-٢) المصدر/ ص ٣٦٩

٣-٣) جاء فى مجمع البيان انه روى مرفوعا عن رسول الله-صلى الله عليه و آله-المصدر/ ج ١٠ ص ٥٤٨

جاء فى الحديث عن الامام الصادق-عليه السلام-أنه قال: «هو القرض نقرضه، والمعروف تصنعه، ومتاع البيت تعيره و منه الزكاه» (قال الراوى) فقلت: ان لنا جيرانا إذا أعرناهم متاعا كسروه و أفسدوه، فعلينا جناح ان نمنعهم؟ فقال: «لا. ليس عليك جناح ان تمنعهم إذا كانوا كذلك» (1) وبالرغم من أنهم ذكروا اثنتى عشر قولاً، فإن الأقوال تعود جميعاً إلى أمر واحد هو المعروف كله، و لكن يبدو أنه المعروف الذى يعتبر الذى يمنعه خسيسا و منبوذا اجتماعياً، لأنه من النوع الذى يقارن فيه الناس عادة، مثل إعارة الظروف، و إعطاء النار و الملح و ما أشبهه.

و السوره-عموما تدل على أن مكارم الأخلاق ميراث التصديق بالدين، كما ان التكذيب بالدين يورث الرذائل التى يرفضها العقل و العرف، فترى الساهين عن الصلاه يمنعون عن الآخرين حتى الماعون الذى يتبادلته الناس بينهم.

ص: ٣٨٤

سوره الكوثر

اشاره

ص: ٣٨٥

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

فضل السوره

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّٰه-علیه السلام-قال:

«من قرأ إنا أعطیناک الكوثر فی فرائضه و نوافله سقاه اللّٰه من الكوثر یوم القیامه، و كان محدّثه عند رسول اللّٰه-صلّی اللّٰه علیه و آله-فی أصل طوبی» نور الثقلین/ج ۵ ص ۶۸۰

ص: ۳۸۷

يجمل القرآن في ثلاث آيات قصار معارف ربّانية يبيّنهما في مفضّلات السور، فإذا بهما معا معجزه في الحكمة و الخطاب.

فهذا القرآن، و تلك الذريه الصالحه الذين يحملونه الخيره بعد الخيره، و تلك الامه التي يباركها الله بالقرآن و العتره، إنّ كلّ ذلك كوثر أعطاه الله لمصطفاه الكريم محمد بن عبد الله-صلى الله عليه و آله- و من يملك هذا الامتداد الميمون كيف يكون أبترا؟! إنّما الأبترا الذي يشنأ محمدا، و ينقطع حسبه و نسبه، و تباد جاهليته، كما ظلام الليل يتبدد مع بزوغ الفجر.

و شكرا لنعمه الكوثر و استزاده منه يصلى الرسول لربه و ينحر، و نصلى و ننحر

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

بينات من الآيات:

(١) لقد حبى الله رسوله الكوثر، ذلك الخير العظيم الذى جعله رحمه مهدها إلى العالمين، ووسيله بركات الله على المؤمنين.

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ قالوا: إِنَّ الْكَوْثَرَ مشتق من الكثير، على صيغته فوعل، كما لفظه النوفل المشتقه من النفل، و الجوهر المشتقه من الجهر، وهكذا عبرت العرب عن كل شيء كثير فى الكمية، عظيم فى النوعيه بالكوثر.

قالوا فى تأويل كلمه الكوثر أقوالا- شتى يجمعها القول: بأن الله قد حبى نبيه خيرا كثيرا يتسع لكلّ حقول الخير، و لكل أبعاد حياته، من الرساله المباركه، إلى الذريه الطاهره، إلى الامه الشاهده، إلى الذكر الحسن، إلى الشفاعه عند الله، و إلى

الحوض الذى يستقبل ضيوف الرحمن قبل دخولهم الجنة.

بيد أنّ أعظم تأويلات الكوثر هو الكتاب و العتره، لأنّهما الثقلان اللذان خلفهما الرسول من بعده لامته، و أمرهم بالتمسك بهما، و أضاف:

«إنّهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض.» و هكذا يكون حوض الكوثر فى الجنة أو على مداخلها تجسيدا للكوثر فى الدنيا المتمثل بالكتاب و العتره.

و يتناسب هذا التفسير مع سياق السوره حيث تنعت شائى الرسول بأنّه الأبتى، و مفهومه أنّ الرسول تمتد عترته و ذريته من بعده، بعكس العاص بن وائل السهمى الذى قيل أنّ السوره نزلت بعد أن قال عن الرسول أنّه أبتى.

و هكذا جاء فى سبب نزول السوره: ان رسول الله -صلى الله عليه و آله- دخل من باب الصفا، و خرج من باب المروه فاستقبله العاص بن وائل السهمى، فرجع العاص الى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو أنفا؟ قال ذلك الأبتى، يريد به النبى -صلى الله عليه و آله- حتى انزل الله هذه السوره (1) و نجد فى النصوص التى تفسر هذه الكلمه إشاره الى أهل بيت النبى، و كيف يذاد عن حوض الكوثر من ظلمهم من بعده.

فقد أخرج ابن مردويه عن انس قال: دخلت على رسول الله -صلى الله عليه و آله و سلم- فقال: قد أعطيت الكوثر فقلت: يا رسول الله! ما الكوثر؟ قال: «نهر فى الجنة عرضه و طوله ما بين المشرق و المغرب، لا يشرب منه أحد فيظماً، و لا يتوضأ منه أحد فيشعث أبداً، لا يشرب منه من أخفر

ص: ٣٩١

ذمتى، ولا- من قتل أهل بيتي» (١) و من هنا ذكر الفخر الرازي هذا القول و أيده ببعض الشواهد. فقال: القول الثالث: الكوثر أولاده، لان هذه السوره إنما نزلت على من عابه- عليه السلام- بعدم الأولاد، فالمعنى: أنه يعطيه نسلاً يبقون على مَرِّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم ممتلئ منهم، و لم يبق من بنى أميه فى الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر و الصادق و الكاظم و الرضا -عليهم السلام- و النفس الزكية و أمثالهم (٢).

و يبقى سؤال: هل الكوثر فى القيامة حوض كبير فى مدخل الجنة أم نهر كريم فى عرصاتهما؟ لعل الكوثر نهر يفيض خيره الى مداخل الجنة و يصب فى حوض عظيم.

دعنا- فى خاتمه الحديث عن الكوثر- نذكر بعض الأحاديث فى صفه ذلك النهر و الحوض.

جاء فى حديث مسند الى ابن عباس انه قال: لما نزل على رسول الله: **إِنَّمَا أُعْطِيَ نَأْمُكَ الْكُوْثَرُ** قال له على بن أبى طالب: «ما هو الكوثر يا رسول الله؟» «قال نهر أكرمنى الله به» قال على: «إن هذا النهر شريف فأنعته لنا يا رسول الله!» قال: «نعم يا على! الكوثر نهر يجرى تحت العرش، ماءؤه أشد بياضاً من اللبن و أحلى من العسل، و ألين من الزبد، حصاه الزبرجد و الياقوت و المرجان، حشيشه الزعفران، ترابه المسك الأذفر، قواعده تحت عرش الله

ص: ٣٩٢

١- (١) المصدر/ص ٤٠٢.

٢- (٢) التفسير الكبير/ج ٣٢ ص ١٢٤.

عز و جل» ثم ضرب رسول الله على جنب أمير المؤمنين و قال: «يا على! هذا النهر لى و لك و لمحبيك من بعدى» (١).

و

أورد مسلم فى صحيحه عن أنس أنه قال: بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى إغفاه، ثم رفع رأسه مبتسما، فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال:

«أنزلت على أنفا سورة» فقرأ سورة الكوثر، ثم قال: «أ تدرين ما الكوثر؟» قلنا: الله و رسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة، آيته عدد نجوم السماء، فيختلج القرن منهم فأقول:

يا رب! أمتى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك» (٢).

(٢) لا يبلغ العبد كمال الانتفاع بنعم ربه إلا بمعرفه الله. و التقرب اليه زلفى.

أ رأيت الذى أسبغ الله عليه نعمه الأمن و العافيه و الغنى، و لكنه يجحد ربه كيف يفسد تلك النعم بكفرانها؟! فيستغل الأمن فى اشاعه الفساد، و العافيه فى اتباع الشهوات، و الغنى فى الطغيان! كما يفسد النعم بالحرص و الطمع و القلق و القنوط و سوء الخلق.

و أعظم نعم الله على الإنسان رساله لأنها تهديه الى سبل السلام و تعينه فى تسخير الحياه، و ترشده إلى العيش الأفضل، و لكن الرساله بدورها لا يحتملها إلا من عرف الله، و شكره عليها بالعمل و الأداء.

و الصلاه و الزكاه هما عمودا الرساله الالهيه، لان الصلاه توصل الإنسان بنور ربه، و الزكاه تطهر قلبه من الشح و الاستئثار و عباده الدنيا.. و هكذا أمر الله بهما بعد بيان نعمه الكوثر، فقال:

ص: ٣٩٣

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥ ص ٦٨٣.

٢- ٢) المصدر/ ص ٦٨١.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ فكلما ازداد الإنسان يقينا بربه-عبر الصلاة و الزكاه-كلما ازداد هدى و فوزا و انتفاعا بنعم الله و بالذات بنعمه الكوثر،التي هي كتاب الله و عتره رسول الله.

و انى كانت الصلاة:صلاه العيد فى اليوم العاشر من ذى الحجه،أو صلاه الصبح فى المزدلفه،أو كل صلاه فريضة،فانها بالتالى الشكر المناسب لنعمه الكوثر.

و كذلك النحر سواء كان الاضحيه فى يوم العيد بمنى أو أيه اضحيه و أى نسك، فانه يقوم بدوره فى تطهير القلب.

و قد اختلف المفسرون فى تأويل هذه الايه كما فى الايه السابقه على أقوال شتى،يمكن جمعها فى معنى عام واحد،بيناه آنفا.

بيد أن هناك نصوصا تصرح بأن معنى النحر هنا رفع الايدى باتجاه القبلة عند الصلاه..إليك بعضها.

جاء عن الامام الصادق-عليه السلام- أنه سئل عن الايه:فقال بيده هكذا،يعنى استقبال بيده حذاء وجهه القبلة فى افتتاح الصلاه (١).

و

اخرج البيهقى فى سننه و غيره عن على بن أبى طالب-عليه السلام-قال:

«لما نزلت هذه السوره على النبى-صلّى الله عليه و آله- إِذَا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ قَالَ النبى لجبرئيل:ما هذه النحيه التى أمرنى بها ربى؟قال انها ليست

ص:٣٩٤

بنحيه، و لكن يأمرك إذا تحرمت للصلاه ان ترفع يديك إذا كبرت و إذا ركعت و إذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا و صلاه الملائكه الذين هم فى السموات السبع، و ان لكل شىء زينه و زينه الصلاه رفع اليدين عند كل تكبيره» (١).

و انى لم أصل الى معنى جامع يستوعب هذا التفسير و التفسير السابق الذى ورد بعض النصوص تؤكده أيضا، بلى. قد نقول: إن رفع اليد علامه الاستعداد للتضحيه بالنفس كأن الإنسان يشير الى نحره، و أنه يقدمه قربانا لربه، بينما نحر البدن فى منى هو المعنى الحقيقى للكلمه.

و انى كان فقد روى عن سعيد بن جبير أنه قال: كانت هذه الايه يوم الحدييه، عند ما صالح النبى قريشا، أتاه جبرئيل فقال: انحر و ارجع (٢) و

جاء فى حديث مأثور عن الامام الباقر-عليه السلام- ان معنى النحر الاستعداد فى القيام قال: «النحر الاعتدال فى القيام، ان يقيم صلبه و نحره» (٣).

و الى هذا ذهب طائفه من المفسرين حيث قالوا: «انحر»: بمعنى ابدأ النحر، و لا يبدأ النحر إلا عند الاعتدال، و قالوا: ان منه التناحر بمعنى التقابل، و لكن يبدو ان المعنى الاول ينسجم مع ظاهره قرآنيه: فلا يذكر الصلاه إلا مقرونه بالزكاه أو الإنفاق.

(٣) من إعجاز القرآن انه بشر رسوله بالكوثر، يوم كانت عصابات قريش تحاصره، و تعذب أنصاره، و تكاد تقضى عليه، و اليوم أصبح دين الإسلام ظاهرا فى

ص: ٣٩٥

١- (١) الدر المنثور/ج ٦ ص ٤٠٣.

٢- (٢) المصدر.

٣- (٣) نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٨٤.

الأرض، و الرسول أعظم شخصيه عبر العصور و فى كل الافاق..بينما انقطع نسل شائيه، و أصبحوا أحاديث و عبر، كما قال ربنا سبحانه.

إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ لَقَدْ قَطَعَ ذَكَرَهُ إِلَّا بِاللَّعْنَةِ وَالْبِرَاءِ.

و سواء كان هذا الشانى هو العاص بن وائل أو أبو جهل أو عقبه بن أبى معيط أو غيرهم، و سواء كانت مناسبه حديثهم عن الرسول بموت القاسم ابن رسول الله فى مكه، أو إبراهيم ابنه فى المدينه فإن الأمر لا- يختلف، إذ أن ذلك الخط الجاهلى قد انقطع و انبتر، و بقى خط النبى يضىء عبر العصور.

و الشانى: هو العدو الحاقد، و الأبتَر: من البتر بمعنى القطع، و كانت العرب تسمى الذى لا ولد له بالأبتَر، و قيل: اتهم النبى بهذه الصفه لأنه تركهم و انبتر عنهم و خالفهم، و لكنهم هم الذين انبتروا و أصبحوا شذاذا.

ص: ٣٩٦

سوره الكافرون

اشاره

ص: ٣٩٧

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام:- «من قرأ قل يا أيها الكافرون و قل هو الله أحد فى فريضه من الفرائض غفر الله له و لوالديه و ما ولد، و إن كان شقيًا محى من ديوان الأشقياء، و أثبت فى ديوان السعداء، و أحياه الله سعيدا، و أماته شهيدا، و بعثه شهيدا» نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٧٠

هل تدري لماذا اعتبر الرسول الأكرم-حسب روايه معروفه-سوره الكافرين ربع القرآن؟ربما لان نصف القرآن أو يزيد يهدى الى حقائق التوحيد،و التوحيد -بدوره-يتشكل من جزئين:الايمان بالله،و نفى الشركاء،و نجد فى هذه السوره عصاره رفض الشركاء فى ربع القرآن.

و تتكرر فى هذه السوره كلمات البراءه مما يعبد المشركون، و أن الرسول لن يؤمن بما يؤمنون به من الأصنام،لينفصل و بوضوح خط التوحيد عن خط الشرك.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ لِمَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ (٦)

بينات من الآيات:

(١) هناك حقائق تكفيننا معرفتها و وعيها و العمل بها، بينما لا يكفى ذلك فى حقائق أخرى مثل نفى الشركاء إذ لا بد فى مثلها من البراءة عنهم، و الكفر الصريح بهم، و تحدى سلطانهم الثقافى و السياسى و الاجتماعى حتى يخلص ايمان لعبد، و لذلك جاءت بعض آيات التوحيد متوجه بكلمه «قل» التى تطالبنا بموقف واضح فاصل حاسم من الشركاء، أى من القوى الجاهليه التى تتسلط على رقاب العباد، و من القيم الفاسده التى تتحس فى النفس، و من السلوك الفاسد الذى يصبغ حياه الناس.

قُلْ بكل وضوح، لا-ن كلمه الرفض قد تكون أشد من الرفض ذاته، لأنها تشجع الآ-خرين عليه، الا- ترى كيف ان الكثيرين قد يعارضون حكومه جبار فى السر،

و لكن القليل منهم يعلنون رفضهم له إعلانا. و الله يأمرنا بإعلان الرفض و فى صيغه خطاب موجه الى الكافرين جميعا، الغائبين منهم و الحاضرين.

يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أنها الشهادة التى أمرنا بها، و التى نرددها من أعلى المنابر، فى مواقيت الصلاة و عند خواتيم الفرائض، الشهادة بالتوحيد التى تعنى صراحه رفض الأنداد و الشركاء، كما تعنى الحضور فى ساحه المواجهه ضد هؤلاء الشركاء ثم الصراع الشامل معهم، ذلك أن الشركاء ليسوا أشباحا أو نظريات، انهم حقائق ثقيله تمشى على الأرض بالجبروت و الفساد، فالشهادة على رفضهم تعنى الحضور فى سوح الصراع معهم.

(٢) و رفض المجتمع الجاهلى، و هدم كيانه الظالم لا يكون الا برفض مقدساته و قيمه، و ما يعبدونه من دون الله، رفض تقديس الالباء الذى يعنى الجمود و التقليد و الاسترسال، رفض تقديس الأرض و المصالح العشائريه و الطائفيه و الحزبيه و الاقليميه و القوميه، رفض الثقافات و الشرائع الباطله التى اضعفوا عليها القداسه.

كلا..

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ذكر الرواه: أن ساده قريش لقوا رسول الله -صلى الله عليه و آله و سلم- فقالوا: يا محمد! هلّم فلنعبد ما تعبد، و نشركك نحن و أنت فى أمرنا كله، فان كان الذى جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه و أخذنا بحظنا منه، و إن كان الذى بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شركتنا فى أمرنا و أخذت بحظك منه، فأنزل الله عز و جل قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) و أضيف فى روايه أخرى -فيسوا منه،

ص: ٤٠٣

و آذوه و آذوا أصحابه.

و معروف: ان الابه أوسع دلالة من تلك الواقعة، فإن نفي عباده الرسول لما يعبدون يشمل تحديده لمجمل قيمهم الجاهليه، و كياناتهم الظالمه.

و كلمه «ما» فى قوله: **مَا تَعْبُدُونَ** يشمل كل شىء يعبد من دون الله، سواء تمثل فى اشخاص أو أصنام أو قيم و هكذا كان نفي «ما» أشد وضوحا و أشمل من نفي «من» و تدل على غير العاقل.

(٣) هل يشترك الكافرون فى أمر العباده مع المؤمنين شيئا؟ كلاً.. إنهم يعبدون إلهها يختلف كليا عن رب العالمين الذى يعبده المؤمنون. أولئك يعبدون ربًّا عاجزا أمام قوه الشركاء، محتاجا الى دعم الأنداد، لا يهيمن على تدبير الكائنات، بينما المؤمنون يعبدون ربًّا قويا مقتدرا، لا يعجزه شىء، ربًّا جبارا مهيمنا مدبرا.

فليس ما يعبده الكافرون هو ما يعبده المؤمنون، بل إنه لمختلف جدًا.

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ و أنى لقلب واحد أن يجتمع فيه معرفه الله المتكبر الجبار مع الايمان بالجبت و الطاغوت، أو هل يجتمع النور و الظلام؟! (٤) و الذى يعبد الجبت و الطاغوت و لا يتحدى سلطه المستكبرين، و قيم الجاهلين لا يكون عابدا لله، و حاشا رسول الله و لمن اتبع هداه أن يختاروا الكفر بعد الايمان، و الضلال بعد الهدى، حتى لو تعرضوا لالوان العذاب.

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ

ص: ٤٠٤

ان من علامه صدق الايمان، و أنه وقر مستقر في فؤاد صاحبه أنه يعقد عزمات قلبه على تحدى كل الضغوط في سبيله حتى يأتيه اليقين، فيلقى ربه يايمان لا ظلم فيه، و إسلام لا استكبار معه.

والا- فان كل الناس حتى أسوأ الجاحدين يمرون عاده بلحظات إيمانيه، أو ليسوا يولدون على فطره الايمان، أو لا ترى كيف يجأرون الى ربهم في البأساء و الضراء؟ بلى. و لكنهم سرعان ما يشركون بربهم بسبب الشهوات، أو ضغط الطغاه و المجتمع الفاسد.

(٥) و كذلك يتميز خط الايمان و الشرك و لن يلتقيا على محور واحد، فلا ترى أحدا من الكفار بالله أبدا عابدا له، كيف و أن أول ما يأمر به الله هو الكفر بالطاغوت و مقاومه الجبت.

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ أَي أَنَّهُمْ حَالُ شُرَكَاهُمْ بِاللَّهِ لَيْسُوا مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، لَان الشرك حجاب بين الإنسان و ربه، حجاب في القلب و حجاب في السلوك، و انما تتجلى قيمه الايمان في كبح جماح التكبر في النفس، و كبح جماح المستكبرين في المجتمع، ليتحرر الإنسان من الجبت و الطاغوت، و يعود الى نور عقله و صفاء فطرته، و يمضى قدما في تسخير الطبيعه في الدنيا، و ابتغاء مرضاه الله و نعيم الجنة.

أما المستسلم للضغوط، المسترسل مع شهوات النفس و أهواء المتجبرين، فانه ليس بمؤمن بالله.

أو ليس الايمان بالله يعطى الإنسان بصيره و عزمه، و حكمه و شجاعه، عقلا

و توكلًا؟ و هل يمكن لمن أوتى تلك الصفات المثلى ان يتبع هواه و يطيع الطغاه؟ (٦) و هكذا استبان طريق الضلال عن سبيل الله، و دين الكفار عن دين الحق.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ وَ الدين هو المنهج المتكامل الذى يلتزم به الإنسان فى حياته، و لا يجتمع منهج الله مع منهج الشرك، و قال بعضهم: الدين هنا بمعنى الجزاء، فمعناه: ان لكل شخص جزاء عمله و عبادته. ان خيرا فخير و إن شرا فشر. و المعنى الاول اوفق مع السياق؛ لان جوهر الدين العباده، فمن عبد الله دان بدينه، و من عبد الشركاء دان بدينهم.

و هذه البراءه الصريحه من دين الشرك هى التى ميزت دين الله عن دين الأدياء، و ميزت عباد الله عن عبد الطاغوت، و ميزت خط الرساله الأصيل عن سبل الضلال.

ان المشركين و المستكبرين و المترفين حاولوا عبر التاريخ التقاطع مع المؤمنين الصادقين بالترغيب و التهيب فلم يفلحوا، و كان هدفهم استخدام اسم الدين و شعاراته لتمرير فسادهم و ظلمهم، و اضعاف الشرعيه على تجبرهم و استغلالهم، و لقد بقى رجال الله المخلصون صامدين أمام تلك المحاولات بتوفيق الله، و بالرغم من تعرضهم لشتى ألوان الأذى.

و جاءت هذه السوره التى استفاضت على اهميتها النصوص الشرعيه، و وثيقه براءه من المشركين، و سدّا منيعا أمام محاولاتهم التأثير فى التجمع الايمانى.

و انما تكررت آيات النفي لتأكيد هذه البراءة و ذلك الفصل، و من عادة العرب التكرار للتأكيد و انشدوا للشاعر:.

يا أقرع بن جامس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع

و هكذا

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق-عليه السلام-عن سبب نزولها و تكرارها: ان قريشا قالت لرسول الله تعبد الهتنا سنه و نعبد إلهك سنه، و تعبد الهتنا سنه و نعبد إلهك سنه فأجابهم الله بمثل ما قالوا، فقال قالوا:

تعبد آلهتنا سنه قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . و فيما قالوا:

نعبد إلهك سنه: وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ و فيما قالوا تعبد آلهتنا سنه:

و لَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ و فيما قالوا: و نعبد إلهك سنه: وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ . (١)

ص: ٤٠٧

سوره النصر

اشاره

ص: ۴۰۹

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال:

«من قرأ إذا جاء نصر الله و الفتح فى نافله أو فريضه نصره الله على جميع أعدائه، و جاء يوم القيامة و معه كتاب ينطق، قد أخرجہ الله من جوف قبره، فيه أمان من جسر جهنم و من النار و من زفير جهنم، فلا يمرّ على شىء يوم القيامة إلاّ بشّره و أخبره بكلّ خير حتى يدخل الجنه، و يفتح له فى الدنيا من أسباب الخير ما لم يتمنّ و لم يخطر على قلبه» نور الثقلين/ج ٦ ص ٦٨٩

ص: ٤١١

بعد جهاد دائم، و انتظار طويل يأتي نصر الله و الفتح، الذي لا يبتغي المؤمنون من ورائه سوى هدايه الناس إلى الحق.. و هكذا تراهم فرحين حين يجدون الناس يدخلون في دين الله أفواجا.. إنها بشاره عظمى و لكنها لن تدعوهم إلى الغرور، بل يتخذونها معراجا روحيا لنفوسهم الوالهه بحبّ الله، فيسبّحونه و يحمّدونه و يستغفرونه.

و التسبيح سبيل معرفه الله و التقرب اليه و الحمد وسيله منع الغرور و الكبر عن النفس، و الاستغفار طريق تكميل النواقص.. و هكذا توجز هذه السوره الكريمه برنامج المؤمن عند النصر و عند أى فضل يصيبه من عند الله.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ
اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

بينات من الآيات:

(١) و تتظاهر القوى السياسيه و الاقتصاديه و الاعلاميه ضد الرساله، و يحاصرونهم من كل صوب، و تضيق بهم السبل، و يلقي الشيطان وساوسه فى أفئدتهم، و يظنون بالله الظنون، و يطول ليل الانتظار، و ينادى الجميع: متى نصر الله؟ و جاء نصر الله، يسعى إليهم من ضمير الغيب، حيث يعرف المؤمنون بوعيمهم السياسى و الحركى، و ببصائر قلوبهم العارفه انهم كانوا أعجز من اقتناص النصر بقواهم الذاتيه، و إنما هو نصر الله الذى هزم عدوهم بالرعب، و أيدهم بالثبات و الاستقامه، و ألف بين قلوبهم بالايمان.

و أتبع الله النصر بنصر آخر، و تلاحت الانتصارات حتى جاءهم الفتح المبين، هناك بلغ المؤمنون أعظم أمانهم، حيث رأوا الناس يدخلون فى دين الله

ثم يعانى الداعيه حين يرى الناس فى ضلال مبين، و يجد القوى الجاهليه تقف حاجزا دون انتشار هدى الدين الى القلوب المظلمه، و ربما بلغ الحزن ببعض الدعاة أن يموتوا كمدا، و لهذا ينهى الله رسوله من ذلك بقوله سبحانه: **فَلَعَلَّكَ بِالْخَيْبِ تُنْفَسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (١)**.

و اليوم يعمهم الفرح حين يرون كيف تساقطت الحواجز و انتشر نور الهدى.

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ قَالُوا عَنْ هَذَا النِّصْرِ: إِنَّهُ نَصْرُ اللَّهِ رَسُولَهُ عَلَىٰ قَرِيشٍ فِي الْمَعَارِكِ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَهُمْ، وَقِيلَ: بَلْ نَصْرَهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْكُفَّارِ، أَمَا الْفَتْحُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ، وَ هَذَا يَتَنَاسَبُ وَ مَا جَاءَ فِي وَقْتِ نَزُولِ السُّورَةِ، حَيْثُ رُوِيَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَ ذَكَرَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى الرَّسُولِ،

فقد جاء فى حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام- انه قال: **أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ وَ آخِرُهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ (٢) وَقِيلَ:**

إنها نزلت بمنى فى حجة الوداع (٣).

و قد كانت تسمى هذه السوره بسوره التوديع لأنها- حسب الروايه التاليه- نعت الى الرسول نفسه، هكذا

يقول ابن عباس: **لَمَّا نَزَلَتْ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ قَالَ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- نَعَيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي بِأَنَّهَا مَقْبُوضَةٌ فِي هَذِهِ السَّنَةِ (٤)**

ص: ٤١٥

١- (١) الكهف/١٦

٢- (٢) نور الثقلين/ج ٥-ص ٦٦٠

٣- (٣) المصدر نقلا عن تفسير على بن إبراهيم.

٤- (٤) المصدر/ص ٦٨٩

و ربما السبب في ذلك أن السوره قد أوحى اليه أن مسئوليهِ الرسول كملِّغ و داعيهِ الى الله قد أكملت، لذلك كان عليه ان يستعد للرحيل.

(٢) النصر أو الفتح ليسا هدفا بذاتهما عند المؤمنين، إنما وسيله الى هدف أسمى هو هدايه الناس الى نور الرساله.

و رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فعند ما تهاوت حجب الضلال و رأى الناس نور الدين فوجدوه دين الفطره و العقل، دين الحكمه و السماحه دخلوا فيه فوجا بعد فوج، يقود كل فوج إمامهم و داعيتهم، و السابق منهم اليه، و قد قال المفسرون: انها نزلت في أهل اليمن الذين توافدوا على النبي -صلى الله عليه و آله- أفواجا، تقول

الروايه المأثوره عن ابن عباس: ان النبي -صلى الله عليه و آله- قرأ إذا جاء نصيرُ الله و الفتحُ و جاء أهل اليمن رقيقه أفئدتهم، لينه طباعهم، سخيه قلوبهم، عظيمه خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجا. (١)

و هكذا انتشر نور الإسلام بعد فتح مكه في كافه أرجاء الجزيره العربيه، و بدأ المسلمون يتحفزون للانبعاث الكبير في أرجاء الأرض.

و تهدينا بصائر هذه السوره و هدى سيره النبي و عبر تاريخ الحركات الدينيه: أن علينا أن نعقد العزم على تحطيم قلاع الكفر المتقدمه قبل نشر الرساله، فما دامت تلك القلاع تدافع عن قيم الجهل و التخلف، و تمنع الناس بالترهيب و التضليل و الترغيب عن التغيير و الإصلاح، لا- ينفع التبليغ و التبشير كثيرا، و من أجل هذا قاتل كثير من الأنبياء و الربانيون، و من أجل هذا جاهد الرسول الأكرم، و من

ص: ٤١٦

أجل هذا ينبغي أن يجاهد و يقاتل كل مبلغ و داعيه من يقف دون انتشار الدين.

(٣) لان النصر من عند الله ينبغي ان نشكر الله عليه، و نسبحه و نقدسه، و نظهر بذلك أفئدتنا من تلك الوسوس الشيطانيه التى أصابتها أيام المحنه، فزعم البعض:

ان الله تعالى قد أخلف وعده، أو انه سبحانه لم يقدر على النصر أو ما أشبهه، مما يعبر عنه القرآن الكريم بالزلزله حين يقول: وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَيْتًا نَصِرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصِرَ اللَّهُ قَرِيبٌ (١) و ها هو النصر قد أقدم، فلنغسل بمياهه المتدفقه آثار الهزيمه، و لنسبح الله.

ثم ان للنصر كما للهزيمه آثارا سلبيه كالغرور و التكبر و التعالى و التطرف، و عبر الايمان بالله، و المزيد من اليقين يمكن السيطره على تلك الصفات.. من هنا أمر الله بالتسبيح و الحمد و قال:

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ثُمَّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَّخِذُ مِنْ كُلِّ حَادِثَةٍ أَوْ ظَاهِرِهِ مَعْرَاجًا لِرُوحِهِ، و وسيله لتكامل نفسه، و تنامى صفات الخير فيها، و النصر واحد من أشد الحوادث أثرا فى النفس البشريه، و لذلك يتخذ المؤمن وسيله للتعرف على ربه، و التقرب اليه.

و التسبيح تقديس الله عن صفات المخلوقين و عن احاطه علمهم به، بينما الحمد نعت لله بالأسماء الحسنى و ما فيها من صفات الجلال و الجمال، و يقدم التسبيح على الحمد لان إثبات صفه لله قد يوحى ببعض آثاره السلبيه، فاثبات القدره قد توحى بالظلم، و إثبات الرحمه قد توحى بتجاوز الحكمه، بينما ربنا مقتدر عدل و رحيم حكيم.

ص: ٤١٧

وَاسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا و يبقى طريق الكمال مفتوحا أمام الإنسان، و تبقى تطلعاته الى التسامى مشروعه، و الاستغفار أقرب وسيله الى تحقيقها؛ لأنه يوقف الإنسان على نقاط ضعفه، و مواقع عجزه، و يحسسه من جهه بمدى حاجته الى الكمال. و من جهه أخرى بإمكانه ذلك.

و حينما يحس الإنسان بضعفه و عجزه و درجات قصوره و تقصيره يعتريه شعور عميق باليأس من إصلاح نفسه لولا التوجه الى الله، و التذكر بأنه تَوَّابٌ رحيم.

و حينما يستغفر المنتصر ربه لا يخضع لحب الانتقام من أعدائه الذين انتصر عليهم، بل يتحلّى بروح التسامح و العفو، أ و ليس يطلب الغفران من ربه و العفو، إذا فليعفو و ليغفر للمذنبين حتى يعفو عنه الله و يغفر له.

ص: ٤١٨

سوره المسد

اشاره

ص: ۴۱۹

بسم الله الرحمن الرحيم لقد قطع رحمه و خان، و كان عليه أن يدافع عن ابن أخيه في عرف العرب و قيمهم، قطع الله يديه و قطعه، و أهلكتها و أهلكته.

فهل نفعته أمواله التي من أجلها خرج على أعراف العرب و قيم بني هاشم.

كلا.. كان يدعى أبا لهب، فأمسى يصلى لهبا، و هكذا امرأته التي مشت بالنميمة و اشعلت نيران الفتنة و كان عنقها محاطا بحبل من مسد و من ليف النخل.

[سوره المسد (۱۱۱): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (۱) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (۲) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (۳) وَامْرَأَتُهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (۴) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (۵)

بينات من الآيات:

(١) كان من أشرف قريش، انتقلت اليه زعامه بنى هاشم بعد أخيه الراحل أبي طالب-عليه السلام-و كان عليه ان يجسد قيم آبائه و عشيرته الذين ورثوا حنفيه إبراهيم الخليل-عليه السلام-و ان يدافع عن ابن أخيه حسب اعراف العرب العشائريه.

و لكنه-فيما يبدو-تحالف مع العشيره المناوئه من بنى اميه،و ربما بسبب زوجته أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب،أو لأنه كان ذا ثروه طائله،فمال الى الطبقة الاثرى فى قريش،أو لاي سبب آخر فقطع رحمه،و انسلخ عن حسبه، و عادى النبي بأشد ما تكون العداوه.

كان يمشى فى طرقات مكه وراء النبي و يحذر الناس منه و مما يزعم..انه ساحر،و كان الناس يعلمون أنه كبير بنى هاشم و أنه يصدق فى أمرهم فيرجعون

اليه، و لكنه كان يخون موقعه، و يتهم النبي بالكذب حيناً و بالسحر حيناً، و قد يفحش له فى القول و يقول: تبا له.

يقول بعض المفسرين: كان إذا وفد على النبي -صلى الله عليه و آله- وفد انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- و يقولون له:

أنت اعلم به منا، فيقول لهم أبو لهب: انه كذاب ساحر، فيرجعون عنه و لا يلقونه، فأتى وفد، ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه و نسمع كلامه، فقال لهم أبو لهب: إنا لم نزل نعالجه، فتبا له و تعسا.

و كان هو و زوجته ينشدون شعراً بذيئاً ضد النبي، و يقولون:

مذمماً عصينا و أمره أبينا و دينه قلينا

و فى يوم الدار حيث جمع النبي عشيرته الأقربين لينذرهم حسب أمر الله له، فلما طعموا و شربوا، قال أبو لهب: سحركم محمد -صلى الله عليه و آله- إن أحدنا لياكل الجذعه (ولد الشاه فى السنه الثانيه) و يشرب العس (القدح الكبير) من اللبن فلا يشبع، و إن محمداً قد أشبعكم من فخذ شاه و أرواكم من عس لبن.

و

فى يوم الإنذار العام، حينما صعد النبي -صلى الله عليه و آله- الصفا، فهتف يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا اليه، فقال لهم: «أ رأيتكم لو أخبرتكم ان خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أ كنتم مصدقى؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: «فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب، تبا لك أما جمعتنا إلا لهداء، ثم قام. هكذا أصبح عم النبي من أشد الناس عداوه له، و أكثرهم إيذاء، أو ليس الناس يزعمون أنه أعرف بالنبي من غيره باعتباره عم النبي، و سيد عشيرته؟

ص: ٤٢٥

و هكذا نزلت السوره الكريمه فى شأنه أولا ليفصح للناس مدى عداوته للنبي، فلا يعتبرونه خيرا بشأنه، بل حسودا كنودا و عدوا لدودا، و لا يابهون بكلامه فى حق النبي، و ثانيا: لكى لا يزعم أحد أن قرابته للنبي تمنحه البراءه من النار، و التحلل عن مسئوليات الشريعه، فهذا عم النبي يختص بالتفريع، و تنزل فى ذمه سوره باسمه مما لا نجده فى حق أى من أعداء النبي المعاصرين له.

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ قَالُوا: تبت: أى هلكت، أو خسرت، أو خابت، أو صغرت، أو قطعت، و لا بأس بتصور معنى جامع للكلمه تشتمل كل هذه المعانى.

و قالوا فى كنيه الرجل أنها كانت بديلا عن اسمه، فلم يكن ذكر كنيته شرفا له بل ذمًا، لان اللهب يعنى شرر النار، و نعت أحد به لا يشرفه، و قد جعله الله عليه لهبا يوم القيامه، ثم ان اسمه كان عبد العزى، و لم يكن مناسبا ذكر هذا الاسم فى كتاب ربنا، الذى يفيض بنور التوحيد و الحنفيه الطاهره.

و تَبَّ هلك الرجل و خاب و خسِر.

قالوا: الكلمه الاولى دعاء عليه، و ذكر اليد إشاره الى الشخص ذاته، و هكذا تكنى العرب عن الشىء بجزء، فتقول مثلا يد الرزايا، أو يد الدهر، أو ما أشبهه، قال الشاعر:

و لقد مررت على ديارهم أطلالها بيد البلا نهب

اما الكلمه الثانيه «و تب» فهى خبر، أى أن أبا لهب قد هلك فعلا، و بذلك

وقعت اللعنه المتوقعه عليه.

و يبدو لى ان الكلمه الاولى دعاء على صفقه يديه و ما تكسبه من فعل،و الثانيه عليه شخصيًا،أو أن الثانيه توضيح و تأكيد للأولى،ذلك أن سبب هلاك الإنسان ما تجنيه يده،فاللعنه تتوجه إليها،ثم اليه لأنه المسؤول عن فعلهما،و لعل فى الايه الثانيه اشاره الى ذلك.

(٢)ابو لهب-كما سائر المستكبرين و المعاندين-يتكلمون على أموالهم و امكاناتهم فى مواجهه الحق،و لكن عند ما يحين ميعاد الجزاء العادل لا يغنى عنهم ذلك شيئًا.

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ فَلَا ثَرَوَتَهُ تَغْنِيهِ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا،و لا ما اكتسبه بها و بغيرها من جاه و قوه،و مكانه اجتماعيه.

و هكذا يكون ما كسب أعم من المال،لان المال بدوره من مكاسب الفرد، و قيل:ان«ما كسب»هو أولاده،و لعل الولد يعتبر مما يكتسبه الإنسان.

(٣)كلا..النار تنتظره و سيصلاها،ليتحسس مباشره حرّها و ألمها،و إذا كان أبواه قد وجدوا فى وجنتيه لهما اجتذبهم حتى كنياه بأبى لهب،فإن هذا الجمال الظاهرى لم ينفعه،بل تحول فى العقبى إلى نار لا هبه تحرقه.

سَيَصِلُ إِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٤)و امرأه أبى لهب كانت أخت أبى سفيان،و عمه معاويه،و كانت -حسب الروايات-عوراء و لكنها سميت أم جميل،و كانت بذئته اللسان،

ص:٤٢٧

متكبره، و شديده العداة للرسول و لدعوته، كعداء أخيها أبي سفيان.

قالوا: انها كانت بالغه الثراء، و لكنها من بخلها و شحها كانت تحمل الحطب و لا تشتريه، و ربما ألفت الأشواك في طريق النبي و سائر المسلمين إيذاء لهم، و هكذا ألحقها الله بزوجها.

وَ امْرَأَتُهُ حَمَّ آلهِ الْحَطَبِ و جاءت كلمه حَمَّ آلهِ الْحَطَبِ منصوبه للدلاله على ذمها، و قد اختلفوا في تفسير الكلمه: هل نعتت بالبخل، و كيف انها تدعى الشرف، و تحمل الحطب؟ أو انها ذمّت للاقائها الأشواك في طريق النبي؟ أو لأنها كانت تمشى بالنميمه، و العرب تسمى من يفعل ذلك بحامل الحطب لأنه يشعل نار الفتنة بين الناس؟ و انشدوا:

ان بنى الادرم حاملو الحطب هم الوشاه في الرضا و في الغضب

و

روى أن حماله الحطب لما سمعت بنزل هذه السوره فيها و في زوجها، قدمت على المسجد الحرام تقصد النبي الذي كان جالسا و معه ابو بكر بن أبي قحافه، فقال:

يا رسول الله! هذه أم جميل محفظه (اي مغضبه) تريدك، و معها حجر تريد ان ترميك به، فقال-صلى الله عليه و آله-: «انها لا ترانى» فقالت لابي بكر: أين صاحبك قال: حيث شاء الله، قالت جئته و لو أراه لرميته، فانه هجاني، و اللات و العزى إني لشاعره (و في روايه: انى لسيده) فقال ابو بكر: يا رسول الله! لم ترك؟ قال: «لا. ضرب الله بيني و بينها حجاب» (١).

(٥) و ان الفتاه لتتزين بقلاده من الدر و اللؤلؤ و سائر الأحجار الكريمة، و لكنها

ص: ٤٢٨

١-١) نور الثقلين/ ج ٥- ص ٦٨٩.

قد جعلت في عنقها حبلا من ليف النخل حينما احتملت حطبا و ألقته في طريق الرسول، فهل يدل ذلك إلا على الخسه و الدناءه.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ قَالُوا: الْجِيدُ: الْعُنُقُ، وَ الْمَسَدُ: اللَّيْفُ، وَ انشُدوا: مَا مَسَدَ الْخَوْصَ تَعُوذُ مِنِّي.

و قال البعض: إن ذلك عذاب، أو عدها الله أن يجعل في جيدها حبلا من ليف يوم القيامة، لأنها أنفقت قلاده لها من جواهر في محاربه النبي.

ص: ٤٢٩

سوره الإِخْلَاصِ

اشاره

ص: ۴۳۱

فضل السوره

-١-

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال:

«من مضى به يوم واحد فصلّى فيه خمس صلوات و لم يقرأ بقل هو الله أحد قيل له: يا عبد الله لست من المصلّين» ٢-و

عن أمير المؤمنين-عليه السلام-قال: «قال رسول الله -صلّى الله عليه و آله-من قرأ قل هو الله أحد مائه مرّه حين يأخذ مضجعه غفر الله له ذنوب خمسين سنه» و

عنه-عليه السلام-قال: «من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات فى دبر الفجر لم يتبعه فى ذلك اليوم ذنب، وإن رغم أنف الشيطان»

ص: ٤٣٣

عن أبي الحسن الامام الرضا-عليه السلام-قال: «من قرأ قل هو الله أحد بينه وبين جبار منعه الله منه بقراءته بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله، فإذا فعل ذلك رزقه الله خيره و منعه شرّه» ٤-و

عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال: «من آوى إلى فراشه فقرأ قل هو الله أحد إحدى عشره مرّه حفظ في داره و في دويرات حوله» نور الثقلين/ج ٥ ص ٦٩٩

هل الله نسب، وماذا أعد الكتاب للعلماء المتعمقين في حقل التوحيد؟ وكيف تختصر بضع كلمات بصائر الوحي في معرفه الرب، حتى تصبح ثلث القرآن المجيد.

بلى. إن سورة الإخلاص تنسب ربنا الى التوحيد النقي، الذي يروى غليل المتعمقين في آخر الزمان، و تختصر هدى الكتاب في حقائق العرفان.

إنها تأمرنا بأن نقولها صريحه و نقيه: الله أحد.

□
و ماذا تعنى الاحديه؟ تقول السوره: اللَّهُ الصَّمِيدُ الَّذِي لَا جُوفَ لَهُ وَلَا أَجْزَاءَ، و نتساءل عن تأويل الصمد؟ فتقول الايه التاليه: لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ فَلَا تَدْخُلُهُ أَجْزَاءٌ مِنْ خَارِجِهِ سُبْحَانَهُ، و لا تخرج منه أجزاء الى الخارج سبحانه، و تستفهم: ما حقيقه أحديته و صمديته، و تعاليه عن التناسل، و تقول الايه الخاتمه، حقيقه ذلك: انه لا- شبيه له و لا نظير، و لو كان والدا لكان ولده شبيهه و كفوه، و كذلك لو كان مولودا لكان والده أعلى منه أو مساويا له. سبحانه عن مجانسه مخلوقاته.

[سوره الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤]

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

ص: ٤٣٧

بينات من الآيات:

(١) لا تستطيع الخروج من ظلمه الشرك لو لم تخرج من سجن الذات، و معتقل هوى النفس، و إذا أنعمت النظر لرأيت جذر كل كفر و شرك و عصيان حب النفس و هواها، و حتى الذى يعبد الطغاه أو الأصنام فإنما يعبد هواه فى صورته الطغاه، و شهواته فى هيكل الأصنام.

فإذا خرجت من حبّ الذات، و تحديت ظلمات الهوى فإنك تنطلق فى رحاب التوحيد بإذن الله، بلا قيود و بلا حدود.

كيف تخرج- إذا- من سجن الذات؟ إنما بتحدى إرهاب الطغاه، و ضلالات المجتمع، و خرافات الغابرين و ما لديهم من مقدسات زائفة.

و تاريخ الموحدين يختصر الصراع المرير بينهم و بين دعاه الشرك و الضلال.. ألم تقرأ نبأ النبيين و الصديقين كيف تحدوا ظلمات عصورهم بنور التوحيد.. كل ذلك

التاريخ الحافل تختصره في هذه السوره كلمه واحده هي كلمه:

قل و من دون الاستجابه لهذا الأمر الصريح لن تستطيع التعالى في سماء التوحيد، لان التوحيد ذاته كسر قيود الشرك، وفك أغلال الضلال، لا بد ان تنهض إرادتك في ضميرك، و تتبلور روح التحدى في عقلك، و تنبعث فطرتك النقيه الاولى من تحت ركاب الجهل و الغفله و النسيان، لا بد لك من ذلك كله إذا أردت معرفته، و الزلفى اليه و رضوانه، و جنته.

هو انه الغيب الذى لا و لن تحيط به علما، يكفيك من شعاع نوره قبس يغمر وجودك ثم لا تكاد تتحمله. انه الله الذى احتار فيه قلبك، فهو قريب منه يراه فى كل شىء، و لكنه فى ذات الوقت بعيد لا يعرف ذاته.

و

جاء فى حديث مأثور عن الامام الباقر-عليه السلام- فى معنى «هو» قال:

«اسم مشار، و مكنى الى غائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت، و الواو إشاره الى الغائب عن الحواس، كما أن قولك «هذا» إشاره الى الشاهد عند الحواس» (١) انه الذى تهفوا إليه نفوسنا، و تتعلق بحبه أفئدتنا و يهفوا الجميع الى قبسات وجهه الكريم، و يتعطشون الى كأس محبته، و ورد قربه.

انه بكلمه واحده «هو» نشير اليه دون أن نحدده أو نقيدده، أو ندعى معرفه

ص: ٤٣٩

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٣ ص ٢٢١.

ذاته، أو توهم إنيته و مائته.

و

قد روى أن عليا-عليه السلام- رأى خضرا-عليه السلام- فى منامه قبل بدر بليله يقول: «فقلت له: علمنى شيئا أنصر به على الأعداء، فقال: قل:

يا هو! يا من لا هو إلا هو، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله، فقال لى:

يا على! علمت الاسم الأعظم، و كان على لسانى يوم بدر» و أضافت الروايه: ان أمير المؤمنين-عليه السلام-قرأ قل هو الله أخذ فلما فرغ قال: «يا هو! يا من لا- هو إلا- هو! اغفر لى، و انصرنى على القوم الكافرين» (١) الله و كفى. الإله: المعبود الذى تسبح له السموات و الأرض، الذى يتحير فيه المتحIRON، و يلجأ اليه المستجرون.

و هكذا

جاء فى الحديث المأثور عن الامام على-عليه السلام-: «الله معناه:

المعبود الذى ياله فيه الخلق، و يؤله اليه، و الله هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام و الخطرات.» و

روى عن الامام الباقر-عليه السلام-: «الله معناه: المعبود الذى اله الخلق عن درك مائته، و الاحاطه بكيفيته، و يقول العرب: أله الرجل إذا تحير فى الشىء فلم يحط به علما، و وله: إذا فزع الى شىء مما يحذره و يخافه» و أضاف:

«فالاله هو المستور عن حواس الخلق» (٢) و هكذا تكون كلمه «الله» حسب هذه الروايه مشتقه من اله، التى تجمع

ص: ٤٤٠

١-١) المصدر/ص ٢٢٢.

٢-٢) المصدر.

معانى المعبود،الذى يتحير فيه الناس،و يلجأ اليه المتحIRON.

أحد بالرغم من ان كلمه «أحد» مشتقه من واحد كما قالوا،إلا أنها أبلغ دلالة على معنى الوجدانيه،وانه سبحانه لا نظير له و لا شريك،و لا أعضاء فيه و لا أجزاء، لا فى الواقع و لا فى العقل و الوهم سبحانه،و ليس معنى الأحد و الواحد أنه ثانى اثنين،أو أنه نوع من الأنواع،كلا..إنه الواحد بلا عدد،الأحد بلا مثل و لا شبه.

هكذا

جاء فى حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين-عليه السلام- عند ما سأله اعرابى فى يوم الجمل عن معنى واحد،فحمل الناس على و قالوا:يا اعرابى! أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب-أى تشتهه-فقال أمير المؤمنين:

«دعوه،فإن الذى يريده الاعرابى هو الذى نريده من القوم»(من توحيد الله و معرفته حقاً المراد،من القوم اعداؤه)ثم قال:

«إن القول فى أن الله واحد على اربعة أقسام:فوجهان منها لا يجوز ان على الله-عزّ و جلّ-و وجهان يثبتان فيه،فأما اللذان لا يجوز ان عليه فقول القائل:

واحد يقصد به باب الاعداد،فهذا ما لا يجوز،لان ما لا ثانى له لا يدخل فى باب الاعداد،أما إنه كفر من قال:انه ثالث ثلاثه،و قول القائل:هو واحد من الناس،يريد به النوع من الجنس،فهذا ما لا يجوز،لان تشبيهه،و جل ربنا و تعالى عن ذلك،و اما الوجهان اللذان يثبتان فيه:فقول القائل:إنه عزّ و جلّ أحدى المعنى، يعنى به:انه لا ينقسم فى وجوده،و لا عقل و لا وهم،كذلك ربنا عزّ و جلّ» (١)

ص: ٤٤١

و هكذا تشترك الكلمه بيننا و بين ربنا، فنقول: هذا واحد من الناس، و نقول: الله واحد، و لكن هيهات ما بينهما التقاء، فأحديه ربنا ليست كخلقه.

إنها أحديه شامله، بينما خلقه متكثر متشابه، تعال نستمع فى توضيح هذه البصيره الى

حديث عن الامام أبى الحسن عليه السلام- و هو يحدد التشابه المستحيل.

إنه فى المعانى لا فى الأسماء فانها مشتركه، قال:

«انما التشبيه فى المعانى، فأما فى الأسماء فهى واحده، و هى دلالة على المسمى، و ذلك أن الإنسان و إن قيل واحد فانه يخبر أنه جثه واحده و ليس باثنين، و الإنسان نفسه ليس بواحد لان أعضائه مختلفه، و ألوانه مختلفه، و من ألوانه مختلفه غير واحد، و هو أجزاء مجزأه ليست بسواء، دمه غير لحمه، و لحمه غير دمه، و عصبه غير عروقه، و شعره غير بشره، و سواده غير بياضه، و كذلك سائر جميع الخلق، فالإنسان واحد فى الاسم و لا واحد فى المعنى، و الله جل جلاله هو واحد لا واحد غيره، لا اختلاف فيه، و لا تفاوت، و لا- زياده، و لا نقصان، فأما الإنسان المخلوق المصنوع المؤلف من أجزاء مختلفه و جواهر شتى، غير أنه بالاجتماع شىء واحد» (1) و تتجلى أحديه الله فى معرفه هيمنته الشامله على كل شىء، و انه الفعال لما يريد، و ان له العباده، و أن ما يعبد من دونه ليس بشىء.

اما خرافات الجاهليه التى تزعم: ان هناك قوه اخرى مستقلة غير قوه الخالق فهى ناشئه من الجهل بالله، و بأن خالق الكائنات يستحيل عليه العجز، و الحد، و القيد، فكيف يكون ربنا مثلا عاجزا عن التخلص من إبليس- حتى انه انما خلق الخلق حتى يتخلص من الطينه الخبيثه التى لا- زالت معه منذ الأزل، و التى هى طينه إبليس؟! كلا.. انه سبحانه هو خالق إبليس، و مهيمن عليه، فلا يجوز لنا عقلا

ص: ٤٤٢

عباده إبليس واحدا من إلهين.

و اسطوره النور و الظلمه، و أنهما إلهان قديمان، و ان الظلمه دخلت فى النور، أو ان النور دخلها و جاء هذا الخلق من تركيبها كما تقول المانويّه. انها هى الاخرى ناشئه من الجهل بالله و بقدرته التى لا تحد و لا تقيد، و كيف يعجز رب يوصف بالقدره، و تتجلى قدرته فى هذه الكائنات العجيبه، كيف يعجز عن السيطره على الظلام سبحانه؟! بل هو الذى جعل النور و الظلمات بقدرته؟ و هكذا الأساطير التى كانت وراء عباده غير الله، و التى دخلت فى الديانات السماويه أيضا مثل: الاعتقاد بأن للكائنات آلهه صغارا ولدها الإله الأكبر، هم بمثابة ابناؤه و بناته سبحانه، بعضهم أقرب اليه من بعض، و أن على الناس التقرب إليهم، و اقامه تماثيل لهم، و لتحل فيها أرواحهم، و هذه هى منشأ خرافه عباده الأصنام منذ كانت و الى عصرنا الحالى.

إن كل هذه الأساطير نشأت من الجهل بمقام الالوهيه و أن خالق السموات و الأرض، و ما فيهن و ما بينهن لن يكون عاجزا أو محدودا سبحانه! و انه لو كانت معه طينه أبدية لكنت تلك هى الاخرى فى مقام الربوبيه، مقتدره عالمه، و لكن كيف تجتمع قدرتان مطلقتان متضادتان، لا تستطيع إحداهما القضاء على الثانية.

و بالتفكر فى صنع الله و عظيم قدرته تتلاشى هذه الأساطير الزائفه، و تتجلى للإنسان قدره الله غير المحدوده، التى تظهر فى خلقه و فى النظام الذى أجراه فى العالم، كما يظهر بوضوح أن هذا النظام و هذا الخلق ليسا بالالهين من دونه، يعبدان، كما فعلت الجاهليه الحديثه التى استسلمت و عبدت الماده و قوانينها، و هما من خلق

ص: ٤٤٣

اللَّهُ، و تتجلى بهما عظمته و قدرته سبحانه.

(٢) و من مظاهر الاحديه، الصمديه التي تشير إلى حقائق شتى تجمعها بصيره واحده هي أن الله بلا أعضاء و أجزاء، و لا حالات تطراً عليه سبحانه:

□
اللَّهُ الصَّمَدُ هكذا

فسر الامام الحسين بن علي -عليهما السلام- كلمه الصمد حين قال:

«الصمد:الذى لا جوف له، و الصمد:الذى قد انتهى سودده، و الصمد:

الذى لا يأكل و لا يشرب، و الصمد:الذى لا ينام، و الصمد:الدائم الذى لم يزل و لا يزال» (١).

و

روى عن الامام الباقر -عليه السلام- انه قال: «كان محمد بن الحنفية -رضى الله عنه- يقول:الصمد:القائم بنفسه، الغنى عن غيره» (٢).

و قد ذكر لكلمه الصمد زهاء عشرين معنى. إلا أن أمثلها الذى ترجع اليه سائرهما:المصمت، الذى لا جوف له، و منه الصمود و الصامد، و لان السيد العظيم يوصف بالشجاعه فإنه يسمى بالصمد لأنه لا يتزلزل.

و لان صفات الدوام و الاحديه و القيمومه و ما أشبه ناشئه من صفة الصمد؛ فانها ذكرت من معانى الصمد، كما

جاء فى حديث مأثور عن الامام زين العابدين -عليه السلام- حينما سئل عن معنى الصمد فقال:«الذى لا شريك له، و لا يؤوده حفظ شىء، و لا يعزب عنه شىء» (٣).

ص: ٤٤٤

١- (١) موسوعه بحار الأنوار/ج ٣ ص ٢٢٣.

٢- (٢) المصدر.

٣- (٣) المصدر.

و صفه الصمديه تتجلى أيضا فى أنه لم يلد و لم يولد، إذ ولادته دليل إضافه جزء اليه لم يكن فيه، أو انفصال جزء منه كان فيه، و الصمد الذى لا أجزاء له، لا يتصور فيه زياده (بالتولد) و لا نقيصه (بالايلاذ).

من هنا

فسر الامام الحسين عليه السلام -معنى الصمد فى السوره بالايه التاليه فقال: **اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ** ثم فسره فقال: **لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُوَلَدْ* وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** لم يخرج منه شىء كثيف كالولد و سائر الأشياء الكثيفه التى تخرج من المخلوقين، و لا شىء لطيف كالنفس و لا يتشعب منه البداوات (1) كالشبهه و النوم، و الخطره و الهم، و الحزن و البهجه، و الضحك و البكاء، و الخوف و الرجاء، و الرغبه و السامه، و الجوع و الشبع، تعالى أن يخرج منه شىء، و أن يتولد منه شىء كثيف أو لطيف.

و لَمْ يُوَلَدْ لم يتولد من شىء و لم يخرج من شىء كما تخرج الأشياء الكثيفه من عناصرها، كالشىء من الشىء، و الدابه من الدابه، و النبات من الأرض، و الماء من الينابيع، و الثمار من الأشجار، و لا- كما تخرج الأشياء اللطيفه من مراكزها كالبصر من العين، و السمع من الاذن، و الشم من الأنف، و الذوق من الفم، و الكلام من اللسان، و المعرفه و التمييز من القلب، و كالنار من الحجر.

لا. بل هو الله الصمد، الذى لا من شىء، و لا فى شىء، و لا على شىء، مبدع الأشياء و خالقها، و منشئ الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته، و يبقى ما خلق للبقاء بعلمه.

فذلكم الله الصمد، الذى لم يلد و لم يولد، عالم الغيب و الشهاده، الكبير المتعال، و لم يكن له كفوا أحد (2).

ص: ٤٤٥

(١- ١) لعل معناها الطوارئ من الحالات المختلفه.

(٢- ٢) المصدر/ص ٢٢٤.

و هكذا استوحى الامام الحسين -عليه السلام- من كلمه الصمد معان لطيفه فى التوحيد، و لو تدبرنا فى معنى الصمد اللغوى الذى قلنا: بأنه المصمت الذى لا جوف له عرفنا كيف أنها صفة يتمايز فيها الخلق عن الخالق، فلا شىء من الخلق إلا و هو مركب من أجزاء فى الواقع، و فى العقل، و فى الوهم، و التصور إلا الله الذى جل عن تركيب الصفات فى اى أفق من تلك الافاق.

اننا حسب معلوماتنا المحدوده عن الجسم نعرف أن كل شىء مركب من ذرات صغيره، و أن فى هذه الذرات فراغات هائله، بحيث لو تصورنا طنا من الخشب يقع فى مساحه عده أمتار مربعه، ثم افترضنا أننا أعدمنا الفراغات فى ذراتها لأصبحت فى حجم صغير لا- يقاس مع حجمها السابق، و لكنها سوف تحتفظ بوزنها السابق أى الف كيلو غرام، و يدل على ذلك ان المواد الثقيله كاليورانيوم تحتوى على مثل ذرات الخشب و القطن إلا أن هذه الفراغات تتردم، فتثقل المعادن حتى أن ما مقدار عشرين سانتيمترا مكعبا من اليورانيوم يقدر وزنه بطن. و محدود أيضا بأنه ليس بنافذ فى كل أبعاد الشىء أ ليس كذلك؟ بينما رب العزه لا- يزيد أو ينقص لأنه كامل، و لو افترضنا فيه نقصا إذا ما الفرق بينه و بين الكائنات التى خلقها، و إذا تساوى الخالق و المخلوق فلما ذا أساسا نبحت عن خالق؟ أ ليس إنما هداانا العقل الى الخالق لما رأينا من النقص و الحاجه فى المخلوقين، و أظهر مصاديق النقص: التركيب و التأليف، و الزيادة و النقصان.

فكيف نزعم وجود ذلك أيضا فى الخالق؟ من هنا

ذكر الامام الباقر -عليه السلام- معانى عديده استوحاها من كلمه الصمد ثم قال: «لو وجدت لعلمى الذى أتانى الله -عز و جل- حمله لنشرت التوحيد و الإسلام و الايمان و الدين و الشرائع من الصمد» (١).

ص: ٤٤٤

بروايه شريفه عن الامام على-عليه السلام-جمعت الكثير من معانى الصمد قال:

«تأويل الصمد: لا اسم و لا جسم، و لا مثل و لا شبه، و لا صوره و لا تمثال، لا حدّ و لا حدود، و لا موضع و لا مكان، و لا كيف و لا أين، و لا هنا و لا ثمة، و لا ملاء و لا خلاء، و لا قيام و لا قعود، و لا سكون و لا حركه، و لا ظلماني و لا نوراني، و لا روحاني و لا نفساني، و لا يخلو منه موضع و لا يسعه موضع، و لا على لون و لا على خطر قلب، و لا على شم رائحه، منفى عنه هذه الأشياء» (١).

(٣) حين عرفنا استحاله التركيب فى خالق السموات و الأرض، و اهتدينا الى استحاله تولد شىء منه، و كيف ينفصل عنه جزء و هو صمد لا يتصور فيه التأليف و التركيب و الاجزاء و الأعضاء؟! و إذا عرفنا أنه لم يلد، نعرف انه لم يولد، أليس الذى يلد ينقص منه شىء، و يحتاج الى تكميله بجزء يضاف اليه، و ربنا تعالى غنى عن الاضافه فكيف بالولاده من غيره؟! لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُؤَلَمْدْ لَمْ يَلِدْ لَمْ يَلِدْ الكائنات المخلوقه، الكثيفه منها و اللطيفه، و قد سبق توضيح ذلك آنفا فى حديث الامام الحسين عليه السلام.

و هذه الايه تنسف أسس الخرافات الجاهليه التى تمثلت و بصور شتى فى المذاهب و المبادئ المختلفه، فانما تأسست على تصور ولاده الكائنات من رحم خالقها سبحانه، فقال بعضهم: ان الخالق تأذى من طينه خبيثه ملازمه له فدخل

ص: ٤٤٧

فيها و تكونت من امتزاجها الخلائق؟ و قال آخرون: بل ان إبليس (أو الظلمه) قفزت الى النور (أى الله فى ظنهم) فأراد النور التخلص منها، فكان كمن دخل الوحل كلما أراد الخروج منها ارتطم فيها أكثر، فكانت الكائنات من تداخلهما.

و تطورت هذه الفلسفه عند البعض فقالوا: إن الخالق تنزل من عرشه فأصبح المخلوقات، و قال بعضهم: ان الله سبحانه فاض بوجوده فكانت الكائنات و هكذا رفقوا العبارات و لكنهم لم يغيروا من جوهر النظرية شيئاً.

ان كل هذه الفلسفات قائمه على أساس التولد، و التولد يقتضى تطوراً فى ذات الشيء و هو يتنافى و تعالیه سبحانه.

و لا- فرق إذا ان تكون الولاده كشيئه كما الثمر من الشجر أم لطيفه كولداه الفكر من القلب، أليس القلب يتطور حتى يفرز الفكر، كما ينفعل الشجر حتى يخرج الثمر؟ كلا- ان الخالق سبحانه قد أنشأ الكائنات من دون كيفيه و لا تعب و لا معالجه و لا تفاعلات فى ذاته أو تطورات سبحانه، و حين ينتفى التولد منه ينتفى تولده من غيره، لان ما لا ينقص لا يزيد، أو قل: لا يحتاج الى زياده.

و نفى الولاده بكل جوانبها و معانيها يضع المخلوق فى موقع العبوديه المطلقه و ينفى اضعاف اى نوع من القداسه الذاتيه على اى شىء أو شخص من خلق الله إلا قيم الوحي الناشئه من دين الله، و هكذا يتساوى الخلق امام الخالق، و أمام دين الخالق، و لا يجوز لأحد ان يتعالى على غيره بزعم أنه أقرب الى القدوس ذاتياً، و تبطل كل المذاهب العنصريه الظاهره منها و الخفيه.

(٤) و إذا اهتدينا إلى أن الله صمد لا جزء له، و لا تطور، و لا ولاده، فقد ارتفع الحجاب الأكبر الذى بيننا و بين الله، حجاب التشبيه الذى ينشأ من جهل الإنسان

و نقص مداركه.

فلا بد للإنسان لا يرى إلا نفسه و المخلوقات، يقيس خالقه بنفسه طورا، و بالكائنات أطوارا. غافلا عن أن هذا القياس يتنافى و الاعتقاد بالخالق أصلا.

أما إذا تذكر الإنسان هذه الحقيقة فإن الشبهات تنمات من ضميره حتى يتطهر من أدرانها، و يتهيا قلبه لاستقبال نور المعرفة. و يبدو أن كلمات الذكر الاساسيه تذكرنا بهذه الحقيقة، أو ليس التكبير هو تعظيم الله من الوصف. «الله أكبر من أن يوصف» و التسبيح هو تقديسه عما يخطر ببال البشر. من نقص و عجز، و شبه و نظير، و كذلك التهليل: نفى الشريك له، و هكذا يقول ربنا فى ختام سوره الإخلاص:

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ فإذا أردت معرفته أسقط عن نفسك حجاب قياسه بخلقه، و تسامى عن دائره المخلوق الى أفق الخالق، و من محيط الشهاده إلى أفق الغيب، و من البحث عن الذات الى تلقى نور الأسماء.

و نفى المثل و النظير نفى لكل صفه عجز و حدّ و نقص فى الخالق، كما

قال الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- عند ما سأله بعضهم عن معانى سوره الإخلاص قال:

«قل هو الله أحد بلا تأويل عدد، الصمد بلا تبعيض بدد، لم يلد فيكون موروثا هالكا، و لم يولد فيكون إلها مشاركا، و لم يكن له من خلقه كفوا أحد» (١).

و

قال -عليه السلام- و هو يصف ربه لمن سأله عن ذلك و قال اين المعبود فأجابه عليه السلام:

«لا يقال له: أين؟ لأنه أين الاينيه، و لا يقال له: كيف؟ لأنه كيف

ص: ٤٤٩

الكيفيه، و لا- يقال له: ما هو؟ لأنه خلق الماهيّه، سبحانه من عظيم تاهت الفطن في تيار أمواج عظمته، و حصرت الألباب عن ذكر أزلته، و تحيرت العقول في أفلاك ملكوته» (١).

و

قال عليه السلام «اتقوا ان تمثلوا بالرب الذي لا مثل له، أو تشبهوه من خلقه، أو تلقوا عليه الأوهام، أو تعملوا فيه الفكر، و تضربوا له الأمثال، أو تنعتوه بنعوت المخلوقين، فان لمن فعل ذلك نارا» (٢).

ص: ٤٥٠

١-١) موسوعه بحار الأنوار/ج ٣ ص ٢٩٨.

٢-٢) المصدر.

سوره الفلق

اشاره

ص: ۴۵۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

-١

فى كتاب ثواب الأعمال عن أبى جعفر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين، و قل هو الله أحد، قيل له: يا عبد الله! أبشر، فقد قبل الله و تركك».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٧٢٤

ص: ٤٥٣

عند ما تتزاحم الوسوس والمخاوف على فؤاد الإنسان، ويحتاج الى جرعه شجاعه، ومضه عظيمه، هنالك يقرأ سوره الفلق، لتشيع بصائرها روح السكينه فى روعه، ونور العزيمه فى قلبه، ليستعيد غيرها بالله خالق كل شىء من شر كل ذى شر، ومن شر طارق الليل حين يفتحهم، ونافته العقد حين تبث الفساد و الشر بكلماتها المسمومه، و أفكارها السلبيه، و سهام سحرها، و عينها الناظله. و أخيرا من شر الحسد حين يعتمل فى فكر الحاسد.

[سوره الفلق (۱۱۳): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (۱) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (۲) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (۳) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (۴) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (۵)

بينات من الآيات:

(١) كلمات نطقها و تتعامل معها و لكنها تبقى غامضه لو لم نتخيل معانيها الخارجيه و مصاديقها الواقعيه، أ ليست العبارات جسور المعاني، و الكلمات إشارات الى الحقائق، و كلمه الاستعاذه واحده منها، فمتى يستعيذ الإنسان بشيء؟ عند ما يفقد ثقته بنفسه فى مواجهه خطر داهم، و يظن أنّ ما يستعيذ به قادر على ان ينجيه مما هو فيه، فيلجأ اليه كمن يلجأ الذى يطارده الوحش الى كهف أو حصن منيع.

و قد تكون الاخطار التى يخشى منها الناس مجرد أوهام و ظنون و وساوس شيطانيه، و قد دفعت الحاجه البشر الى التعوذ بالجن و السحر و الأصنام، و كان عليهم الاستعاذه باللّٰه الخالق كل شيء.

و هكذا امر اللّٰه بأن نستعيذ باللّٰه وحده، نرفض الالتجاء بالأنداد و الشركاء،

و نعلن ذلك صراحه، و قال:

قل إذا كنتم أيها الكافرون تستعيذون بالناس و بالأنداد، بالسحره و الكهنه و الجن و ما أشبهه، فأنى أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ و نتساءل اولاً: ما هي مفردات الاستعاذه و شروطها؟ ثانياً: ما هو الفلق؟ الاستعاذه حاله نفسه، قوامها الخشيه من الخطر، و الثقه بمن يستعاذ به، و هي الى ذلك ممارسه عمليه بابتغاء مرضاه من نستعيذ به، و هي -فوق ذلك- الثقه بأنه وحده القادر على درء الخطر، و إنقاذ الإنسان.

اما الفلق فقد اختلفوا فيه اختلافاً كبيراً، فمن قائل: انه بئر في جهنم تحترق جهنم بناؤه. -أعوذ بالله منه- الى قائل: بأنه الصبح، أو ما اطمان من الأرض، أو الجبال و الصخور و لكن القول الأمثل هو القول الاشمل الذي يقول: ان الفلق هو كل ما خلق الله، لان الله يقول: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا (١) و رب الفلق: هو الذي فلق الحبه، و فلق الصباح، و فلق الجبال بأنهر، و فلق السموات و الأرض و كل شيء.

(٢) هل ما خلق الله خير مطلق أم شر مطلق، أم في كل شيء نسبة من هذا و ذاك؟

ص: ٤٥٧

قال بعضهم: كيف يخلق الله شرا و هو سبحانه خير واسع؟! و قال آخرون: الوجود حاله غضب إلهي فهو شرّ مطلق! و كلا القولين هراء، يخالف وجداننا و فطرتنا.

صحيح أن الله سبحانه خلق الكائنات برحمته و خلق البشر ليرحمه، و لكن المخلوق يبقى ذاته عدما و عجزا و نقصا، و من ذلك العجز تعزيز السلبيات، و لكن يبقى فيه جانب الخير، حيث تتعلق به تجليات الرب و عطاءه يبقى غالبا جانب الشر، لان رحمه الله أوسع من غضبه، و فضله أعظم من عدله سبحانه.

و قد زود الله كل حي بما يجعله يختار جانب الخير، و يحاذر جانب الشر من نفسه و من الخلق المحيط به، و الإنسان بدوره مزود بالوحي و العقل و الغريزة لكي يتجنب الشر، و الاستعاذه بالله صورته من صور الحذر من الشرور.

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ و لا ريب أن تنفيذ واجبات الشريعة أحد أهمّ و أبرز صور الفرار من الشر، لأنها تهدينا الى سبل السلام و وسائل النجاه.

(٣) الليل يهبط بظلامه و وسواسه و طوارقه، و يتحرك في جنحه الهوام و بعض الوحوش، و ينشط المجرمون و الكائدون، و يستولى المرض و الهم على البعض، و تشتد الغرائز و الشهوات في غيبه من الرقابه الاجتماعيه، و يحتاج الإنسان إلى مضاء عزيمة و ثقه، حتى يتغلب عليه و على أخطاره، و هكذا يستعيد بالله منه.

وَ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ قَالَوا: الغسق: شدّه الظلام، و الغاسق: هو الليل أو من يتحرك في جوفه،

و الوقت:الدخول.

و قال بعضهم:الليل غاسق لأنه أبرد من النهار،و لان فى الليل تخرج السباع من آجامها،و الهوام من أماكنها،و ينبعث أهل الشر على العبث و الفساد.

(٤)هل للسحر حقيقه و ما حقيقته؟يبدو أن للسحر حقيقه،و أن حقيقته غير معروفه تماما بالرغم من عوامل مختلفه تتداخل فيه مثلا بعض القوانين الطبيعیه غير المعروفه للناس،قد يكون وسيله السحر تماما،كالزئبق الذى وضعه سحره فرعون فيما يشبه الحبال فتحرکت بحراره الشمس،و قد تكون حقيقته قوه الروح عند الساحر،أو استخدامه للأرواح الشريره،و أنى كان فان الاستسلام للسحر و لتأثيراته لا يجوز،بل ينبغى تحدّيه بالتوكل على الله و الاستعاذه منه.

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ قَدِيمَا كَانَتِ الْعَجَائِزُ يَمْتَهِنُ السَّحْرَ،و يخدعن الناس و بالذات النساء،و كانت هذه الحاله تبعث الخشيه فى نفوس الكثير مما اقتضى الاستعاذه بالله منهن.

و قد قال بعض المفسرين:ان المراد بالنفّاثات فى العقد:اللاتى ينفثن بأفكارهن السلبيه فى عقد العزيمه للرجال.

إلا- أن أكثر المفسرين رأوا ان المراد بها الساحرات،و هذا قريب من سبب النزول المذكور لهذه السوره،على أن ما ورد من روايات فى ذلك غير مؤكده،لأنها تخالف نزول السوره فى مكه،كما انها تخالف عصمه الرسول،و أنه برىء من السحر.

(٥)قد تكون للأخطار التى تتوجه إلى الإنسان أسباب معقوله لو تنبه لها استطاع أن يتجنبها،الا الحسد فإن سببه حاله فى نفس صاحبه،و من الصعب تجنبه

ص:٤٥٩

فى الوقت الذى ىشكل سببا رئيسيا لمشاكل الإنسان و للاخطار التى تحقق به، و لكن هل يعنى ذلك التراجع عن العمل و عن الانتفاع بنعم الله و التقدم و الرقى لمجرد أن هناك من يحسدنى. كلا..بل ينبغى الاستعاذه بالله سبحانه و تعالى من الحاسد و بالذات عند ما يحسد.

وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ فَقَدْ يَصْرِفُ اللَّهُ الْحَاسِدَ عَنْ تَحْوِيلِ حَسَدِهِ إِلَى عَمَلِ عِدَائِي، لِأَنَّ الْحَسَدَ مَرْفُوعٌ عَنِ الْإِنْسَانِ إِنْ لَمْ يَظْهَرِ بِقَوْلٍ أَوْ بِفِعْلٍ وَلَا يَخْلُو الْإِنْسَانَ مِنْ حَسَدٍ، إِلَّا أَنْ أَغْلِبَ النَّاسَ يَنْصَرِفُونَ عَنِ الْحَسَدِ إِلَى الْغِبْطَةِ وَ التَّنَافُسِ لَمَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ ضَرَرِ الْحَسَدِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ مَنْ يَحْسُدُونَ، حَتَّى قِيلَ:

«ما رأيت ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد» (١) و

قد روى عن النبى -صلى الله عليه و آله-: «إذا حسدت فلا تبغ» (٢) و الحسد كان سبب رفض إبليس السجود لآدم، كما أنه كان سبب أول جريمة وقعت على الأرض إذ قتل قابيل أخاه هابيل حسدا.

نستعيد الله من شره و شر من يحمله.

ص: ٤٦٠

١- (١) و هو مضمون روايه.

٢- (٢) القرطبي/ج ٢٠ ص ٢٥٩

سوره الناس

اشاره

ص: ۴۶۱

بسم الله الرحمن الرحيم ذكرتنا سورة الفلق كيف نستعيد بالله من شر الخلق، و تذكرنا هذه السوره الكريمه التي يختم بها القرآن الكريم كيف نستعيد بالله من الضلاله.

فالشر-فى الاولى-شر ماذى فيما يبدو،و الشر هنا معنوى،يؤدى الى ألوان من الشر فى الدنيا و الاخره،ذلك الخطر يتمثل فى الوسواس الخناس،الذى يفقد الإنسان عزيتمه و حكمته،و الذى قد يكون نابعا من الجن و الشيطان،الذى يجرى فى ابن آدم مجرى الدم،أو من الناس الذين يتأثرون بالقاءات الشيطان.

[سوره الناس (۱۱۴): الآيات ۱ الى ۶]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (۱) مَلِكِ النَّاسِ (۲) إِلَهِ النَّاسِ (۳) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (۴) الَّذِي يُوَسْوِسُ
فِي صُدُورِ النَّاسِ (۵) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (۶)

بينات من الآيات:

(١) لكي يدرك الإنسان الخطر العظيم الذي يهدده ورساوس الشيطان الجنى أو الانسى، لا بد ان يعقد عزماته و ان يتحدى سلطان الشيطان، فيصرح علنا بأنه مخالف له، هكذا أمرنا الرب بأن نقول ذلك قولاً:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ وَالْإِنْسَانِ الَّذِي كَفَرَ بِرَبِّهِ إِنَّهُ سَأَلَهُ ظُلْمًا مِّنْ لَّدُنِّهِ أَن يَخْلُقْهُ إِن شَاءَ لَيَخْلُقْهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ
ثانيه، و حينما تكون الاستعاذه بالله الذى خلق الناس طورا بعد طور، و شملهم برعايته و رباهم فان ذلك يعنى أمرين:

أولاً: لان الله ربي أنا الذى أستعيز به فهو أولى بالتوكل عليه، و الثقة به، أ ليس هو الذى خلقنى نطفه، ثم جعل النطفه علقه، و جعل العلقه مضغه...

و هكذا، أنشأنى خلقا بعد خلق، و حفظنى من الاخطار و الإضرار التى لن أحصيها

عددا، حتى جعلنى بشرا سويا، فهو الذى أستجير به الآن ليحفظنى من خطر الضلال؟ ثانيا: لان الله ربّ الذى أستعيذ منه، و مهيمن عليه و على أفعاله، فهو قادر على درء شره عنى.

(٢) و إذا كان الناس يجأرون إلى أصحاب القوه و الملك فان الله أعظم ملكا، و أوسع سلطه. دعنا نستعيذ به و نجأر اليه.

مَلِكِ النَّاسِ وَ الْمَلِكِ هُوَ صَاحِبُ السُّلْطَةِ الْحَالِيَةِ.

(٣) و حينما يصيب الناس الضرطل من يدعون سواه فإليه يألّهون، و يتضرعون، و به يستغيثون.

إِلَيْهِ النَّاسُ فَهُوَ الَّذِي رَبَّى وَ مَلِكٌ، وَ إِلَيْهِ يَجْأَرُ عِنْدَ الْخَطُوبِ أَفْلا نَسْتَعِيذُ بِهِ؟! (٤) الاستعاذه بالله من شر الأفكار الضاله، و الكلمات الموهنه للعزائم، و الإيحاءات المنحرفه.

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ قَالُوا: الْوَسْوَاسُ: حَدِيثُ النَّفْسِ، وَ أَصْلُهُ الْهَمْسُ، وَ يُقَالُ لِهَمْسِ الصَّائِدِ وَ أَصْوَاتِ الْحَلِيِّ: وَسْوَاسٌ، وَ يُقَالُ لَلِقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي النَّفْسِ، وَ إِحْيَاؤُهُ وَ وَسْوَاسُهُ، لِأَنَّهَا تُشْبِهُ حَدِيثَ النَّفْسِ، وَ قَالُوا: إِنَّمَا سُمِّيَ الشَّيْطَانُ بِالْوَسْوَاسِ لِأَنَّهُ

صاحب وسوسه، وربما كان الوسواس بمعنى الموسوس أما «الخناس» فقالوا: إنه من الخنوس، وهو بمعنى الاختفاء و منه قوله سبحانه: فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ سميت النجوم به لاختفائها بعد ظهورها، و لعل معنى الخنوس: التردد بين الظهور و الكمون، أو بين التقدم و التأخر، فالنجوم تظهر و تختفى، و لذلك قال بعضهم:

الخنوس بمعنى: الرجوع، و انشدوا:

و صاحب يمتعس امتعاسا يزداد إن حَيَّته خناسا

و على هذا تكون تسميه الشيطان بالخناس، لأنه دائم التردد، كلما طردته عاد إليك، فاذا ذكرت الله اختفى، و إذا غفلت عاد، من هنا حكى عن ابن عباس انه قال فى تفسير الايه وجهين: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسه عن الهدى، الثانى: انه الخارج بالوسوسه من اليقين.

(٥) و يقوم الشيطان بإلقاءاته الضاله فى القلب، مركز العزم و اتخاذ القرار.

□
الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ و لا يترك أحدا إلا و ألقى فى صدره وسوسه لو لا اعتصامه بالله دوما.

(٦) و الوسواس من الجن، و ذريه إبليس الذى لعنه الله و أبعده، و آلى على نفسه إغواء بنى آدم و تضليلهم، و قد يكون من الانس الذين أضلهم إبليس.

□
مَنْ الْجِنَّهَ وَ النَّاسِ و روى عن أبى ذر-رضى الله عنه- انه قال لرجل: هل تعودت بالله من شياطين الانس، فقال: أو من الانس شياطين؟ قال: نعم لقوله تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (١) أتدرى ما هي الحكمة في الاستعاذه التي أمرنا بها عند تلاوه الكتاب، حيث قال ربنا فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٢)؟ أو تدرى ما هي الحكمة في أن ختام القرآن الاستعاذه بالله من شر الوسواس الخناس؟ دعنا للإجابة نذكر الحقائق التالية: أولاً: قلب الإنسان يتعرض لموجتين متقابلتين، فمن اليمين تنزل عليه موجه رحمة إلهية، تتمثل في ملائكة الله، ومن اليسار تعصف به موجه غضب و نعمة الشيطان، تتمثل في جنود إبليس أبعده الله.

هكذا

روى عن الامام الصادق-عليه السلام-، انه قال: ما من مؤمن إلا و لقلبه أذنان في جوفه: أذن ينفث فيها الوسواس الخناس، و أذن ينفث فيها الملك، فيؤيد الله المؤمن بالملك، و ذلك قوله: « وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » (٣) و

روى عن الامام الصادق-عليه السلام- أنه قال: «ما من قلب إلا و له أذنان، على أحدهما ملك مرشد، و على الآخر شيطان مفتر، هذا يأمره و هذا بزجره، و كذلك من الناس شيطان يحمل الناس على المعاصي، كما يحمل الشيطان من الجن» (٤) ثانياً: و قلب الإنسان بيت مظلم متهوى، سراجة العقل، و عماده الايمان، و نور العقل من نور الله، كما أن روح الايمان من ذكر الله، و إذا غفل القلب عن الله عاث الشيطان فيه فساداً. لماذا؟ لان طبيعه الإنسان الاولية هي الجهل

ص: ٤٦٩

١- (١) الانعام/الايه ١١٢

٢- (٢) النحل/٩٨

٣- (٣) موسوعه بحار الأنوار/ج ٧٠ ص ٤٧

٤- (٤) نور الثقلين/ج ٥ ص ٧٢٥

و الضعف، أو لم يقل ربنا سبحانه: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ وَقَالَ: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ وَقَالَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا وَقَالَ: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا.

أ و ليس بنوا آدم من تراب و طبيعه التراب العجز و الضعف، و الجهل و الغفله.

فإن لم يتصل القلب بنور الله لحظه بلحظه كيف يبصر الحقائق، و قد قال ربنا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ .

و ما لم يستمد العزيمه من الله بروح الايمان أتى له تجاوز ضعفه و عجزه، و تحدى الشهوات و الضغوط.

ثالثا: من هنا يجأ المؤمنون الى ربهم الا يتركهم و شأنهم لحظه و يقولون:

ربنا لا- تكلنا الى أنفسنا طرفه عين أبدا لان في تلك اللحظه الخاطفه قد تقع الوقعه، ألم يترك الله نبيه يونس بن متى و شأنه ساعه، فدعا على قومه، و ابتلى بالسجن فى بطن الحوت.

و أظن أن ما صدر من الأنبياء من ترك الاولى إنما كان فى اللحظات التى أوكلهم الله إلى أنفسهم، فغفلوا و نسوا، و سمي الله ما صدر منهم عصيانا، ثم تاب عليهم لكي لا يزعم أحد أنهم آلهه، و لكي يزدادوا يقينا و اطمئنانا.

و هكذا

روى عن النبي-صلى الله عليه و آله-: «ان الشيطان واضع خطمه (1) على قلب ابن آدم، فاذا ذكر الله خنس، و إذا نسى التقم، فذلك

ص: ٤٧٠

و هكذا ندب الإسلام مداومه الذكر فقال ربنا سبحانه: وَ اذْكُرُوا اللّٰهَ كَثِيْرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ (٢) و قال تعالى: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْاِبْكَارِ (٣) و

جاء في الحديث: عن الامام الصادق-عليه السلام-: «ما ابتلى المؤمن بشيء أشد عليه من خصال ثلاث يحرمها قيل: و ما هن؟ قال: المواساة في ذات الله، و الإنصاف من نفسه، و ذكر الله كثيرا، أما و إنى لا أقول لكم: سبحان الله، و الحمد لله، و لا إله إلا الله، و الله أكبر، و لكن ذكر الله عند ما أحل له. و ذكر الله عند ما حرم عليه» (٤) و

اعتبر الامام الباقر-عليه السلام- ذكر الله صلاة: فقال: لا- يزال المؤمن في صلاه ما كان في ذكر الله قائما كان أو جالسا أو مضطجعا، ان الله تعالى يقول: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ اَعْلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (٥) و

روى عن النبي-صلى الله عليه و آله- انه قال: «قال الله سبحانه: إذا علمت أن الغالب على عبدى الاشتغال بى نقلت شهوته فى مسألتى و مناجاتى، فإذا كان عبدى كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه و بين أن يسهو، أولئك اوليائى حقا، أولئك الابطال حقا، أولئك الذين إذا أردت ان أهلك الأرض عقوبه

ص: ٤٧١

١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٧٢٤

٢-٢) الجمعة ١٠/

٣-٣) آل عمران ٤١./

٤-٤) موسوعه بحار الأنوار/ج ٩٣ ص ١٥١

٥-٥) المصدر/ص ١٥٣

زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال» (١) بلى. و لكن إذا ترك المؤمن ذكر الله فانه ليس يتعرض فقط لغوايه الشيطان و السقوط فى أشراكه، بل و أيضا قد يتعرض لخطر ماديه. كذلك

جاء فى الحديث المأثور عن الامام الصادق-عليه السلام-: «يموت المؤمن غرقا، و يموت بالهدم، و يبلى بالسبع، و يموت بالصاعقه و لا يصيب ذاكرا لله» و فى روايه اخرى:

«لا يصيبه و هو يذكر الله» (٢) رابعاً: و تذكر الله و سلطانه و قوته و رحمته، و التوكل و الاستعاذه بقوته و بتأييده لعباده، و وعى أسمائه الحسنى كل ذلك يقطع سياق الاسترسال مع وساوس النفس، و همزات الشيطان، فتكون قرارات الإنسان خاضعه لمحاكمه عقله و مقاييس فطرته، دون اهوائه و تمنياته.

إن أغلب الناس يتخذون قراراتهم بلا وعى منهم لأسبابها، حيث تنضج القرارات فيما سمي بالعقل الباطن، ثم يبزرونها لأنفسهم بشتى التبريرات، بينما المؤمن يمرر قراراته على منظار عقله، فيمحسها تمحيصا دقيقا، كل ذلك بفضل ذكر الله الذى يزيد من يقظه الذات، و توهج العقل، و استناره الفطره.

خامساً: و من أبرز فوائد الاستعاذه بالله تجنب تفسير كتاب الله و نصوص الشريعه حسب الهوى و الرأى مما يسبب فى تبديل كلمات الله عن مواضعها.

إن أكثر الناس يتخذون مواقف مسبقه من القرآن، فترى الشيطان يوسوس فى صدورهم، فيقول لهم مثلاً: الايه هذه تعنى أعدائك، و تلك الايه نزلت أساسا فى

ص: ٤٧٢

١-١) المصدر/ص ١٦٢

٢-٢) المصدر

الغابرين، أو أنها تخص الفئة الكذائية، المهم أنه يبعدك عن دائره تطبيق الايه، فلا يدعك تنتفع بها.

و ربما أمرنا بالاستعاذه من الشيطان قبل تلاوه الذكر، وجاءت السوره الاخيره من القرآن تأمرنا بالاستعاذه منه لكي لا نفسر اياته بالرأى، و لا نؤولها تأويلا خاطئا، و لا نتبع ما تشابه منها ابتغاء الفتنة، و نترك المحكمات.

سادسا: كيف نستعيد بالله من وساوس الشيطان؟ الف: بالتزود ببصائر الوحي فى المعرفه، و مناهج الدين فى العلم و التعلم و هى كثير و مبثوثه فى النصوص المختلفه.

باء: باستقبال المواعظ من أهلها، و ذلك بمعاشره العلماء الربانيين، و الدعاه المجاهدين، و عباد الله الصالحين.

جيم: بتجنب دعايات أهل الضلال، و مقاطعه مجالسهم و كتبهم و اعلامهم، فان من عرّض نفسه للانحراف بالاستماع إلى ابواق الشيطان ثم انحرف و ضل فلا يلومن إلا نفسه.

دال: بالتفكر المستمر فى أمور الدين، و التدبير فى كتاب الله، و التحرى عن الخط السليم، و عدم الاستعجال فى الحكم على شىء.

هاء: و أهم من كل ذلك بالدعاء الى الله أن يهديه الى الصراط المستقيم، و الا يكله الى نفسه لحظه.

و هذا ما ندعو الله به فى خاتمه تفسيرنا لهذه السوره الكريمه، و نسأل الله ان يتقبل من عبده العاصى هذا اليسير من الجهد، و أن يجعله ذخرا له ليوم فاقتة، و ان يغفر له

تقصيره فى أداء حق كتابه، و أن يجعل القرآن و العتره شفيعا له يوم القيامة. أنه سميع الدعاء، و الحمد لله رب العالمين.

طهران / ٩ ذى القعدة الحرام ١٤٠٩ هـ محمد تقى المدرسى

ص: ٤٧٤

خاتمه الكتاب

اشاره

ص: ٤٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حمدا يسعد به الحامدون، و يسمو به المؤمنون، حمدا كثيرا كما هو أهله و مستحقه، حمدا يوازي حمد ملائكته المقرّبين، و أنبيائه المرسلين، و عباده الصّالحين، حمدا من نشأه الخلاق إلى بقاء الخالق. و صلّى الله على البشير النذير، و السراج المنير، الذي ابتعثه للعالمين رحمه، و للمتقين هدى، و للمحرومين كهفا و ملاذا، و للمذنبين شفيعا و أملا، محمد سيّد المرسلين و على آل بيته الدعاه إلى الله، الأئمة على رسالاته، المخلصين في طاعته، سادات المجاهدين، و قادة الصّالحين، و أئمة المسلمين.

و السلام على عباد الله الصّالحين.

(١) في الأسبوع الأخير من شهر ربيع الثاني من عام ١٤٠١ هـ و في خضمّ المشاكل السياسيّه التي كنت أعيشها صدمتني وفاه زوجتي الفجائيّه، و مضت المصيبه كصعقه

ص: ٤٧٧

كهربائيه فى كيانى..و بدأت أتساءل:إذا كانت مطيّه الإنسان إلى العالم الاخر جاهزه أبدا،وقد تحمله إليه فى أنيه لحظه و دون سابق إنذار فى رحله أبدية لا- رجعه فيها،فلما ذا الغفله؟ (١)و إذا كانت زوجتى التى كانت تقاربنى سنًا،و لم تكن تشكو من مرض سابق تموت بهذه الطريقه الغريبه،فلما ذا لا- أفترض ذلك لنفسى؟ و أثر ذلك بصورة مباشره فى شحذ عزيمتى لانهاء التفسير..قبل أن يفاجئنى الموت.

فى ذلك التاريخ كنت قد بلغت الجزء و قد قرّرت حين بدأت به أن أكتب كلّ يوم عدّه صفحات من التفسير دون أن أخطّط لانهايه،و أساسا لم أكن أحلم-يوم شرعت فيه-بأنى قادر على إنهايه،بسبب ظروفى التى حفلت بالعديد من المسؤوليات المتنوّعه.

عند بدايه التفسير كنت فى الكويت،و كما ذكرت فى مقدّمه الجزء الاول كنت أستريح إلى بيت من بيوت الرحمن فى منطقته(بنيد القار)لبعض الوقت،و أحاول أن أختفى خلالها من المراجعات الروتينيه حتى أتفرّغ للكتابه،و ربما كنت أسبب بعض الضيق لاخوانى الذين لم يعرفوا السبب،و فعلا كنت أخرج عند ما يسألنى بعضهم عن ذلك،و لكن ذلك كان الوسيله الوحيده للاستمرار فى التفسير.

و يشهد الله أنّها كانت ساعات شيقه تلك التى أجدنى تلميذا صغيرا فى مدرسه القرآن العظيم،و كنت أسعى لاستنطاق كلّ آيه،و كلّ كلمه من آيه،و ربما كلّ حرف فى آياته الوضيه،ثم أسجّل بعض ما يمكن تسجيله..بينما أكثر ما فى القرآن كان أسمى من التسجيل،و هل كلمات مثلى قادره على الاحاطه برفرفه الروح، و تموّج النور،و انسياب الجمال الالهى من خلال آيات الذكر الحكيم.

كانت وصيه أحد الكتاب الكبار نصب عيني عند ما أستمرّ فى الكتابه،حيث أوصى بالتوقّف عنها عند الاحساس بالتعب،و لذلك أصبحت مشكلتى بعد صدمه

ص:٤٧٨

الوفاه مزدوجه، فمن جهه كنت أريد إكمال التفسير، و من جهه لا أستطيع التسرع فيه تطبيقا لتلك الوصيه، و بالذات لأن منهجي كان قائما على التدبر المباشر في آيات الذكر قبل مراجعه التفاسير ثم البحث عن صلتها بالواقع، مما يستدعي صفاء الذهن و فراغ البال، مما كان يتناقض و ظروفه العامه.. فاتجهت نيتي نحو إلقاء المحاضرات في التفسير في محاوله لاستباق الأجل، و ربما كنت في اليوم الواحد ألقى ثلاثه دروس ليقوم الاخوه بإعاده صياغتها و إعدادها للطبع.

و قد كنت يومئذ ألقى محاضرات في التفسير كل يوم تقريبا في القسم العربي من إذاعه الجمهوريه الاسلاميه في إيران، و فكّرت في نفسى أنني سوف أحقق هدفين برميّه واحده: إنشاء مكتبه صوتيه في كامل تفسير القرآن، و التسريع في تكميل مشروع التفسير، و قد حققنا بحول الله و قوته الهدف الاول، حيث استقرت محاضرات التفسير في خمسمائه شريط كاسيت، و لكن الهدف الثاني لم يتحقق بتلك الصوره التي حلمت بها.. و كان لذلك قصه أخرى.

(٢) منذ بدايه توجّهي إلى التفسير لاحظت فراغا فيه من بعدين هامّين:

الأول: اتّسع الفجوه بين التفاسير المكتوبه و بين الواقع المعاش للأُمَّه، حيث كان هدف أغلب المفسرين إلا نادرا توضيح كلمات القرآن، و ليس تطبيقها على حقائق الزمان، و لذلك لم يهتموا أكثر بتأويل القرآن و تنوير الواقع بضيائه، بينما الهدف الأسمى للآيات إنما هو تذكير الإنسان بالله و اليوم الآخر ثم تبصيره نفسه و واقعه ليعيش بصوره أنبل و أفضل، و لعل الظروف السياسيّه لاغلب المفسرين و انغلاق بيئتهم الاجتماعيه كانت تمنعهم من ذلك.

و قد حاولت أن أعالج الفراغ بقدر محدود من خلال التفسير و المحاضرات.

الثانى: وجود فجوه بين التفاسير و الأحاديث المأثوره عن النبى و أهل البيت -عليهم السلام- اللهم إلا- تلك التى تهتم بصوره مباشره بتفسير آيه كريمه، علما بأن كل أحاديث الرسول و أهل بيته فى الواقع تفسير للقرآن، فليست سوى انعكاس نور الوحي على أفئدتهم، فلا بدّ إذا أن نبحت عن منهج جديد لتوصيل التفسير بهذا الرافد العظيم من الروايات الشريفه، و لكن كيف؟ إنما بإلغاء قيد اللفظ منها و التوجه إلى المعانى، فعند ما نستوحى من آيه كريمه حقيقه نبحت فى النصوص عمّا يتصل بها من بصائر توضيحيه فنثبتها فى تفسير تلك الايه لتتكامل المعنى.. مثلا عند ما نبحت عن آيه كريمه تبصّرنا بدور العلم و العلماء نثبت فى توضيحها و تفسيرها نصوصا مأثوره حول العلم، بغضّ النظر عن ورودها حول تلك الايه أم لا، لأنها بالتالى تفسير للآيه سواء ذكرت فيها الايه أم لا..

و بالذات الادعيه المأثوره التى هى بحق كنوز المعارف الاسلاميه، و هى بالتالى قبسات من نور الوحي تجلّت على ألسنه ساده العرفاء الميامين النبى و أهل بيته الهداه عليهم السلام. أ فلا ينبغى أن نستفيد منها فى تفسير آيات العرفان التى هى نصف القرآن أو تزيد؟ كل ذلك دفعنى و الاخوه إلى تأسيس (دار الهدى) التى تعنى بهدف تأليف تفسير موسّع يعتمد على الأحاديث المأثوره بالمنهج الأنف ذكره (الاهتمام بالمعانى)، و الاسم الذى أفصّله لهذا التفسير إن خرج إلى النور هو: (من بينات القرآن) ليكون تفصيلا لهذا التفسير (من هدى القرآن).

و قد شقّت دار الهدى طريقها بين غابه من الأشواك، لأننا كنّا بحاجة إلى تربيّه بعض الاخوه على استخراج النصوص من مختلف المصادر، و على فهم عميق للآيه المفسره فى إطار تفسيرنا (من هدى القرآن)، و لصعوبه العمل، و قلّه

الامكانات، و أيضا قلّه الوقت الذي صرفناه على هذه المؤسسه الناشئه، فإنّ ثلاثه من بين حوالى خمسه عشر أخا دخلوها بقوا فيها و تقدّموا بها، و الحمد لله.

و أنّى كان فقد مشينا معهم خطوات واسعه فى طريق التفسير الموسّع، حيث جمعنا بحول الله و قوّته موادّ تفسير سوره البقره و آل عمران، و لعلنا نوقّق لتكميل المسيره بعد الفراغ من هذا التفسير إنشاء الله.

بيد أنّ العمل توقّف فى دار الهدى فى هذا الاتجاه، حيث استقرّ الرأى إلى التفرّغ لمحاضرات التفسير التى كُنّا قد أنهيناها فى عام ١٤٠٢ هـ، و لم نفلح بتشكيل جهاز لاعاده صياغتها، و لكن بما أنّ الاخوه فى «دار الهدى» كانوا قد تعوّدوا على أسلوب التوسّع عبر ذكر النصوص و مراجعه سائر التفاسير استفادوا من هذا المنهج عند ما اهتمّوا بالتفسير، فتغيّر الأسلوب بقدر أو بآخر.

كنت يومئذ قد أنهيت تفسير نصف القرآن تقريبا، و بالضبط إلى سوره النحل، فبدأ الأسلوب منذ تلك السوره يختلف، حيث اعتمدنا على المحاضرات ثمّ كانت تصاغ تلك المحاضرات ثمّ أُطّلع عليها و أصحّحها من جديد.. و كان فى هذا المنهج فائده التوسّع، حيث كان المعدّل فى تفسير النصف الاول صفحه لكلّ آيه فغدا المعدّل حوالى صفحتين لكلّ آيه، إلاّ أنّ ذلك كان ثمنه التباطؤ حيث تعدّدت المراحل.. و هكذا جرى الأمر حتى بلغنا الخمس الأخير من القرآن فطوّرنا الأسلوب مره أخرى حيث كان أحد الاخوه يراجع كافّه التفاسير المشهوره و يكتب ملاحظات منها، و كنت بدورى أراجعها مع مراجعه بعض التفاسير، ثمّ ألقى محاضره مفضّله تصاغ بعد مراجعه لملخّص التفاسير، ثمّ أعيد النظر فيها لتأتى فى صيغتها النهائيه.

و لا ريب أنّ هذا الأسلوب نفعنا كثيرا فى التمهيد للتأليف الجمعى، حيث أنّه

بالرغم من كونى بالتالى المسؤول عميا كتب فى كلّ الا-جزء إلا- أنّ للإخوه مساهمات كبيره، خصوصا فى الخمس الأخير من القرآن.

و كانت تمرّ سنه بعد أخرى و كُنّا نحدّد كلّ سنه لتكون سنه الحسم، إلا أنّ عقبات داخلية و خارجيه كانت تمنعنا، حتى بقيت ثلاثه أجزاء من القرآن لهذا العام (١٤٠٩ هـ) الذى وفقنا الله لإكمال التفسير فيه، و ما كدنا نفعل لو لا أنّى استبقت الاخوه و خلال سفره قصيره إلى بعض البلاد بدأت بكتابه الجزء الأخير متجاوزا الأسلوب السابق.. و هكذا كان هذا الجزء كما الاجزاء الاولى بقلمى بصوره كامله.

(٣) من يبلغ الخامسة و الأربعين سنه تكون شمس عمره قد دلكت و زالت عن نصف النهار، و لا- ريب أنّ عنفوان حياته قد انتهى، و لا بد أن يحاسب نفسه حسابا عسيرا على ما مضى من أيامه.. و حين أنظر إلى الوراء أتساءل: ماذا فعلت؟ لقد كانت السنين أسرع ممّا كنت أحتسب؛ إنّها كنبته الربيع لا تكاد تزهر حتى تذوى. إنّ عمر البسيطه التى نحن عليها يتجاوز الاربعه ملايين عاما فما قيمه أربعين أو ثمانين سنه بالنسبه إليها؟ و إذا كانت هذه الفرصه تحدّد حياتنا الخالده فكم هى خساره من يضعيها باللهو و اللعب؟ نحن و الزمن فى سباق عنيف و حاسم، و الزمن يعصرنا عصرا حتى يخرج آخر قطره من ماء الحياه من كياننا.. و أنّا لفى خسران كبير لو لم نتحدّد سرعته! لقد كنت أنتهز الفرص المتاحه فى كتابه التفسير.. لقد تابعت التأليف فى حوالى عشره دول مختلفه؛ كتبه و أنا فى حالات صعبه.. استشهاد عزيز، أو وفاه قريب، أو مرض مؤلم، و ربما كنت فى مطار أنتظر، أو كنت مستقلا طائره أو سياره أو قطارا، أو حتى متنزّها فى حديقته عامه، حيث أذكر أنّى كنت جالسا فى بلد

غريب مشغولاً بكتابه التفسير في حديقته عامه إذ مَرَّبَى أطفال كانوا في رحله مدرسيه فلما رأوني التفتوا حولي ينظرون مستغربين، و لم أكن أعرف لغتهم الغريبه حتى أوضح لهم عملي، حتى جاء بعض مرافقي و طلب منهم الابتعاد. على العموم:

كان المنظر غريباً بالنسبه إليهم، كما كان غريباً بالنسبه إلى جليسي في طائره حلقت بنا ساعات طويله و لم أتحدث إليه، حتى ملّ مني لائتي كنت أتابع كتاباتي.. و مضي في باريس كان يلح عليّ بالخروج من البيت للتفرّج على معالم تلك المدينه، لكنني كنت أفضل متابعه الكتابه إلا قليلاً.. و هكذا كان عليّ أن أدفع الثمن لو أردت متابعه التأليف، و الحكمه العربيه تقول: لكل شيء آفه و للعلم آفات، و على المتعلم أن يتحدّى كل الآفات.

و مع كل ذلك أحسّ بأنّ العمر قد ضاع في زحمه الآفات المتنوعه، كالمشاغل الكاذبه، و الجلسات التافهه، و الفراغات التي لم أملاها بجديّه كافيه. إنني أشعر أنّ اهتمامنا بأعظم مواهب الله علينا (العمر) أقلّ ممّا كان ينبغي، لذلك نصيحه فيما لا يغني شيئاً، و قد نقضيه في اللهو و اللعب و لا نعرف قيمته حقاً إلا بعد أن نوقف للحساب و نسأل عن كلّ ساعه ساعه منه فيم أفيناهها.

و قد كان سرّ التوفيق الذي حالف علماءنا الكرام فأنجزوا تلك المشاريع العظيمه معرفتهم بقيمه الوقت، و جدّيتهم في ألا يخسروا من عمرهم شيئاً يحاسبون غدا عليه حساباً عسيراً.

حقاً: كانت لهم إنجازات رائعه نتضاءل أمامها، فكيف تسنى للعلامة الحلّي -رضوان الله عليه- أن يؤلّف ألف كتاب مع أمور مرجعيته و قيادته للمؤمنين؟ فلو لا أنّه كان يتحدّى آفات العلم بإرادته الصلبيه لما وفق لمعشار ذلك! مثلاً عند ما دعي إلى حفل زواج في مدينه بعيده سافر إليها في عطلة نهايه الأسبوع

(الخميس و الجمعة) عاد بكتاب (تبصره المتعلمين) الذى أوجز فيه الفقه الاسلامى كله، ضمّنه عشره آلاف فرع فقهي (قانون اسلامي) ولا يزال الكتاب يعتبر قمه في موضوعه، وقد تناوله كبار فقهاء المسلمين بالشرح و التعليق، و كان يعتبر من أهم البنود الدراسيه في الحوزات العلميه إلى وقت قريب.

و إذا عرفنا مدى صعوبه السفر على الدواب حيث كانت الوسيله الوحيده للسفر في ذلك العهد، و بالذات إذا أراد الراكب أن يؤلف عليها و بأقلام مصنوعه من القصب، نعرف مدى الجهاد الذى كان قد مارسه عند كتابته هذا المؤلف الكبير! و الشيخ الكبير صاحب كتاب (جواهر الكلام) الذى وفقه الله لتأليف موسوعه فقهيه تتسع لكل أبواب الفقه.. بأدلتها التفصيليه العمل الذى عزم عليه الكثير من الفقهاء الإسلام فلم يوفقوا.. فلو لا تحديه للعقبات بإرادته فولاذيه إذا ما استطاع متابعه ذلك العمل الجبار.. حتى قيل أنه أتكّل بابنه الشاب فلم يترك ما قرّره على نفسه من الكتابه كل يوم، بل انكبّ على الدراسه و البحث، و لم يميّز أحد حتى اليوم تلك الصفحات التى ألقها فى أيام مصابه ممّا دلّ على عدم حدوث تغيير فى مستوى تأليفه! و هكذا سار الفقهاء الذين عاش الواحد منهم أكبر من عمره الزمنى أضعافاً مضاعفه ثم مضوا إلى ربّهم راضين مرضيين. إنهم كانوا يعرفون قيمه كلّ ساعه بل كلّ لحظه من عمرهم، فما كانوا يستريحون حتى ينجزوا خلالها عملاً صالحاً ينفعمهم يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ذلك اليوم الذى من ثقلت موازينه فهو فى عيشه راضيه، و من خفت موازينه فأثمّه هاويه! و اليوم حين ننظر إلى سلوك المسلمين كيف فقدوا وعى الزمن، و ضيّعوا فرص العمر، و غرقوا فى اللهو و اللعب، نتساءل: كيف يمكن إعادة المسلمين إلى مناهج

دينهم الحضاريه، حتى يتغلبوا على مشكله التخلف و التبعية التي هي أم المشاكل.؟ و هذا التساءل يشغلني كثيرا، و قد قارنت بين منهج علمائنا السابقين القائم على تفجير الطاقات و استغلال الفرص و ضغط الزمن بأي طريقه ممكنه.. و بين منهج علماء الغرب القائم على العمل الجمعي و على أساس تكاتف جهود كثير من ذوي الاختصاص على عمل واحد، و تساءلت كيف يمكننا التوفيق بينهما؟ دعنا نضرب مثلا- بين المنهجين: العلامة الاميني كتب موسوعه (الغدير) بجهده الشخصي و ميزانيته الخاصه المحدوده، و الكتاب بحاجه إلى جهود العشرات من المحققين، بالاضافه إلى ميزانيه كبيره، و المحدث القمي ألف (سفينه البحار) التي قال عنها أحد المستشرقين -حسبما سمعت- أنه لا يمكن أن يكون جهد شخص واحد أبدا، و الشيخ آغا بزرك الطهراني كتب موسوعه (الذريعه) بجهده الشخصي، و هي فهرست واسع لكل ما ألفه علماء الشيعه عبر التاريخ و حتى اليوم.

إن هذه الأعمال الكبيره ليست سوى انعكاس لمنهج الإسلام في التربيه القائم على تحسيس الفرد بقيمه الزمن و قيمه الفعل عبره. أميا المنهج الغربي فإن الموسوعه الفرنسيه و الموسوعه البريطانيه تعتبران من إنجازات العمل الجمعي التي لا ريب أنها كبيره و رائعه.. و أخيرا أنجزت الموسوعه الصينيه التي ساهم فيها مائه ألف عالم.

إن المقارنه بين ذلك تجعلنا نكتشف مفارقه غريبه حيث ترانا- نحن المسلمين- قد تركنا منهجنا القائم على أساس الأعمال الفرديه الكبيره، و لم نتعلم منهج الآخرين القائم على العمل الجمعي، فصرنا كمن ضيع المشيتين! و لو كنا نتبع في تفجير طاقاتنا الفرديه، و وعى الزمن، و السعي وراء إنجاز العمل الصالح لوجه الله، نتبع في ذلك منهج علمائنا الكرام، و في ذات الوقت نستفيد من المنهج

الغربي في القيام بأعمال مشتركة، إذا لكننا نسبق الآخرين.

و هذا هو المطلوب اليوم، وقد أنشأنا مؤسسه دار الهدى وفقا لهذه النظرية.

(٤) إلى وقت قريب لم يكن الذي يشتغل بتفسير القرآن أو كتابه التاريخ الاسلامي و ما أشبه محترما بمستوى الذي يتمحض في دراسته الفقه الاسلامي، بينما اليوم مع عوده الوعي إلى الامه نجد الكثير من المراجع و العلماء اهتموا بالقران، و قد كتب كثير منهم في التفسير كتبا مفضله، و هناك العديد من المؤسسات القرآنيه قد انشئت بأمر من العلماء أو تشجيع منهم، و هي بادره طيبه تدعو إلى التفاؤل بمستقبل زاهر، لأنّ القرآن هو الشافع المشفع الذي من جعله أمامه قاده إلى الجنه، و من جعله خلفه ساقه إلى النار.

و لكن تبقى المسافه بيننا و بين واجبنا تجاه كتاب ربنا شاسعه، و المقترحات التاليه قد تساهم في تقريبها:

ألف: أن تصبح دراسه القرآن (تلاوه و تدبّرا و تفسيرا و تأويلا) كما علوم القرآن قاعده الدراسات الاخرى في المعاهد الدينيه و الحوزات العلميه، حيث ينبغي البدء بها بعد دراسه اللغه و قواعد اللغه لكي يتربّي الدعاه إلى الله وفق المنهج الرباني، فلا يتأثروا بالثقافات الدخيله، كالفلسفه اليونانيه أو الأفكار الهنديه القديمه أو المبادئ الوافده من الغرب أو من الشرق.

باء: أن نسعى جاهدين لاستنباط قيم الوحي و مقاصد الشريعه و أهداف الدّين من القرآن الكريم، فتكون قاعده فهمنا للفقه، و تحليلنا للتاريخ، و مواقفنا في السياسه. لا بد أن نقضى على الفجوه المصطنعه بين علمي الفقه و التفسير. أو ليس كتاب ربنا بالنسبه إلى الفقه كما الدستور بالنسبه إلى القوانين و اللوائح؟

جيم: كيف ندعوا الناس إلى الدين؟ كيف نذرهم عاقبه الكفر و الفسوق و العصيان؟ كيف نربيهم على التقوى و الفضيله؟ لا ريب أن بعض مناهج التبليغ خير من بعضها، و الدعاه يختلفون في هذه المناهج، و لكن أفضلها جميعا منهج القرآن الذي أتبعه النبي و ال بيته الكرام (صلوات الله عليهم)، فلا بد أن نتخذ آيات القرآن و تفسيرها و وسيله للوعظ و الإرشاد، و كفى بها واعظا، و من لم تنفعه آيات الذكر لن ينتفع بشيء.

و الواقع: كانت هذه الأفكار التي اختصرتها هنا في صورته مقترحات على أمل أن أفصّل لها في مناسبات أخرى كانت وراء اتجاهي نحو التفسير قبل حوالي ١٢ سنة. كم وفقت في تحقيقها؟ لا أدري، و لكن لا زلت مقتنعا بأنني بحاجة إلى الاستزاده من القرآن، و قد سألت الله أن يجعلني مشغولا إلى نهايه عمري بتفسيره، فهل أوفّق أم تحول مشاكل الحياه دون هذه الامنيه الشيقه؟ أتّى كان فإنّ أملى بالله، ثم بهذا التوجه الجديد إلى القرآن من قبل العلماء و المفكرين، كما ياخوتنا في مؤسسه دار الهدى، الاستمرار في هذا الاتجاه إنشاء الله.

و كلمه أخيره:

إنّني أشكر الله الذي هداني إلى كتابه فأصبحت أنظر إلى الحقائق بصوره أجلى.. و أصلى على النبي محمّد و اله، سيما الامام علي بن موسى الرضا الذي طالما سألت الله عند ضريحه التوفيق في إتمام التفسير.

و أذكر بالخير إخواني الذين ساهموا بشكل أو بآخر في هذا التفسير، و أخص بالذكر الاخوه سماحه الشيخ صمدى و سماحه الشيخ شهاب و سماحه الشيخ عبد الشهيد و الأستاذ طالب خان من دار الهدى الذين ساهموا بصوره فعّاله في إنجاز التفسير، كذلك الأستاذ الحاج حسن الرضوى و الأستاذ عبد الله أكبرى و سائر

الاخوه فى مكٲبى..و الأزاز حزننن فى ءار البزائز مَمَن ءاهم فى ءهئزه وزائل طبع و نشر الكزاب بالصورة الجميلة الزى علئها.

و لا أنسى أخيرا أن أذكر زوجزى المرحومه أمم صالحزز الزى أهزبز ءواب ءفسئر إلى روحها وفاء لزبرها معى فى الشزائز.

أسأل الله العلى القزئر أن یتقبل مَنّا ءلكززز و أن یغفر لنا ءنوبنا و ءقزئرنا فى أمرنا إنه غفور رحیم. (١)

مشهد المشرّفه محمد ءقى المدرسى /١٣ ذى الحجه الحرام ١٤٠٩هـ

ص: ٤٨٨

١ - ١) بعء كزابه هءه المقءمه. بأشهر صءمزنا وفاء أخينا الفاضل الخزب المجاهء سماحه الشئخ شهاب (على المهدى ال حيدر) الزى كان نعم العون لنا فى ءار الهدى حئز ءاهم بأءبه الرفیع. و ءكائه المزقءززز و علمه الجم فى بلوره رؤانا فى ءفسئر و صباغزهزز و بالزاز فى الاءزاء الاربعة ما قبل الاءیره. فجاءز وفاءزه الزى كانت بحاءزه ءیاره-جاءز ءلیلا جءیءا على أن فرزه العمر أقزر مما نزصور. و انها ءنزهى فى أیه لءظه فعلئنا الاجزهاد فى اسزغلالها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

